أ.د. عبد الحميد أحمد البسّ

هذه هي أمي

قطوف من حياة الوالدة دولت أبورامون
زوجة الداعية الصابر أحمد البس

تقديم

الأستاذ
محمد مهدي عاكف

المستشار
عبد الله العقيل

مركز الإعلام العربي

مقدمة الناشر

كانت ذاكرة الطفل الصغير غضة، تختزن، وتسجل الأحداث والمواقف المتلاحقة حوله، وترتسم فيها الصور واضحةً المعالم... صورة الأب الحبيب يقتاده الزبانية إلى غياهب السجون بلا جريرة أو ذنب سوى انتمائه إلى دعوة ربانية تُعد في عرف هؤلاء جريمة يعاقب عليها قانونهم الأرضي الظالم، وصورة الأم الشابة التي تتحمل المسؤولية في غيبة الأب، وتقوم بها خير قيام دونما نصير أو سند إلا الله (ﷻ) بعد أن انفضَّ عنها معظم الأقارب إيثارًا للسلامة وخشية أن ينالهم ما نال هذا الأب من تنكيل واضطهاد، وصورة الأشقاء الصغار الذين تنطق عيونهم بالتساؤل والخوف، وتتعلق بالأم الصابرة تنشد في حضنها الأمان.

نشأ الطفل في أجواء امتزج فيها الألم بالأمل، والمحنة بالمنحة، والمأساة بالصبر الجميل، والظلم بالعطايا الربانية، وغياب الأب القاسي بحضور الأم المتميز المعطاء، وشدة الابتلاء بقوة الرجاء.

وكبر الابن وهو يرى في أمه - كل لحظة - آية من آيات الوفاء والاحتساب والكرامة والنبل والتجرد وحسن التوكل والرضا وقوة اليقين، وغيرها من المعاني العظيمة التي تجلت في شخصية تلك الأم نادرة المثال.

لقد ظللت الأم أبناءها برعايتها وحبها وتربيتها القويمة؛ فشعر الصغير بأن الأب مُغَيَّبٌ وراء القضبان جسدًا، ولكنه حاضر هيبةً ودورًا في صورة الأم التي لم تبرح خيال صغيرها، بل تجذَّرت في وجدانه، وامتزجت بروحه، وتحوَّلت إلى جزء لا يتجزأ من كيانه الإنساني بما أحاط بها من مواقف نبيلة ومقولات بليغة، وسلوكيات تنطق

بأروع القيم، وردود أفعال تؤكد أن هذه الأم مصنوعة على عين الله، متخلِّقة بأكرم السجايا.

إذ لم يفتر لها عزم، ولم يداخلها أدنى يأسٍ، ولم تزدد إلا يقينًا بمعية الله رغم قسوة الابتلاء ووطأة الظروف وثقل الأعباء.

كان الأب وراء قضبان الظلم والبغي، والأم في أتون الحياة تمنح وتعطي وتحمل فوق ظهرها ما تنوء به الجبال، ولكنها لا تظهر لزوجها سوى ابتسامة الرضا وإشراقة الأمل، فتذهب إلى زيارته قاطعة الطريق الطويلة بمشاقها وعثراتها، متحملة جبروت الحراس وغلظتهم ومصطحبة صغارها لتلتقيه بوجه يضيئه الإيمان وتصبره بكلمات يكللها حسن الظن بالله، وتخفي عنه ما تعانيه إشفاقًا عليه، بل تتحمل وحدها فجيعة فقد الولد ليلهمها الله بعد شهور كيف تنقل الخبر إلى زوجها دون أن تذهب الصدمة بيقينه أو تسلب من رصيد صبره واحتسابه.

لقد رأى الصغير في أمه معجزة إنسانية، وشبَّ في كنفها، وهو يتعلم منها كل يوم دروسًا في المبادئ والأخلاق القويمة، ولأنه نشأ في بيت إخواني صميم، وتربى في أجواء الدعوة الطاهرة؛ فقد صار البر وحفظ الجميل ملمحين أساسيين في شخصيته دفعاه لأن يشحذ قلمه ويسطر بمداد هذا البر سيرة حياة أمه العظيمة، ويسجل مواقفها النادرة منذ اعتقال أبيه وحتى انتقالها إلى رحمة ربها راضية مرضية إن شاء الله.

إنها قصة حياة امرأة ربانية، تحملت أقدارها بصمت الراضين عن ربهم، وأدت أمانة الزوجية والأمومة خير أداء، ولم تهتزَّ تحت وطأة النقلة الفجائية من حياة الترف والدعة في بيت أبيها إلى حياة الشظف والمعاناة في بيت زوجها، فكانت مثالاً يُحتذى لكل من ينشدن رضا الله، ويسعين للفوز بسلعته الغالية - الجنة - ولا يترددن في تحمل ثمنها، رضًا وصبرًا وحُسن توكل.

وإذ ينشر **مركز الإعلام العربي** هذه السيرة العطرة التي سجلها بقلبه قبل قلمه الابن البار د. **عبد الحميد البس**، نجل الشيخ الراحل **أحمد البس** - أحد الرعيل الأول للإخوان المسلمين - فإنما يعتبرها دليلاً وهاديًا إلى الحياة الحقيقية، حيث العطاء المجرد ابتغاء وجه الله، والنظرة المتفائلة رغم الصعاب والمستشرفة للأجر، وإن طال أمد الصبر، ويعدها نموذجًا وقدوة لكل المسلمات، ورسالة إلى كل أم، تناشدها العض بالنواجذ على رسالتها المقدسة، واحتساب كل ما تبذل من جهد ووقت في سبيل أبنائها، راجية ثواب الله وحده، وأيضًا إلى كل ابن وابنة؛ تناشدهما ألا يجحدا عطاء أمهما، وألا يعتبراه مجرد دور عليها أداؤه دون أن تستحق عليه البر والشكر.

رحم الله تلك الأم الفاضلة العظيمة، ونفع بسيرتها العطرة كل بناتنا وأمهاتنا، وجزى د. **عبد الحميد البس** خير الجزاء على تسجيله لهذه الملحمة الإنسانية المحتشدة بالدروس والعبر والقيم التي إن حضرت في بيوتنا لحضرت معها أطيب حياة، حتى وإن كان ظاهرها عنتًا ومشقة بالموازين الدنيوية القاصرة التي لا يحتكم إليها إلا قصار النظر وقاصرو البصيرة، أما الربانيون ذوو الأهداف والمقاصد العليا فإن موازينهم الربانية تجعلهم يرون في كل أقدار الله خيرًا عاجلاً وآجلاً بالشكر على السراء والصبر على الضراء، فتحية إلى روح السيدة **دولت أبو رامون** (رحمها الله)، وجعل كل ما تحملت في ميزان حسناتها، وجمعنا بها في مستقر رحمته.

الناشر

تقديم

بقلم فضيلة الأستاذ
محمد مهدي عاكف

الحمد لله على نعمة الإسلام، ونعمة الإيمان، ونعمة الحياة في ظل دعوة الإخوان، وصلِّ اللهم وسلم على خير أنبيائك وخاتم رسلك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الأطهار..

سعدت أيَّما سعادة بهذا الكتاب القيم الذي ما إن فرغت من قراءته حتى تراءت أمامي بدايات دعوة الإخوان المباركة، والمحن القاسية التي تعرض لها الرعيل الأول من هذه الدعوة، وصور الصبر والصمود والجهاد والاحتساب التي حفلت بها تلك السنوات، وكانت أبلغ دليل على صدق انتماء هذا الرعيل لدينه واستعداده للذود عنه بكل غال ونفيس.

فالكتاب الذي سطَّر صفحاته واحد من الأبناء البررة لدعوة الإخوان العظيمة يمثل سياحة مباركة في بيت إخواني انتمى أهله بصدق إلى تلك الجماعة الربانية، وتضافروا جميعًا لنصرتها، متحملين أصعب الظروف وأقسى المحن، ومتطلعين إلى عظيم الأجر من الله العلي القدير.

ولئن كان مؤلف الكتاب الأخ الفاضل **د. عبد الحميد البس** قد سطره وفاءً للسيدة الفاضلة والدته الكريمة - رحمها الله - فإن سيرة هذه السيدة هي جزء لا يتجزأ من سيرة الإخوان وسير كثير من الأمهات الفاضلات والزوجات الكريمات

اللاتي عشن للفكرة الإسلامية وبها.. وساندن أزواجهن؛ لكي يستمروا على الطريق الصعب، ويتحملوا تبعاته الكثيرة، وربين أبناءهن على حب الدعوة والتضحية من أجلها، فنشأ على أيديهن المباركة جيل رباني قدوة، رحل بعضه إلى ربه بعد أن أدى أمانة الدفاع عن الإسلام والدعوة إلى الله على بصيرة، وما زال البعض الآخر أحياء يزيد تمسكهم يومًا بعد يوم بدعوتهم وجماعتهم، رغم وطأة التحديات وكثرة الضغوط والعقبات.

لقد كانت السيدة الفاضلة **دولت أبو رامون** (رحمها الله) واحدة من عظيمات الأخوات اللاتي رافقن أزواجهن خير رفقة، وكن السند والدعم بعد الله (ﷻ) لهؤلاء الرجال الذين غُيِّبوا سنوات طوالاً في غياهب السجون، فأدت الزوجات والأمهات أدوارهم، وصمدن على الطريق، ورفضن المساومات، ولم يستسلمن لقسوة الظروف بل استعلين على المحنة، ووقفن في ظهور الأزواج يشجعن ويدعمن ويثبتن ويذكرن بالأجر المنتظر.

والكتاب يزخر بالمواقف العظيمة لهذه السيدة الكريمة، الزوجة والأم الصابرة المحتسبة التي قدمت من آيات التضحية والوفاء والصبر ما تعجز عنه كثيرات، وتحملت محنة اعتقال الزوج المتكرر بثبات نادر، فلم يفتر لها عزم، ولم يتسرب إليها يأس، ولم تلن لها قناة، بل أكملت مسيرة زوجها، وقامت على تربية أبنائهما خير قيام، وكانت ثمرة هذه التربية ذلك الكتاب الذي يحكي فيه ابنها البار سيرتها الغنية بالدروس والعبر لكل زوجة وأم، بل لكل فتاة مقبلة على الزواج لتختار من ستشاركه الحياة ويشاركها، كما اختارت هذه السيدة، اختارت المؤمن الخلوق العامل لدينه، وعاشت معه سنوات على الود والوفاء، فحفظت العهد، وصدقت الوعد، وكانت لزوجها نعم السكن ولأبنائها خير أم.

إنني أناشد كل الفتيات والنساء المسلمات قراءة هذا الكتاب؛ ليعرفن منه أسرار السعادة الحقيقية والحياة الطيبة، ويدركن أن المنح تتوارى في طيات المحن، وأن الأجر العظيم يستحق التضحيات العظام، وأن قدسية رباط الزوجية تملي عليهن من التبعات والمسؤوليات ما يجعلهن - إن تحملنها واضطلعن بها - جديرات برضوان الله وثوابه الجزيل في الدنيا والآخرة. أناشدهن التعرف على سيرة حياة تلك المرأة النموذج التي لم تختر على الله ورسوله (ﷺ) فامتد ذكرها الحسن إلى ما بعد موتها، ممثلاً في هذا الكتاب الذي يحكي مواقفها العطرة ووقفاتها العظيمة، ويؤكد أن "**الذكر للإنسان عمر ثانٍ**"، وأن أصحاب المبادئ النبيلة يحيون تحت الأرض كما عاشوا فوقها، يحيون قدوة ومثلاً وسيرة مشرفة ومشرقة بالعطاء والبذل.

فما أحوج بناتنا وأمهاتنا إلى هذا الكتاب في زمن يراد لهن فيه أن يعشن حياة الرخاوة والترف واللا مسؤولية والهوان والغثائية، فيسقطن في أول اختبار، ويتهاوين أمام أقل التحديات، ولأن جماعة الإخوان المسلمين ما زالت تتعرض إلى ما تعرضت له في عهود سابقة من اضطهاد وتقييد واعتقالات وحملات أمنية وإعلامية شعواء؛ فإنها بحاجة إلى نساء صامدات قويات مجاهدات يعدن سيرة نساء الرعيل الأول اللاتي لم تكسرهن المحن ولم تغيرهن الفتن.

فلنتأمل جميعًا ملامح سيرة هذه الأم الفريدة والزوجة الصالحة، ولنتمثل القيم والدروس والعبر من هذه السيرة الطيبة التي نسأل العلي القدير أن يجزي صاحبتها خير الجزاء عما قدمت لدينها وأسرتها وما تحملت من أجلهما من عنت ومشقة.

كما نسأله (جل وعلا) أن يجزي الأخ الكريم د. **عبد الحميد البس** خير الجزاء على بره بأمه الفاضلة، وكل ما بذله من جهد مشكور في تسجيل سيرتها العطرة بأسلوب بليغ سلس، ينطق بالصدق والإخلاص، ونفع الله بهذا العمل الصالح أبناءنا وبناتنا، وجعله في ميزان حسنات من كتبه ومن كتب عنها.

كما لا يفوتني أن أشكر **مركز الإعلام العربي** على نشره لهذا الكتاب الذي لا أعتبره مجرد سيرة حياة امرأة عظيمة، بل دروسًا وعبرًا وقيمًا وعلامات على طريق الحق الذي اصطفانا الله للسير عليه، رغم مشاقه وصعوباته.. ولكنه اختيار الله لنا، ثم اختيارنا لأنفسنا بحب واقتناع ورضا بما لقينا وسنلقى، فالهدف عظيم، ولابد لتحقيقه من تضحيات أعظم.

والله من وراء القصد

محمد مهدي عاكف

القاهرة في

١٢ من رمضان ١٤٣١هـ

٢٢ من أغسطس ٢٠١٠م

تقديم

بقلم المستشار عبدالله العقيل

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد... فماذا أقول عن هذا الكتاب الذي ألّفه شخص من أقرب الناس إليّ... عرفته عن قرب فترة عملي بمكة المكرمة، فوجدت فيه الأخ المسلم العامل الصامت... الودود المحب... المتفاني في خدمة إخوانه وأساتذته، وليس هذا بغريب عليه، فهو ابن الداعية الكبير والمجاهد المربي أستاذنا الحبيب **أحمد محمد البس** الذي شرفت بالتَّتلمذ على يديه بمصر مع إخواني: العسال، والقرضاوي، والصفطاوي، وغيرهم؛ وكان هذا الداعية شامة الدعاة بمصر لنبل أخلاقه وتواضعه وكرمه ونشاطه التربوي والدعوي وخدماته للناس على مختلف مستوياتهم بمصر وخارج مصر.

أما الكتاب فموضوعه عن الأم الداعية، والمربية الفاضلة، والصابرة المحتسبة التي ضربت أروع المثل في الثبات على الحق والوقوف إلى جانب زوجها الذي غاب عنها في سجون الطغاة قرابة ربع قرن، فما ضعفت ولا وهنت، بل انصرفت إلى تربية أولادها البنين والبنات، فأحسنت تربيتهم؛ فكانوا نماذج فذة في الدين والخلق والعلم.

كذلك لم تقصّر في حق زوجها؛ فقد كانت تزوره في السجون المتعددة طيلة هذه السنوات العجاف، وتتحمل من المتاعب ما لا يطيقه إلا الصابرون الصادقون المتوكلون على الله، فكانت نعم الزوجة ونعم الأم ونعم الأخت المسلمة العاملة التي يزيّنها الخلق الفاضل والعمل الصالح والكلم الطيب مع القريب والبعيد ... والعدو والصديق... والتي ضربت أروع الأمثلة في الإحسان حتى للذين أساؤوا إليها.

لقد استمر هذا شأنها رغم الظروف الصعبة التي مرت بها، فقد ظلت تكافح في الحياة بمفردها ... تدبر أمور البيت وتعتني بالأولاد: تنشئةً، وتربيةً، وتعليمًا، حتى صاروا نماذج صادقة للمسلم العامل في هذا العصر الذي كثرت فيه الفتن، وضعف فيه شأن الدّين لدى الكثير من الناس، وبخاصة أصحاب السلطان، والمترفون، ودعاة التغريب، الذين انتصبوا لحرب الدعاة إلى الله، ونشروا الفساد في الأرض، وقاوموا دعاة الإصلاح الذين يعملون لمرضاة الله، ويسعون لإنقاذ الأمة من التردي في الهاوية، ويأخذون بأيدي الناس إلى طريق الحق والخير والعزة والكرامة.

ورغم هذه الحرب الضروس، فقد صمد الدعاة إلى الله، وساروا على الدرب دون توقف، بل ضاعفوا الجهد، وأحسنوا التوكل على الله؛ فرزقهم الله التوفيق، وبارك في أعمارهم وأوقاتهم وجهودهم، فأثمرت هذا الخير في هذه الصحوة الإسلامية المباركة التي تنتظم الشباب والشابات والرجال والنساء، والتي عمت أرجاء العالم العربي والإسلامي؛ فكانت المحن التي تعرض لها الدعاة منحًا أفاضها الله على عباده، ونعمة وبركة في العمل والعمر والوقت بفضل الله.

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا عن الأخت الفاضلة والداعية المربية زوجة أستاذنا أحمد البس هو لمسة بر ووفاء من ابنها الدكتور عبد الحميد، الذي سطر هذه الكلمات بروح مُشربة بالإيمان، وقلم ينبض بالمشاعر الصادقة، وأسلوب سلس ليس فيه تكلف، بل ترك لقلمه وروحه عرض سيرة والدته، كما عايشها بكل تفاصيلها

وأحداثها كأنك تعيشها اللحظة، وهذا توفيق كبير من المولى (عَزَّوَجَلَّ)، فَنِعْمَتِ الأم الحنون الرؤوم هي، ونِعْمَ الولد البار بوالديه قولاً وعملاً هو.

لقد عشت مع هذه السيرة العطرة لهذه الأم المجاهدة عبر هذه السنين الطويلة من خلال هذا الكتاب القيّم الذي ترجم عن نشأتها ومراحل حياتها، ومواقفها داخل البيت وخارجه، مع الزوج والأولاد... ومع الأقارب والجيران... ومع الناس جميعًا الذين عرفتهم وعرفوها.

وإنني لأدعو النساء المسلمات إلى أن يقرأن هذه السيرة المباركة لهذه الداعية الصابرة التي كانت مع أخواتها: زينب الغزالي، وأم معاذ، وأم أحمد، وغيرهن من الداعيات، مصابيح هداية في عصرنا للنساء والفتيات المسلمات.

جزى الله أخي أبا خالد على ما قدم من سيرة لوالدته، ونحن في انتظار أن يكتب لنا عن سيرة أبيه، وعسى أن يكون ذلك قريبًا، والحمد لله رب العالمين.

المستشار

عبد الله عقيل سليمان العقيل

[أبو مصطفى]

مقدمة المؤلف

يحكي هذا الكتاب قصة حياة امرأة من النساء الصالحات القانتات (**نحسبها كذلك والله حسيبها**)، وهو صورة صادقة لحياتها: حركاتها وسكناتها... ثباتها وصمودها... شموخها وإبائها... تضحياتها وصبرها... تقديرها وحبها لزوجها... حنانها وحزمها مع أبنائها... حكمتها ورجاحة عقلها... غرسها لشعور المسؤولية في نفوس أولادها... توكلها على الله... مرضها ووفاتها (يرحمها الله).

لقد ابتليت هذه المرأة ابتلاءً قاسيًا عندما غاب زوجها عنها قرابة ربع قرن من الزمان، فعاشت حياتها متواصلة العطاء... مذللة للعقبات... متحدية للمصاعب... متعالية على المحن... مستعينة بالله على مواجهة المواقف العصيبة دون أن تحنِي هامتها الشامخة إلا للعزيز الحميد الذي أحياها مرفوعة الرأس عزيزة أبية... عفيفة وفيّة... صارعت الشدائد فثبتت، وربَّت أولادها فصبرت، وأصيبت في ثمرة قلبها فاحتسبت، وأوذيت فصمدت، ورسمت بكفاحها أسمى معاني البذل والعطاء، في سبيل قيم ومبادئ عاشت من أجلها وماتت في سبيلها.

هذا الكتاب يرتحل في نفس هذه الزوجة الوفية الراسخة الإيمان التي جابت أرض مصر لتزور زوجها في السجون والمعتقلات، دون أن يضيق صدرها يومًا أو يفتر لسانها عن الدعاء، ويكشف النقاب عن حياتها كأمّ عاقلة باسلة تحملت ما ينوء بحمله الجبال، وعاشت تصون وترعى في غياب زوجها بيتًا مباركًا من بيوت واحدٍ من الرعيل الأول لدعوة الإخوان المسلمين الذي تربى على نهج رسول الله (ﷺ) وصحابته الكرام (رضوان الله عليهم)، وعاش في رحاب الإمام الشهيد **حسن البنا** وصحبته.

كما يحكي هذا الكتاب قصة مرضها عندما أحاط بها من كل جانب وأضعف قواها، فتجرعت آلامه صابرة محتسبة، لتكون حياتها سلسلة من المحن والابتلاءات والشدائد التي لم تنتهِ إلا برحيلها عن دنيانا الفانية إلى الفردوس الأعلى من الجنة، إن شاء الله.

إنه رسالة تثبيت امرأة مسلمة تتوالى عليها صنوف البلاء لتصبر وتحتسب وتتحمل، ليكون كل هذا لها نبراسًا ونورًا بإذن الله على طريق رضوان الله.

المؤلِّف

الفصل الأول

بداية الرحلة

بداية الرحلة

ولدت السيدة "دولت سليم أبو رامون" عام ١٩١٧م، في قرية جناج، بالقرب من مركز بسيون بمحافظة الغربية، وشبّت وترعرعت في أحضان عائلة كريمة وجيهة، فقد كان والدها الشيخ سليم إبراهيم أبو رامون شيخًا وقورًا، أما والدتها فهي السيدة الفاضلة زينب الباجوري، سليلة إحدى أكرم الأسر بقرية كفر الدوار.

كانت البنت الوحيدة وسط سبعة إخوة، ورغم ذلك لم يسرف والداها في تدليلها، بل نشّآها على طاعة الله ورسوله، وعلماها فضائل الأعمال، وبَثَّا فيها مكارم الأخلاق، وكان لهما أطيب الأثر في استقامتها؛ فكانت بحق نموذجًا مشرفًا للفتاة المسلمة الصالحة التي نشأت مستمسكة بشرائع الإسلام وأخلاقه الكريمة؛ فقد كان ليلها قيامًا وقربات... ونهارها صيامًا وطاعات؛ مما انعكس على ملامحها وضاءةً، وعلى وجهها نورًا، وعلى محياها هيبة ووقارًا.

وقد ساهمت هذه التربية الإيمانية بشكل كبير في رسم معالم شخصيتها، فكانت معتمدة على الله، مستعينة به متوكلة عليه، مطمئنة إلى جنابه (جل جلاله)، تلجأ إليه في الشدة، وتستعين به في العسرة، وتشكره على نعمائه، وتحمده على خيراته، وتنام على أمل رضاه عنها (جل جلاله).

ولعل هذه النشأة الفريدة والتربية الإيمانية كانت تهيئة ربانية وإعدادًا مبكرًا قَدَّرها لها مولاها؛ لحمل الأمانة العظيمة التي كانت تنتظرها فيما بعد، ساعدها على ذلك ما اجتمع لها من خصائل الخير ورجاحة العقل وشمائل النبل - نحسبها كذلك والله حسيبها وكفيلها، ولا نزكي على الله أحدًا - فأكرم بها من نعمٍ حباها بها الله تفضلاً وتكرمًا.

لقد استندت حياة والدتي الحبيبة على قيم عليا رفيعة؛ من صدق، وأمانة، وتواضع، وتسامح، وتميّزت شخصيتها بهدوء الطبع وثراء العقل وغناء الروح، لذلك ما تعامل معها أحد إلا وأثنى على كرم خلقها وعزة نفسها، واستشعر لها مهابةً وإجلالاً في قلبه، وما خالطتها أخت إلا أحبت عشرتها واستشعرت في وجهها الطهر والنقاء، وفي قلبها الطمأنينة والصفاء؛ لذا فقد تحابت مع أخواتها بروح الله على غير أرحام بينهن، وارتبطت بهنّ برباط وثيق من حب خالصٍ لا يُحَرِّكُه نفع دنيوي، بل ينبثق من التقوى، ويرتكز على الاعتصام بحبل الله المتين؛ وتوثقت عرى هذه المحبة بمعاملتها الطيبة، ووجهها البشوش، وبسمتها المشرقة التي كانت تنبعث من أعماق قلب امتلأ بحب الناس؛ ففاض على وجهها بشرًا وسرورًا.

أعلنت في مقتبل حياتها رضاها واستسلامها وتوكلها على الله رب العالمين، فعاشت ولسانها لا يفتر عن ذكر الله... وقلبها مشرق بنوره سبحانه... كانت ترى الغنى دون الله فقرًا... والفقر مع الله غنًى... لا سعادة إلا معه سبحانه... ولا حب إلا له... ولا لذة إلا في قربه... فوهبها الله (جل جلاله) الطمأنينة، وأذاقها حلاوة الإيمان.

كانت الوالدة الكريمة قبل زواجها تستظل بخمائل الراحة، وترفل في ثياب النعمة، وتتقلب في أحضان طيب العيش؛ فقد كانت أسرتها من العائلات الميسورة في الريف؛ ولما بلغت سن الزواج تقدم لها شباب كثر من ذوي الثراء والحسب يبتغون خطبتها، وهو ما يغري أي أسرة تبغي تزويج ابنتها الوحيدة، ولكن الفتاة العاقلة استهانت بالثروة، وتعالت على المال، واستغنت عن الترف، ولم تَستَجِبْ لمطالب النفس التي تهوى لذيذ العيش، ولم ترضَ إلا بالزواج من الداعية الكريم أحمد البس الذي لم يكن يملك إلا وظيفة براتب ضعيف ليقينها بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، ولأنه كان يمتلك معها شهادة بالإيمان والصدق والنزاهة؛ فقد زكّاه الذين توسطوا له للزواج من ابنة هذه الأسرة الكريمة، كما شهدوا ببساطته وتواضعه البالغين،

وبحرصه على خدمة إخوانه، وأنه صاحب مبدأ وقضية وعزيمة قوية، وهمة عالية ونفس أبية، وقلب ينبض بحب الدعوة؛ فلها يحيا، ومن أجلها يعيش.

صورة للوالد عام ١٩٣٥م

لقد كان الداعية الكريم **أحمد البس** الذي ارتضته زوجًا لها من الرعيل الأول لدعوة الإخوان المسلمين الذين قامت دعوة الإخوان على أكتافهم، وكانوا معقد الآمال لإيقاظ الأمة من سباتها، وكان حقًا من أهل الفضل الذين قلَّ أن يجود الزمان بمثلهم، وأحد إخوان الصدق الذين كانوا يعملون جاهدين لإقامة دولة الإسلام وتحقيق رسالته، والذين تصدَّوا في عزيمة قوية لقوى الظلم الساعية إلى تعطيل قافلة الدعوة إلى الله وإيقاف مسيرتها؛ كان يعيش لأمته باذلاً كل ما يملك في سبيل كرامتها وعزتها ورفعة شأنها وعودتها إلى منهج ربها؛ وكان يؤمن بأن الجهاد صبر

وتضحية، وعمل وتحمل، وإخلاص وتجرد، وظل وفيًا لدعوته التي ملكت عليه عقله ومشاعره، فوهبها حياته، وسخَّر من أجلها طاقاته، وعاش ومات في سبيلها.

يقول عنه المستشار عبد الله العقيل في كتابه "من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة": لقد كان الحاج أحمد البس نموذجًا رائعًا وقدوة حسنة للدعاة في علمه وخلقه ودينه وتقواه وسيرته ومعاملته، وكان التواضع والبساطة والكرم والبشاشة من صفاته التي لا تفارقه، وهي قدر مشترك ينتظم معظم دعاة الإخوان المسلمين، وبخاصة الذين تربوا على يدي الإمام الشهيد حسن البنا ومرافقيه فترة من الزمن، فهذا الجيل له من الأخلاق العالية، والنفوس الكبيرة، والصلاح والتقوى، والصبر والثبات، والعمل الدؤوب في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله، نصيب كبير وجهد متواصل وباع طويل وعمل متقبل مشكور بإذن الله".

ويقول عنه الأستاذ عباس السيسي (رحمه الله)[1]: "عاش أحمد البس حركة الدعوة على اتساعها في الأقطار والأمصار أكثر من خمسين عامًا نصفها في المعتقلات والسجون، وكان قريبًا من الإمام الشهيد حسن البنا، فشرب من أخلاقه وآدابه، وأدرك الأهداف والغايات التي جاء بها رسول الله (ﷺ) رحمة للعالمين.

كان متحدثًا يتحلق حوله الشباب، ويستمعون إليه في شوق وإنصات ولهفة، فهو مشرق الطلعة، في منطقه نور وحلاوة، وفي حديثه مسحة رطبة ندية تأصلت من طبيعته الريفية، وفي ثنايا أحاديثه الرقيقة، يتوجه إلى مكامن الحواس فيوقظها برفق، وهو صاحب قلب كبير يتسع لإخوانه جميعًا، وكان يتودد إلى الشباب، وينزل إلى مستواهم الفكري والروحي ليرتفع ويحلق بهم إلى الأفق الرحب المستقى من منهج الرسول (ﷺ).

---

(١) كتاب "من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة"، للمستشار عبد الله العقيل.

هذا هو الدعية الكريم **أحمد البس**، الذي فضلته والدتي على من سواه، وارتضته زوجًا لها، وقد تم الزواج عام ١٩٤٠م، وكان عمر والدتي الغالية آنذاك ثلاثة وعشرين عامًا، أما والدي الحبيب فكان يبلغ من العمر أربعة وعشرين عامًا؛ وقد تميزت علاقتهما من أول يوم بالمودة والرحمة والاحترام المتبادل والهدف المشترك، وهو العمل لدين الله، والسعي لإعلاء راية التوحيد.

كانت والدتي (رحمها الله) نموذجًا حيًا للتربية النبوية ومثالاً طيبًا للزوجة الكريمة الوفية التي تسعى لإرضاء زوجها وطاعته؛ كانت تحرص على مشاعر والدي وتحتويه بالحنان والاهتمام، وتدرك احتياجاته ومتطلباته، وتُؤتمن على شؤونه، وتقدر عمله لدين الله، وتفخر بدوره في الدعوة؛ لذلك كانت لا تكلّ أو تملّ من خدمته وخدمة ضيوفه من رجال الإخوان ونسائهم الذين كانوا يفدون إلى البيت... تفرح بمقدمهم... وتكرمهم بنفس راضية، محتسبة كل ذلك عند الله (عَزَّوَجَلَّ).

رُزِق والدي منها بذرية طيبة أسعد الله بها قلبيهما وأقر عيونهما، وهم :

١- **إحسان**، وهي كبرى البنات والأبناء، تزوجت الأخ الكريم أبو اليزيد الملاح، الذي عانى الويلات العظام في سجون عبد الناصر، فكانت حياتها ملحمة من ملاحم الجهاد والتضحية. شأنها شأن والدتي التي أورثتها الصبر والصمود والاحتساب.

٢- **إقبال**: وهي زوجة الأخ الحبيب سعيد منسي، الذي كان رفيقًا لجهاد والدي رحمه الله، فكانت حياتها ملحمة ثالثة من ملاحم الصبر والتضحية.

٣- **محمد الأمين**: ويعمل موجهًا بالتربية والتعليم في الإسكندرية، "وهو بالمعاش الآن".

٤- **عبد الحميد**: مؤلف هذا الكتاب، وأعمل حاليًا أستاذًا بكلية الهندسة والعمارة الإسلامية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة بالمملكة العربية السعودية.

٥- **إكرام**: توفيت طفلة لم يتجاوز عمرها العامين، وكان والدي حينها في المعتقل.

٦- **حسن الإمام**: وهو رجل أعمال يعيش في مدينة طنطا.

٧- **محمد خالد**: أخي الأصغر، وقد توفي في زهرة شبابه عن عمر يناهز الخامسة عشرة ربيعًا إثر مرض لم يمهله إلا أيامًا؛ فصبرت أمي على فراقه أجمل الصبر، واحتسبته عند الله.

بالإضافة إلى هؤلاء، فقد كان الإخوان جميعًا أبناءً لها، تحمل لهم من مشاعر الحب ما يسعهم، وكان الإخوان يقدرونها؛ لما اتسمت به من أمومة وحنان، ويُجِلُّونَهَا؛ لما كساها الله به من مهابة ووقار ولين جانب.

عاشت الأسرة في هدوء واستقرار بين والد حنون وأم رؤوم لمدة عشرة أعوام، ثم أراد الله أن يختبر إيمان والديّ، وهو سبحانه أعلم بهما، فابتلاهما ابتلاءات متتابعة... وشاءت إرادة الله لوالدتي الحبيبة أن تتذوق طعم الصبر والعطاء والتضحية، وأن تتحلى بِحلَى الجهاد في بيت والدي الداعية أحمد البس؛ ورغم عظم هول المحن واشتداد وطأتها؛ فإن والدتي وثقت بوعود الله (ﷻ) بالنصر والفرج لأوليائه، فصبرت وثبتت، وأمدت زوجها بالصبر والثبات؛ يقول الوالد الحبيب عنها في كتابه "الإخوان المسلمون في ريف مصر":

"عندما تزوجتها رأيت فيها كل فضيلة كنت أتمنى، فقد كانت والحمد لله ذات دين، ولم ينقصها شيء من الذي تنكح المرأة لأجله، وأزالت من ذهني بحسن خلقها وكريم سجاياها كل ما كنت أخشاه من الزواج، وصدق رسول الله (ﷺ): "**فاظفر بذات الدين تربت يداك**"[1].

---

(١) صحيح البخاري.

لقد كانت الوالدة الحبيبة شمس وفاءٍ ونبع عطاء في حياتنا ... عطاءً ما منَّتْ به يومًا، بل كانت تواريه في احتساب وتطويه في تواضع؛ وعاشت رفيقة درب والدي الحبيب مثالاً للزوجة الصابرة المؤمنة بقضاء الله وقدره التي ناصرته في الشدائد، وصبرت على خطوب تتزلزل لهولها النفوس، دون أن تفُتّ هذه الخطوب في عضدها أو تهز ثقتها بالله (ﷻ). لقد عاشت حبيبتي الغالية على أمل تبدد الظلام وبزوغ الفجر، فلمّا تحقق أملها ... خرجت من المحنة وقلبها راضٍ عن الله (جل جلاله).

ومضت بعد أن وفقها الله للسّير في قافلة الدعوة، مسطّرةً أروع الملاحم في الصبر والثبات والتضحية، فاللهم ارحمها رحمة واسعة... وألحقنا بها غير مبدّلين ولا مفرّطين... وصدق الله العظيم:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ (الطور: ٢١).

الفصل الثاني

"ملامح فريدة"

- وفاؤها.وثباتها.
- توكلها على الله.
- كرامتها وعزة نفسها.
- زهدها في الدنيا.
- عشقها للصلاة.
- تضحياتها الجسام.

وفاؤها

أنعم بها من زوجة هي سكني نعم المعين على الخيرات تنشدها
أنعم بها لحقوق الله لا تهني يشهد لها في نواحي البيت مسجدها[1]

لقد كُتِبت سيرة الوالدة دولت سليم أبو رامون بمداد الصبر والتضحية والإيثار... سيرة تَروي على سمع الزمان قصة امرأة كانت تحيا على قمة من قمم الفضيلة والزهد والتقوى حياةً حافلة بالجهاد في سبيل نصرة دين الله وإعلاء راية التوحيد خفاقة على ربوع الدنيا... سيرة امرأة سطرت مع رفيق دربها بوفائها ملحمة الحياة الكريمة الفاضلة... حياة تسمو فيها الروح وتسود القيم وتتجلى المكارم... حياة قاست فيها محنًا أليمة، ولكنها كانت متسلحة بالعزة والكرامة، فكانت تحزن وتكدح... وتجوع وتمرض... وتتألم وتسافر وحدها، بعيدًا عن أسماع الناس وأبصارهم، وحسبها أن تكون من الأتقياء الأخفياء الذين إذا حضروا لم يُعرفوا، وإذا غابوا لم يُفتقدوا.

لقد مضى على وفاة والدتي الحبيبة أكثر من ثلاثين عامًا، وهي فترة طويلة نسبيًا، إلا أن الحياة الكريمة المشرقة تَظَلّ كالذهب الأصيل الذي لا يفقد أصالته بمرور السنين، بل يزداد قيمة وجمالاً وأصالةً؛ لذلك فهذه الحياة الفاضلة التي عاشتها والدتي وأبوابها موصدة وستائرها مسدلة... عزَمْتُ مستعينًا بالله (ﷻ) أن أفتح رتاجها وأرفع ستائرها وأزيل حجبها لاستخرج كنوزها النفيسة، وأُدْنِي ثمارها اليانعة من نساء هذا الجيل؛ ليتعلمن دروسًا وعظاتٍ وعبرًا، فلقد عاشت أمي مع أخواتها من نساء الإخوان المسلمين الفضليات يحملن المشاعل، ويبعثن الأمل، ويؤصلن

---

(١) شعر: فهد العصيمي.

العزة، ويبددن الظلام، ويضئن للأجيال طريق الهداية، ومضين في الحياة كشهبٍ مضيئة... لم يَعْرِفْنَ ضعفًا ولا تفريطًا... ولا ذلةً ولا استسلامًا... بل استعلين على مغريات الحياة وجواذب الدنيا إيثارًا لما عند الله (جل جلاله) من رفيع الأجر وعظيم الجزاء؛ كانت أرواحهن تفيض أينما حللن بالخير كما تفيض السماء بالغيث والبركات، وعشن يبذلن الجهد والعرق في سبيل نصرة دين الله، ونصرة أزواج أرادوا لشريعة الله أن تُحَكَّمْ في الحياة تحت لواء دولة إسلامية، فَغَيَّبَهُم الظالمون وراء القضبان فترات طويلة.

لقد قضى والدي الصابر في المعتقلات فترة امتدت من العهد الأسود لإبراهيم عبد الهادي - رئيس وزراء مصر في عهد الملك فاروق في أواخر الأربعينيات من القرن الماضي، ومرورًا بعهد طاغية العصر جمال عبد الناصر، وهي فترة طويلة عاشتها والدتي الحبيبة تواجه وحدها حياة حافلة بالكفاح، مَلِيئَة بالصور المشرقة؛ حياة صمدت فيها في وجه المحن، وثبتت في مواجهة الشدائد، وأدت فيها دورها الناصع كزوجة وفيّة وقفت خلف زوجها الداعية الصابر أحمد البس تُقَوِّي عزيمته وتستنهض همته، وتؤازره في محنته القاسية المريرة حتى آخر نفس تردد في صدرها، وسطرت بأحرف من نور نموذجًا خالدًا لوفاء زوجة كانت تجوب الدنيا في صبر ورضًا، وهمّة ودأب، لتشعره أنها معه... يذهب إلى الواحات الخارجة فتذهب لتطمئن عليه رغم مشقة الطريق، ويذهب إلى المحاريق فتسعى لزيارته، ويذهب إلى قنا في صعيد مصر فتسافر لتراه، ويُنْقل إلى طرة فتفرح بقربه... تفعل كل ذلك غير آبِهَةٍ بما قد يصيبها من مشقة أو عنت، محتسبة خطواتها جهادًا في سبيل الله؛ تحملنا إليه لتدخل السرور على نفسه، وتسعد بابتسامة مشرقة كانت تدخل السعادة على قلبها، وتهوّن عليها مشاق الحياة.

لقد تعرضت والدتي لأنواع شتى من الابتلاءات... كان من أشدها إيلامًا محاولة بعض أقاربها في البداية إقناعها بالتخلّي عن والدي بعد أن أُدْخِلَ السجن، فقد طلبوا منها أن تتركه وشأنه، وعرّضوها لضغوط رهيبة لإجبارها على ذلك، ولكنها تمسكت بالإخلاص... وتشبثت بالوفاء... ورفضت بإصرار أن تُلْقِيَ بالحُبِّ والمودة أدراج الرياح، وأبت إلا الوفاء لرفيق الدرب الذي لم تطب نفسها أن تتخلى عنه لتكون معافاة وسط أهلها؛ ووطّنت نفسها على انتظاره مهما بَعُدَ السفر وطال الغياب، وآثرت أن تعيش حياة مصبوغة بالمرارة والألم وضيق ذات اليد على أن تتخلى عن حبيبها وأبي أطفالها.

لقد ضربت مثلاً رائعًا في الوفاء، وعاشت في غياب أبي (رحمه الله) نعم الزوجة الصالحة التي حفظته في ماله وعرضه وأولاده؛ وأعانته على تحمل قسوة الحياة ووعورة الطريق، وظلت مستعينة بالله الذي أغناها بفضله عمن سواه، لذا فهذه المرأة الفاضلة سوف يذكرها على مر السنين كل من عرف قدرها وقدر كفاحها وصبرها، ورأى نبلها ووفاءها.

عاشت وفي قلبها يقين بأن الفرج مع الكرب، وأن النصر مع الصبر، وأن مع العسر يسرًا، وظلت مع هذا اليقين في نصر الله، حتى تجاوزت المحنة ونجى الله (عزوجل) والدي الحبيب وأعاده إليها بعد ردح من الزمان، فسجدت لله (جل جلاله) شكرًا على نجاته من براثن الظالمين، وحمدته سبحانه حمد الشاكرين على عودته التي عاشت حياتها صابرة تتطلع إليها.

إن سيرة هذه المرأة الوفية ليست قصة تنظر إلى جانب المتعة أو تبحث عن الإثارة، ولكنها تهتم بالدرجة الأولى بجانب الاتعاظ والعبرة؛ إنها سيرة تنبه الغافل وتذكر الناسي... وتشحذ الهمة الفاترة... وتلين القلب القاسي... وتبكي العين المتحجرة... وترطب اللسان بذكر الله (جل جلاله).

إن سيرتها قنديل ينير السبيل أمام فتيات هذا الجيل الساعيات وراء مدنية زائفة، المتتبعات أثر المرأة الغربية شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلت جحر ضب لدخلنه وراءها... إنها سيرة امرأة حباها الله بقلب استنار بأضواء الإيمان وأشرق بشمس اليقين... فعاشت تبعث العزائم وتحمل المشعل لقيادة الركب، في غياب زوج خاض محنة السجن؛ لأنه أراد لراية الإسلام أن ترتفع خفاقة في العالمين.

لقد عاشت الوالدة **دولت سليم أبو رامون** سراجًا منيرًا نشر نوره البَهِيّ في الأرجاء... ووردة جميلة انتشر شذا عطرها الذكي في الأجواء... وملأ عبقها النديّ القلوب... وتضوّع أريجها الذكي في النفوس، ومضت بعد أن نحتت مكانتها في القلوب المُحبَّة مجللة بالمجد والفخار قدوة ومثلاً... وهداية ونورًا... فلكل المؤمنات في مشارق الأرض ومغاربها أُهْدِي سيرة هذه الأم الغالية التي سلكت بخطًى واثقة مطمئنة طرق الأخيار وسبل المتقين ودروب الأوفياء.

إن سيرتها قنديل ينير السبيل أمام فتيات هذا الجيل الساعيات وراء مدنية زائفة، المتتبعات أثر المرأة الغربية شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلت جحر ضب لدخلته وراءها... إنها سيرة امرأة حباها الله بقلب استنار بأضواء الإيمان وأشرق بشمس اليقين... فعاشت تبعث العزائم وتحمل المشعل لقيادة الركب، في غياب زوج خاض محنة السجن؛ لأنه أراد لراية الإسلام أن ترتفع خفاقة في العالمين.

لقد عاشت الوالدة **دولت سليم أبو رامون** سراجًا منيرًا نشر نوره البَهِيّ في الأرجاء... ووردة جميلة انتشر شذا عطرها الذكي في الأجواء... وملأ عبقها النديّ القلوب... وتضوّع أريجها الذكي في النفوس، ومضت بعد أن نحتت مكانتها في القلوب المُحبَّة مجللة بالمجد والفخار قدوة ومثلاً... وهداية ونورًا... فلكل المؤمنات في مشارق الأرض ومغاربها أُهْدِي سيرة هذه الأم الغالية التي سلكت بخطًى واثقة مطمئنة طرق الأخيار وسبل المتقين ودروب الأوفياء.

صبرها وثباتها

الصبرُ جسرٌ في محيط جراحنا ونهايـة الجـسر الطويـل جنـانْ
والـصبر بـاب الأجـر يكفـي أهلـهُ إن الـذي يجـزي هـو الـرحمنْ[1]

إن طرق الدعوات ودروب الابتلاءات ليست مفروشة بالرياحين والورود، وليست قريبة المنتهى ولا سهلة الورود، بل هي محفوفة بالمكاره... مليئة بالأشواك؛ لذلك فقد صبرت والدتي وطال صبرها على الكرب الذي اشتد والبلاء الذي عم، وتعبدت إلى الله بصبرها على المحن بعزيمة قوية لا تعرف الضعف، ونفس مشرقة لا تعرف اليأس، محتسبة أجرها عند مليك مقتدر؛ وعاشت مثلاً رائعًا في الثبات وأسوة طيبة في الرضا، ونموذجًا طيبًا في الصبر... ما ضاق صدرها مرة مهما تعاظم البلاء، ولا تململت من الضر الذي أصابها مهما اشتدت الضراء، ولا سخطت على أقدار الله مهما قاست من ظروف الحياة؛ ولا شكت لبشر حاجة من حاجات الدنيا الفانية مهما ضاقت بها السُّبُل، ولكنها واجهت الشدائد بجَلَد منقطع النظير، وكانت المرأة الثابتة الصامدة كصخرة قوية تكسرت عند قدميها موجات المحن.

وكانت تكثر من الصيام، فقد كان الصيام يريح جوانح نفسها، وينير فجاج دربها، ويعينها على الصبر، ويربّي فيها قوة الإرادة، ويوقظ روح المجاهدة، ويعينها على تحمل شظف العيش؛ لقد كان الصيام واحة تفيء إليها لبعث الهمة، ومحطة تشحن نفسها فيها بالصبر على مواجهة المحن؛ ولعله هو الذي رسم على محياها السكينة والصفاء، عزز في نفسها الحلم والوقار، وباعد بينها وبين التنافس المحموم على متاع الدنيا...

لذا؛ فقد كنت تراها دائمًا صابرة راضية بعطاء الله... يملأ نفسها شعور بالقناعة، ويعمر قلبها رضًا عن الله (ﷻ)، وترى في الحياة مننًا ونعمًا تتجلى فيها الرحمات، ويطيب بها العيش، مثل نعمة الأبناء الذين هم زينة الحياة الدنيا، ونعمة

(١) شعر د. عبد الرحمن العشماوي.

الرزق الحلال، ونعمة الاستغناء عن الخلق، ونعمة الصحة والعافية، ونعمة الرضا وستر المولى لنا، ونعمة الأخوة في الله، ونعمة القرب من الله والثقة بفضله والاطمئنان إلى رعايته سبحانه، ونعمة الصبر على البلاء، وغيرها من نعم الله التي لا تعد ولا تحصى.

ولأنّ قوام حياتها كان الرضا والقناعة والإيثار والتوكل على الله، فقد أعانها الله (جل جلاله) وثبّتها، وكان لها في ميادين الصبر والثبات مواقف يذكرها من عرفها بلسان نديّ بالإعجاب طيب بالثناء... فقد واكبت معاناة الوالد (رحمه الله) معاناة مماثلة عاشتها أسرتنا بعد أن مضى والدي وتركنا دون أن يكون قادرًا على تدبير شيء لنا أو توصية من يرعانا، تركنا أطفالاً لا حول لنا ولا قوة، في سنّ لا تسمح لأي منا أن يرعى نفسه، فضلاً على أن يرعى أمه، تركنا بلا معين إلا الله ولا حافظ إلا إياه.... وكفى به حافظًا ومعينًا.

أخذ والدي يتنقل من مكان إلى مكان ومن بلد إلى بلد؛ لئلا يقع في أيدي الظالمين، حتى قرأ يومًا في الجرائد خبر محاكمته غيابيًا والحُكم عليه حكمًا جائرًا، وهو الأشغال الشاقة المؤبدة، وذكر في أسباب الحكم أنه رئيس الجهاز السري بمديرية الغربية وكفر الشيخ؛ ولما شعر والدي أنه مهدد بإلقاء القبض عليه وعلى من يؤويه، عزم على تسليم نفسه، وقرر الاتصال بوالدتي الحبيبة ليخبرها بقراره هذا لتهيئ نفسها لهذا الأمر؛ وفي هذا يقول الوالد في كتابه[1]:

"ولما رأيت أنني أتنقل بلا عمل للدعوة، وأني مهدد بإلقاء القبض عليّ وعلى من أكون معهم، فكّرت في أن أتصل بأسرتي بسرعة وأخبرهم بعزمي على تسليم نفسي للحكومة، وأتركهم يرتبون أحوالهم ويلتفتون إلى معاشهم وتربية الأولاد.

---

(١) الإخوان المسلمون في ريف مصر.

وسرتُ أقطع المسافة بيني وبينهم راكبًا أولاً، ثم ماشيًا على قدمي، خصوصًا حينما أصبحت على بعد ثلاثين كيلومترًا من بسيون؛ خوفًا من أن يراني أحد ممن يعرفونني، ودخلت بلدًا قريبًا من بسيون وأرسلت إلى أهلي، فكان رأيهم أن أحاول السفر إلى خارج مصر خوفًا عليَّ من أن أقع في يد الحكومة".

بعد مقابلة والدتي الحبيبة اتجه والدي إلى عدم تسليم نفسه، وظل متخفيًا لفترة، إلى أن شاءت إرادة الله (جل جلاله) أن يتم اعتقاله في القاهرة في يوم الجمعة ١٩٥٥/٨/٥م، ليقضي حكمًا بالأشغال الشاقة المؤبّدة، ويُلْقَى في أتون العذاب في أقبية السجن الحربي، ويقضي زهرة شبابه متنقلاً بينه وبين السجون والمعتقلات الأخرى.

كان الخطب عظيمًا، لكن والدتي الغالية تقبلت خبر إلقاء القبض على والدي الحبيب بالصبر والاحتساب والتوكل على الله، أما الصبر الذي كان معينه لا ينضب ونبعه لا ينفذ فقد قوّى ساعدها وشدّ عزيمتها، وكان حبل نجاتها وسبيل خلاصها مما ألمَّ بها، وأما التوكل فكان هو المعين الذي قهر أمامها كل صعب وذلّل كل مشقة.

نعم... لقد أيقنت والدتي الحبيبة أنها أمام امتحان عظيم وابتلاء شديد عليها • مواجهته بيقين المؤمنة الواثقة في فرج الله، فتسلّحت بالإيمان والصبر في مواجهة سلسلة متواصلة الحلقات من المحن، خاصة بعد أن ضرب رجال المباحث الحصار علينا، وفرضوا على منزلنا نوعًا من المراقبة المستمرة، ومنعوا أيَ أحد من الوصول إلينا رغبة في تضييق الخناق علينا، وإمعانًا في الانتقام، ومبالغةً في الظّلم، ورغبة في إيذاء زوجة لا ذنب لها سوى أنها ربطت مصيرها بمصير هذا الداعية الكريم، وجرّ أطفال أبرياء إلى الانحراف والتشريد، أطفال لا ذنب لهم سوى أن أباهم كان يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وهكذا تُرِكت والدتي وحدها لتواجه شظف العيش وقسوة الحياة ومرارة الأيام مع ستة أطفال يحتاجون إلى متطلبات الحياة المختلفة وحدها ... نعم وحدها ... فقد كان هذا هو الهدف من الحصار: قطع أواصر الأخوة... وتمزيق روابط المحبة... وإشعال نار العداوة والبغضاء... وبذر الأحقاد ... وغرس الخصومات.

وهكذا عمّ الظُّلم وانتشر البغي، وتقطعت الأواصر وانْتُهِكَتْ الحقوق، ودبت الفرقة... وحل الشح محل الإكرام... والضغينة محل التحابّ... والخذلان محل النصرة... والبغض محل الوداد ... والبغي محل التراحم.

وبدلاً من إشاعة روح التعاطف ونشر التراحم تُرِكت والدتي الحبيبة لتواجه الحياة وحدها دون أن يرحم أحدٌ ضعفها، حتى الأهل خذلوها ... هؤلاء الذين كان الأَوْلى بهم أن يهبوا لمساعدة الابنة التي رُوِّعت بانتزاع زوجها منها وحمايتها وحماية أطفالها الذين حرموا من والدهم ورعايتهم... خذلوها وتنكروا لها، وخاف كل منهم على نفسه وأبنائه من الطاغية الذي كان يرسل عيونه في كل مكان، فقد كان الخوف من بطشه يشلّ الأيدي... ويدمّر الروابط... ويمزّق الصلات... ويقطع الأواصر... ويجعل الأهل يتجافون عن النجدة وقت الحاجة... ويعرضون عن الغوث وقت الشدة... ويتحاملون عند العسر... رغم أن حال الزوجة الصابرة كان يقول ما يغني عن كل بيان باللسان.

كم مسّ خذلان أولي القربى نفس والدتي الحبيبة! وكم كابدت الآلام والأحزان بسبب تنكرهم لها! ومع ذلك لم تنحنِ لعاصفة هذا الحصار، ولم تَستَدِرَّ عطفًا أو تناشد رحمًا، أو تطأطئ رأسًا أو تحنِ هامة، بل استعلت بإيمانها، وعلت بهمتها وشمخت بكرامتها وصانت عزتها، وأخذت تصارع أمواج اليأس والوهن وهي تحتضننا، وتجالد تيارات الحياة العنيفة حتى لا تجرفنا إلى قاع اليأس السحيق؛ وكلما حاقت بها الشدائد وتعذر عليها المسير وانقطعت بها السبل، وأُغلقت في

وجهها الأبواب، رَنَتْ ببصرها إلى السماء، ومدت يديها المتوضئتين لتدعو الوهاب الرزاق الذي تكفل بأرزاق العباد، والذي لا يغلق بابه في وجه من يقرعه، وصدق الله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود: ٦).

لقد آنست إلى وعده (عَزَّوَجَلَّ)، وأيقنت بصدقه، واطمأنت إلى ضمانه، وعلمت أن لله في كل نفس مئةَ ألف فرج... فأكرمها مولاها (جل جلاله) ببركة التوكل عليه وصدق الالتجاء إليه، وفتح لها أبواب رزق كان ينهمر، وخيرات كانت تفيض وأفضال كانت تغمرنا من حيث لا ندري ولا نحتسب.

أنا إن عشت فلست أعدم قوتًا وإن مت فلست أعدم قبرا

همتي همة الملوك ونفسي نفس حرٍّ ترى المذلةَ كفرا

لقد سلمت والدتي لربها جميع أمرها، فلم تعترض على قدر الله، ولم تدع للشيطان سبيلاً عليها، فثبتها مولاها، وسكب نوره في صدرها، وهُدَاه في نفسها، وجَلاَلَهُ في فؤادها، ورزقها الصبر... وحباها الرضا... وأنعم عليها باليقين، وفتح (سُبْحَانَهُ) أبواب الخيرات في قلبها، وأراها من حسن العاقبة ما لم يخطر لأحد ببال.

ورغم أن والدتي الحبيبة كانت لا تفرغ من محنة إلا وتدخل في محنة أشد إيلامًا، فإنها كانت تستشعر أن ألطاف الله ترافق ما يتنزل عليها من البلاء، وأن نعم الله المتوالية تخفف المحن والضراء، فزادتها هذه المحن صلابة وثباتًا وتوكلاً على الله، وعاشت مطمئنة النفس هادئة البال، معتصمة بحبل الله المتين، دون أن تسمح لليأس أن يشق طريقه إلى قلبها، ولا للقنوط أن يسيطر على نفسها، وعاشت تبشرنا، وتبعث في قلوبنا الأمل، وتذكرنا أن الشدائد لابد زائلة، وأن الليل الطويل لابد أن ينفلق عن فجر وينجلي عن إصباح مشرق بَاسِمٍ بإذن الله؛ فأكرمها مولاها، وأسدل عليها ستره، وعصمها من السؤال، وعاشت في كنفه مطمئنة، وفي ظله مستورة، وفي

رعايته مجبورة؛ واستطاعت بفضل صبرها أن تقشع سحب اليأس والرهبة، وأن تناضل لمواجهة ضيق العيش وأعباء البُعْد وآلام الخوف والحرمان بعطاء لا يفنى وطاقة لا تنفد، وعزيمة لا تفتر، بعد أن توجهت وهي في هذا الخضم الرهيب والظرف العسير بقلبها وجوارحها إلى رب العباد، تسأله النجاة وتستعين به على مواجهة المحن المتعاقبة تعاقب الأمواج الهادرة.

لقد كانت والدتي الحبيبة جبل عزيمة شامخًا... وصخرة عاتية تتكسر على حوافها موجات المحن... وشهابًا ساطعًا في سماءٍ ملبدة بالغيوم... صبرت على مزالق الدروب ووعثاء الطريق... ولم تسأم من طول هذا الطريق، بل أعدت نفسها للتزود له، وكان زادها: صبرًا جميلاً يوفي بالعهود ويقف كالطود في مواجهة الحوادث؛ تأسيًا بمن سبقوها وسبقنها على درب الدعوة.

توكلها على الله

لقد كان من أفضل صفات والدتي الحبيبة وأجَلّ سماتها، توكلها على الله، الذي كان الركن الركين الذي تستند إليه، والحصن الحصين الذي تلوذ به في مواجهة تقلبات الأيام، والنور الذي يبدد لها الظلمات، والشعلة التي تستضيء بنورها في دروب الحياة؛ وكان من ثمار هذا التوكل أنها ما من مرة أخفقت أو ضلت طريقها، بل واجهت المحن المتعاقبة برباطة جأش وإيمان راسخ، وكانت مثالاً للأم المؤمنة والزوجة الصابرة التي تحمَّلت الأذى، ومضت في طريقها مجتازة ما تلقاه من صعاب، دون أن يفتّ في عزمها أو يفتر من حميتها ما تقدمه من عظيم التضحيات.

لقد عاشت والدتي الحبيبة (رحمها الله) وروحها ندية بروح الله (جل جلاله) وقلبها موصول به سبحانه، فاستعلت على همزات الشياطين ومغريات الحياة بهذا الاتصال الرباني؛ وظلت في أنس من صلتها بربها وفي طمأنينة من ثقتها بمولاها، وفرغت قلبها من كل ما سوى الواحد الأحد، وهي موقنة بأن الله سيشملها بنفحاته الندية الرخيّة في كثير من المواقف؛ فقد كنا نستيقظ أحيانًا لنجد باب الشقة وقد كسره أحدهم علينا، أو نصحو مفزوعين في بعض الليالي على من يحاول خلع باب الشقة في ظلام الليل الحالك، كنا نصاب بالهلع والرعب... تكاد قلوبنا تتخلع مع الباب... فكانت الوالدة تحتضننا بحنان... وتغمرنا بحبها وعطفها، مُحَاوِلَةً بث شعور الطمأنينة والأمان في قلوبنا، فلم يكن هناك في فترة الطفولة من يسبغ علينا الحماية إلا الوالدة الحبيبة.

كذلك تجسد توكلها على الله واضحًا يوم قُطِعَ راتب والدي عنا، ولم تكن تدري من أين تدفع إيجار الشقة التي كان صاحب البيت يهددنا كل شهر بالطرد منها إذا تأخر الإيجار؛ مما جعل والدتي الحبيبة في موقف لا تحسد عليه، موقف لم

تصادف مثله في حياتها؛ فأقبلت على الله تدعوه أن يجعل لها من كل هَمٍّ فرجًا ومن كل ضيق مخرجًا، وكيف لا تدعوه وهو القائل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر:٦٠). فمن ذا الذي دعاه سبحانه فلم يستجب له؟! ومن ذا الذي لجأ إلى الله فخذله؟!

وقد هداها مولاها إلى بيع جزء من أرضها، فسعت إلى ذلك محاولة إقناع إخوتها، فلما اقتنعوا بعد جهد منها... تمت عملية البيع، وفرج الله بهذا البيع كربتنا، وسترنا، ورزقنا من حيث لا ندري ولا نحتسب، وزادنا قوةً واستغناءً عن الناس:

ولـرب نازلـة يـضيق بهـا الفتـى ... ذرعًا وعنـد اللـهِ منهـا المخـرجُ

ضاقت فلمـا استحكمت حلقاتُهـا ... فُرِجَـت وكنـتُ أظنهـا لا تُفـرجُ

وكانت الدنيا أحيانًا تضيق بوالدتي، حتى إننا كنا في بعض الليالي نأوي إلى الفراش وبطوننا خاوية، لخواء البيت من الزاد، فكانت والدتي الحبيبة تفوّض أمرها لله وتعدّ لنا طعامًا من أشياء بسيطة، ثم توقظنا لنأكل فنأكل ونشكر لله نعمته وفضله؛ وقد كانت المواسم تأتي علينا أحيانًا حيث يأكل الناس ما لذّ وطاب من الطعام، أما نحن فكنا نأكل ما تيسر لنا مما تعده أمي الحبيبة بما تسمح به ميزانية البيت الضعيفة، ومع ذلك فقد كنّا نأكل والرضا يغمرنا بما منّ به الله (تبارك وتعالى) علينا، والقناعة تملأ نفوسنا، ولم يكن ذلك إلا ثمرة القناعة والرضا بما قسم الله تعالى لنا، والتي كانت والدتي الحبيبة تسعى لغرسها دائمًا في نفوسنا، حتى أصبحت بفضل الله سبحانه طبعًا متأصلاً فينا.

وكان السفر إلى سجن الواحات الخارجة لزيارة الوالد الكريم من أصعب الأعمال التي كان عليها القيام بها، فهذه الرحلة كانت تنطوي على مخاطر كثيرة ومتاعب جمة، ومع مخاطر هذه الرحلة الطويلة ومشاقها وصعابها كانت نفوسنا تستشعر القلق عليها، حتى إننا كنا نعد الأيام بل الساعات حتى تعود إلينا، وكان

ضيق ذات اليد يمنعنا أن نكون جميعًا معها نؤنس وحشتها وسط هذه الرحلة الطويلة، فكانت تسافر إما مع شقيقي الأكبر محمد الأمين، أو كانت تتوكل على الله ولا تذهب إلا مع شقيقي الأصغر محمد خالد (ﷺ) لعدم قدرتها على دفع تذكرة كاملة لأخي الأكبر.

وكان من عادة الوالدة، ونحن أطفال صغار، أن تسافر وحدها لتنهي إجراءات زيارة الوالد، فتقصد مصلحة السجون وغيرها من المصالح لإنهاء مثل هذه الإجراءات، رغم عدم معرفتها المسبقة بهذه الأماكن، ومع ذلك فقد كانت توفّق وتقضي رحلتها على خير وجه بفضل علوّ همتها وصلابة عزيمتها وصدق توجهها وتوكلها على الله واطمئنانها إلى جنابه (جل جلاله).

ورغم أن والدتي الحبيبة (رحمها الله) كانت تحاول تدبير أمور الأسرة في ظل إمكانات محدودة وأمل في الله غير محدود ... فإن الأموال كانت أحيانًا تنتهي من يدها ولا يبقى منها شيء لضروريات الحياة، من غذاء أو دواء أو كساء أو غير ذلك، وكان يساهم في هذا الوضع الحصار الذي كان الطغاة يفرضونه علينا، إلا أن شيئًا من هذا لم يجعل والدتي الصابرة تنحني أو تركع، بل على العكس؛ كانت هذه الشدائد لا تزيدها إلا عزة وشموخًا؛ وظلت راضية صابرة مؤملة في فرج الله، تعلم أن الرزق مقسوم لا يملك أحد أن ينقص منه مثقال ذرة، وأن ما أصابها من رزق لم يكن ليخطئها وما أخطأها لم يكن ليصيبها، ونتيجة لهذا اليقين في الله كان الرزق يتنزل علينا في أحلك الظروف من حيث لا ندري ولا نحتسب، فيأتي المال مثلاً من ثمن محصول قطن أو يأتينا بعض ما يحتاج إليه البيت من ناتج الأرض، فتنفرج الأمور بعد ضيق بفضل بركة التوكل على الله (عز وجل):

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: ٣).

وصدق رسول الله (ﷺ): "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا"[١].

ومن دلائل توكلها على الله ما حدث يوم مرضت حفيدتها إيمان في أحد أيام الشتاء الباردة مرضًا شديدًا، فقد أصابتها الحمّى، ولم أكن أنا أو أي من أشقائي موجودًا ليذهب بها إلى الطبيب، فحملتها والدتي الحنون ومضت بها إلى الطبيب في ليلة ممطرة حالكة السواد قارسة البرد يلفها صمت رهيب، في شوارع بسيون المظلمة الخالية من المارة، دون أن يداخلها خوف أو هلع الإنارة.... فنفسها لم تطاوعها أن تترك حفيدتها الغالية تصارع المرض وتعاني ارتفاع الحرارة ارتفاعًا ينذر بالخطر، فذهبت بها إلى الطبيب بنفس تعتصم بالله وتتوكل عليه، وقلبٍ قد امتلأ يقينًا وتسليمًا لله رب العالمين.

وعندما وصلت إلى المرحلة الإعدادية وكنت قد بلغت الثالثة عشرة وبضعة أشهر، كان عليَّ أن أسافر من بلدتنا بسيون إلى طنطا لخمسة أيام لاجتياز الاختبارات النهائية للسنة الثالثة الإعدادية، ورغم وجود بعض أقاربنا في طنطا فإن اللجوء إلى أي منهم لم يكن خيارًا لدى والدتي، بل لم يَدُرْ ذلك بخلدها مطلقًا، ورأت أن أذهب مع بعض الزملاء من المدرسة، وأعطتني بعض ما توافر معها من مال، على أن أدبر به أموري خلال هذه الفترة؛ فأَخَذْت وزملائي نبحث عن مكان للإقامة يتناسب وحالنا، ولما كانت هذه أول مرة في حياتي أبتعد فيها عن والدتي الحبيبة وأكون مسؤولاً عن نفسي في تدبير شؤوني فقد ظلت الأسئلة تتلاحق في عقلي: "من يا ترى سَيُعِدُّ لي الطعام؟ من سيسهر معي يؤنسني وأنا أذاكر؟ من سيوقظني للاختبار؟ من سيساعدني في تدبر أمور حياتي؟".

---

(١) رواه الترمذي.

ذهبت مع زملائي مستعينًا بالله، وكانت والدتي الحبيبة (رحمها الله) تشجعني وتثبّتني وتَشُدّ من أزري وهي تودعني، وما زال صدى صوتها يرنّ في أذني إلى اللحظة وهي تدس النقود في يدي وتوصيني ودموعها في عينيها قائلة لي: أنا لا أملك غير ذلك، فتوكل على الله يا بني، والله معك.

وكانت والدتي الحبيبة ترسلني لتحصيل بعض أموال لنا من أرض لها باعتها لتنفق علينا، حيث كان الرجل الذي اشترى الأرض منّا غالبًا ما يدفع لنا جزءًا من ثمن الأرض ويدفع الباقي على أقساط، فكنت أستقل قطارًا من مدينة بسيون حيث نعيش إلى "جناج" - بلدة والدتي، ثم أستقل قاربًا لأعبر فرع النيل إلى حيث الجانب الآخر من هذه البلدة حيث تعيش جدتي وأخوالي، ثم أذهب إلى الرجل لمطالبته بحقوقنا.

لم تكن والدتي تتردد في تكليفي بهذه المهمة رغم صغر سني، بل كانت تتوكل على الله وترسلني وأنا صبي لم أتجاوز الثانية عشرة لتحصيل هذه الأموال؛ فقد كنت رَجُلَها الذي تثق به وتعتمد عليه بعد الله... بعد أن تخلّى عنّا الجميع؛ إما خوفًا وإمّا انشغالاً بالحياة؛ ولم يكن أحد حينها يتعامل معي بعمري وإنما بفهمي ورؤيتي للأمور؛ وكانت والدتي الحبيبة قبل أن ترسلني تشحنني بكلمات تبعث في نفسي الثبات، وتملؤني عزيمةً على إنجاز ما ذهبت من أجله، وتودعنيَ قائلة: "توكل على الله يا بني، والله معك".

فكنت فعلاً أذهب متوكلاً على الله لتنفيذ ما أمرتني به غير عابئ بما قد يصيبني، فلم يكن يشغل بالي حينها إلا أن أكون عند حسن ظنها، وأن أعود إليها وقد أديت ما طلبته مني، لذلك لم تكن تَلِينُ لي قناة أو يهون لي عزم إذا وجدت مماطلة من الرجل أو رغبة في تأخير السداد، فكنت أقول له: "لن أعود أدراجي حتى أحصل على حقي، ولو اقتضى ذلك البقاء أيامًا"، وكنت أعني ما أقول.

ولم أكنْ أستعين بأحد أخوالي أو أي من أقاربي في البلدة ليذهب معي إلى الرجل، بل كنت أذهب إليه وحدي مباشرة مستعينًا بربي ومتوكلاً عليه، ثم معتمدًا على ما أودعته والدتي في نفسي من شجاعة ومَقْدرة على التعامل بأدب واحترام ورجولة يقدرها الجميع ويعملون حسابها، وكانت والدتي تقابلني بفرح وسرور عندما أعود إليها بعد أن أكون قد وفيت وأنجزت... وتشعرني أني موضع تقديرها واحترامها وثقتها المطلقة.

والحقيقة أنني عندما أنظر إلى الوراء وأتذكر مثل هذه المواقف، أتعجب كيف كانت والدتي (رحمها الله) تكلفني وأنا صبيّ بأمور لا يقوم لها إلا الراشدون، وهنا أدرك بحق قيمة التوكل، فما كانت لتكلفني بمهام مثل هذه لولا توكلها على الله، واطمئنانها لحفظه ورعايته وتثبيته لي.

كذلك كنت أتعجب أكثر من تعاملي مع الرجال وأنا حديث السن بهذه الثقة المطلقة التي كانت تملأ نفسي حينها، وبهذه الرجولة المبكرة، فأدركت وتيقنت أن الرجولة لا تتقيد بسن معينة، وإنما هي عمل وموقف وخلق، وأدركت قيمة الكلمات التي كانت والدتي الحبيبة تهمس بها في أذني قبل أن تودعني، والتي كانت تبعث في نفسي همم الرجال وعزائمهم.

ثم كان هناك أمر آخر يدفعني للإنجاز... ألا وهو رغبتي في بر والدتي التي كانت تعايش في غياب الوالد فترات عصيبة وتقدم تضحيات عظيمة، فكان حقها عليّ بل علينا جميعًا أن يقوم كلٌّ بدوره في الحياة؛ والحقيقة أن المحن التي كنا نمرّ بها فرضت على كل منا أن يقوم بدور أكبر من سنه، وإن كان هناك نجاح في أيٍّ من هذه الأمور، فأنا أعزوه إلى توفيق الله (ﷻ) الذي كان يأخذ بيدنا ويثبتنا، ثم إلى التربية الرشيدة التي ربتنا الوالدة الحبيبة عليها... فقد عاشت تبث في نفوسنا مشاعر البر، وتوقظ في قلوبنا روافد الخير، جعل الله كل ما قدمته لنا في ميزان حسناتها.

لقد كان التوكل على الله يصحب والدتي الحبيبة في غدوّها ورواحها... يقهر لها كل صعب، ويذلل كل مشقة، ويملأ قلبها بالثقة واليقين في حفظ الله ورعايته، فالمتوكل على ربه يتقوى بالله وإن لم يكن معه سلاح، ويعتزّ به وإن لم يكن وراءه عشيرة، ويثبت بفضله وإن اضطربت به سفينة الحياة وأحاط بها الموج من كل مكان، وصدق الله العظيم القائل: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

لقد كانت (رحمها الله) بفضل توكلها على ربها تعرف كيف تسير وسط الأشواك وكيف تجتاز المزالق، وكيف تختار الدروب، وتواجه الصعاب، وتستعلي على المشاكل، تفعل ذلك وهي تضع رضا الله والجنة نصب عينيها، وظلت على ذلك حتى أسلمت الروح لباريها، وأصبحت مثلاً لنساء الأمة ورائدة من رائدات العصر للأمهات الصابرات؛ فاللهم أذقها برد عفوك وحلاوة مغفرتك، وأسكنها الفردوس الأعلى، مع من كانت تقتفي أثرهنّ وتسلك دربهنّ من المؤمنات الصالحات القانتات العابدات، برحمتك يا أرحم الراحمين.

كرامتها وعزة نفسها

موت الفتى في عزةٍ خيرٌ له ... من أن يبيت أسير طرف أكحلِ
لا تسقني ماء الحياة بذلةٍ ... بل فاسقني بالعزِّ كأس الحنظلِ
ماءُ الحياةِ بذلةٍ كجهنمٍ ... وجهنمٌ بالعزِّ أطيبُ منزلِ

كانت والدتي الحبيبة امرأة تحمل بين جنبيها نفسًا كريمة تأبى الهوان والذل، وترفض التدني والضيم، وتَمْقُتُ الضعف والوهن... فعاشت مرفوعة الرأس... دون أن تمدّ يدًا لقريب أو تحنيَ رأسًا لبعيد أو تقبل ذلاً من طاغية، بل عاشت حياتها كريمة لم تَهُنْ عزيزة لم تَلِنْ... مستغنية بالله... مستأنسة بذكره... متقربة منه ومتوددة إليه، وقد كان مصدر فخر واعتزاز لها كونها زوجة للوالد أحمد البس... هذا الداعية الكريم الذي جاهد لإعلاء راية لا إله إلا الله، وما زادها سجنه إلا عزًا وشموخًا، هذا العز والشموخ الذي غرسته في قلوبنا، فلم نَرَ في سجن أبينا ذلاً ولا صغارًا كما أراده الحاقدون الظالمون، بل شرفًا وتكريمًا وسموًا، وكان الفضل في ذلك لله (جل جلاله)، ثم لهذه الأم العزيزة التي بلغت عزتها هذه بالجلد والصبر والمصابرة على لأْوَاءِ الحياة وشظف العيش، والتي ما تضجّرت يومًا أو تبرّمت أو تذمّرت تذمُّرًا منافيًا لطبعها الصافي السمح الكريم، وكيف تفعل وقد ارتضت الإسلام منهج حياة، ونذرت نفسها لله فجعلتها وقفًا له، وظلت راضية محتسبة أجرها عند ربها (سبحانه وتعالى) تبعث فينا الأمل مهما اشتدت الأزمات، وتبث فينا التفاؤل مهما تعاظمت الابتلاءات، وتزرع الرجاء مهما توالت الضربات، وعاشت والدتي الحبيبة لهذه الدعوة بكل مشاعرها، وارتضت هذا الطريق بكل رضًا وتسليم لله (سبحانه وتعالى)، وهانت عليها الدنيا بما فيها من مال ومتاع وزخارف إلا عزّتها وكرامتها.

كانت والدتي الحبيبة تواجه حربًا مستعرة... فكم عانت من هؤلاء الذين كانوا يهاجمون البيوت تحت جنح الظلام بحثًا عن الإخوان دون مراعاة لحرمة هذه البيوت أو

حرمة الآمنين من ساكنيها! كانوا يحاولون إلقاء الرعب في قلوب أهل الدار الآمنين، ولكن أنَّى لهم أن يرجفوا قلبًا لاذ بحمى الله (جل جلاله) وتعلق به، فأعمَّنه وصيَّر مخاوفه بردًا وسلامًا؛ وأنَّى لهم أن يرهبوا نفسًا تسلّحت على مواجهتهم بعزائم إيمان لا تعرف الضعف، فهي نفحة ربانية ونعمة إلهية يمن الله بها على من يشاء من عباده الصالحين.

لقد داهم زُوّار الفجر بيتنا عدة مرات بحثًا عن الوالد الحبيب، وذلك دون سابق إنذار أو إذن تفتيش، فكنا نستيقظ على ضرباتهم العنيفة على باب دارنا تحت جنح الليل لنجد الشقة، وقد امتلأت عن آخرها بضباط وجنود مدججين بالسلاح، حتى يُخَيّلُ إليك أنك في ساحة حرب... كانوا يتعاملون معنا بهمجية لا يُعْرف لها مثيل، ويحطمون كل ما يقع تحت أيديهم، ويحملوننا بعنف لإنزالنا من على الأسرة؛ بغية تمزيق مراتبها للبحث عن أسلحة مزعومة، فنصرخ رعبًا وهلعًا، بينما رجال المباحث لا يبالون بفزعنا ولا يرحمون طفولتنا، بل يقابلون ذلك الفزع والهلع بالاستهزاء والسخرية واللامبالاة، ويتعاملون معنا كوحوش ضارية لا تعرف الرحمة، وكانت والدتي الصابرة تتصدى لهم بإباء؛ فقد كانت تعلم أننا على الحق وهم على الباطل...

كانوا يسألونها وهم يصوبون السلاح إلى رأسها في موقف تنخلع له قلوب الرجال وتذهل له عقول الحكماء قائلين: أين زوجك؟ فترد والدتي الحبيبة في هدوء قائلة بأنها لا تدري؛ فكان الجند يتعجبون من استهانتها بأسلحتهم واستصغارها شأن حامليها، ولكنه كان اعتزازًا بالله ليس له مثيل يملأ قلبها... فلم يكن في نفسها كبير إلا الله... لذا كانت تقف رابطة الجأش، قوية العزيمة، تغمر نفسها السكينة، ويملأ قلبها الطمأنينة؛ وكيف تخاف وقد عزّت بعزة الله ووثقت بتأييده؛ فهان عندها كل شيء؛ وأصبح لا يحركها إلا الإيمان ولا يدفعها إلا الحق تصدع به غير هيّابة ولا وَجِلَة... كانت كلمة الحق تصدر عنها قوية كالإعصار، ناصعة كالشمس... فقد كانت حقًا نموذجًا مضيئًا لنفوس استخلصها الله لدينه واصطفاها لدعوته.

عبق من الماضي المجيد لهذه الأمة تنشره هذه المرأة الشامخة بإيمانها وصلابتها: ولا أدري بمن أشيد: أبيبت رباها؟ أم بمدرسة إيمان وصبر واحتساب ما انفكت تخرج لهذه الأمة من يضيء لها الدرب كلما حل الظلام؟ فأي قوة أمدها الله (جل جلاله) بها؟ وأي قلب أودعه الله (سبحانه وتعالى) بين ضلوعها؟

لقد كانت تقف عزلاء بلا رجل يذود عنها، ولا سند يدفع عنها، ولا سلاح يحميها... كانت لا تملك إلا درع الإخلاص، وقوس التقوى، وسيف الحياء، وسلاح الإيمان الذي كان يغمر قلبها، والثبات الذي كان يملأ نفسها... ثبات جعلها لا تميل مع كل ريح ولا تضعف عند أي بلاء، ولا تلين أمام أي قوة!!

وكم لاقت والدتي الصابرة من متاعب رهيبة في كل مرة كانت تزور فيها والدي في السجن، ومن معاناة لا يعلم مداها إلا الله (سبحانه وتعالى)؛ ففي إحدى هذه الزيارات التي صحبناها فيها ونحن أطفال إلى سجن طرة، وعند "البوابة الكبيرة السوداء"، حيث يتكدس أهل السجناء، شاهدنا الوالد (رحمه الله)، ولم نستطيع تصديق أعيننا لهول المنظر؛ لقد كان عائداً من الجبل وهو مقيد بالسلاسل بعد يوم شاقّ في حمل الحجارة، لتنفيذ عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة! وكم اعترتنا الحيرة وتملّكتنا الدهشة، ونحن ننظر إليه وهو مكبل بالسلاسل! وكم ضاقت عقولنا وشردت أفهامنا عن إدراك ما نراه!

لا تصغِ يا ولدي إلى ما لَفَّقوه ورددوهْ
من أنهم قاموا إلى الوطن السليب فحرَّرُوهْ
لو كان حقًا ذاك ما جاروا عليه وكبلوهْ
ولما رموا بالحر في كهف العذاب ليقتلوهْ[1]

---

(١) د. يوسف القرضاوي.

هل يُعْقل أن يسلسل الدعاة... أشرف البشر، بالحديد، ويحملون الحجارة في الجبال وسط ظروف قاسية ومريرة، بدلاً من القيام بدورهم في قيادة الناس إلى صراط العزيز الحميد؟! أليس الدعاة هم ورثة الأنبياء؟ أليسوا هم أمل الأمة المنشود؟ أليسوا هم لسان الصدق وأيدي العزم ومصابيح الهداية؟ أليسوا هم من يرفعون راية الأمة ويجبرون كسرها وينيرون سبيلها؟ أليسوا هم من أخذ عليهم ربهم العهد والميثاق ببيان الرسالة للناس وأمرهم بالنهوض بتبعاتهم مهما ادلهمّت الخطوب، ومهما تقاعس المتقاعسون؟ هل يُعْقل أن يسلسل الدعاة بينما أهل المجون والخلاعة ومروجو المخدرات يمرحون أحرارًا ويُقلَّدون النياشين في انتصارات زائفة، بل وتلتهب الأكفّ بالتصفيق الحار له؟! إنها والله لمتناقضات عجيبة!!

وظَللت أتساءل: لماذا انْتُزِعَ والدي من بيننا لِيُسَلْسَلَ ويُكَسِّرَ الحجارة؟ ما ذنبه؟! هل سرق؟! هل قتل؟! هل تاجر في المخدرات؟! لا والله... إن كل جريرته أنه كان يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويأخذ بأيدي الناس ليَدُلَّهم إلى طريق الجنة، ولا حول ولا قوة إلا بالله!!

كم انفطرت قلوبنا حزنًا لهذا المشهد الذي يحرق الأكباد! وكم ذرفت عيوننا الدمع مدرارًا! وكم من المشاهد المؤلمة كانت تقع أمام أعيننا أثناء هذه الزيارات كطفل صغير يتعلق بالسلك الحاجز ليكلم أباه، فيسحبه أحد الزبانية دون رحمة أو شفقة! أو أمّ مسنّة تبكي لوعة؛ لأنها لم تشبع من فلذة كبدها، أو زوجة يعتصر قلبها أسًى وهي تودع حبيبها ورفيق دربها!

نعم كم من المشاهد المؤلمة مثل هذه وغيرها كانت تقع أمام أعيننا! ولكنها الدنيا... أحزانها أكثر من أفراحها، تُسْعِدُ يومًا وتُبْكِي أيامًا.

في هذا الجو الكئيب المرير، المؤلم، المليء بالمشاهد القاسية على النفس، وأمام البوابة السوداء الكئيبة، كان يقف مجموعة من الجنود على جيادهم

- كرعاة بقر - في أيديهم كرابيج أو عصيّ طويلة يفرقون بها الأمهات والزوجات والأبناء الذين تجمعوا لسماع أسماء ذويهم!! ولا أدري سببًا لتفريقهم إلا أن تكون الرغبة في قهر الأهالي المتعبين المعذبين المحرومين من أحبائهم، أو الرغبة في إشاعة الخوف في نفوسهم الحزينة.

وفي واحدة من تلك المرات الكئيبة، خرج أحد الجنود وبيده ورقة لينادي على أسماء المساجين الذين أتى عليهم الدور للزيارة، فسارع الجميع في لهفة لسماع أسماء ذويهم وقد تطلعت نفوسهم للاطمئنان عليهم، واشتاقت قلوبهم للقياهم، وهفت أفئدتهم لرؤياهم؛ ومن بينهم كانت الوالدة الحبيبة التي كانت تسعى ونحن نسعى معها، منّا من يمسك بيدها ومنّا من يتعلق بثيابها، فهي الأمل والملاذ بعد الله، وإذا بأحد أشباه رعاة البقر الذين يلبسون لباس الفرسان، ويحملون شارة العسكرية، ولكنه ما سلك سبل البطولة ولا استنّ بسنن الفروسية.... يرفع كرباجه الأسود لينزل به كالصاعقة على ظهر والدتي الصابرة، ولا حول ولا قوة إلا بالله!!

إنه موقف تخور فيه العزائم، وتضعف فيه النفوس، وتنهار القلوب، ولكن والدتي الحبيبة رغم أنه قد نالها من الألم ما لا يعلمه إلا الله (ﷻ)، فقد صبرت وشمخت بإيمانها، ومضت باحتساب فريد ورباطة جأش لا مثيل لها، مضت وفي مآقيها دموع تتلألأ، وبين جنبيها ألَمٌ يتنزى، وفي جوانحها نار تتلظى، ومضينا معها وعيوننا تذرف الدمع الثخين حزنًا عليها.

وعندما جاء دورنا في الزيارة دخلنا لفترة محدودة لنقف وراء حواجز تفصل بيننا وبين والدنا الحبيب، ولم تخبر أمي الصابرة والدي بما حدث، ولم تشْكُ إليه ما تعرضت له رغم شدة الحسرة التي كانت نفسها تستشعرها، وهول الألم الذي كان جسدها مكتويًا بناره، ومضاضة التعب الذي كانت نفسها تعانيه؛ بل قابلته بوجه مشرق بالنور مشع بالصفاء، مستضيء بابتسامة دافئة ارتسمت على محياها من بين

ثنايا ألم دفين... وأخذت ترفعنا الواحد تلو الآخر حتى يرانا الوالد ونراه، ولم ينطق لسانها إلا بكلمات مُطَمْئِنَة مُثَبِّتَة، فكفاه أنه يعاني الآلام والأحزان في سجون الظالمين ليل نهار، ويعاني من سياط جلادين خلت قلوبهم من الرحمة، ويحيا في ضيافة جبابرة غلاظ القلوب يجودون عليه بكل صنوف العذاب وأشكال المرارة، ويتحمل كل هذا البلاء صابرًا محتسبًا.

وبعد عودتنا إلى البيت كان لوالدتي شأن آخر، فقسوة ما حدث جعلتها تمرض مرضًا ألجأها إلى الفراش، وكانت تقول لنا بأسى:

"**إن هذا الذي ضربني يذكرني بالخدم الذين يخدمون عند والدي في البيت**"، كانت (رحمها الله) كلما تراءى لها السوط الهادر على ظهرها... تبكي بكاءً مرًا متواصلاً، وكل دمعة حارة تذرفها تجسد ما تستشعره من أَلَم من رجال باتوا يفتقدون لأدنى معاني الشهامة والرجولة في تعاملهم مع الحرائر؛ كنا حينها أطفالاً، وكنا نجلس حولها نواسيها ونخفف عن نفسها ما تعانيه من لوعة، وعن قلبها ما يكابده من أَلَم، حتى عادت إلى نفسها واسترجعت، ونظرت إلى الأمر بِضِيَاء عقلها ووهج بصيرتها، ورجت أن يكون هذا البلاء تمحيصًا لنفسها وتطهيرًا لذنبها وعلوًا لدرجتها في الجنة بإذن الله، وأصبحت بعد هذا الموقف أكثر صبرًا واحتسابًا وأشد ثباتًا وحلمًا، فهكذا تعودنا منها: أن تعتمد على مولاها في النوائب، وتحتسب منه العوض عند المصائب.

في خِضَمِّ هذا الموقف كنا نتَذَكَّرَ معاناة الوالد وإخوانه، وكانت والدتي الحبيبة تتساءل: "كم يا ترى من هذه الكرابيج مزقت ظهر أبيكم وإخوانه... وكم من السياط شربت من دمائهم؟! فنجلس معها ندعو الله أن يخفف عنهم ما يلاقونه من عذاب، وأن يكف عنهم بأس الظالمين.

ثنايا ألم دفين... وأخذت ترفعنا الواحد تلو الآخر حتى يرانا الوالد ونراه، ولم ينطق لسانها إلا بكلمات مُطَمْئِنَة مُثَبِّتَة، فكفاه أنه يعاني الآلام والأحزان في سجون الظالمين ليل نهار، ويعاني من سياط جلادين خلت قلوبهم من الرحمة، ويحيا في ضيافة جبابرة غلاظ القلوب يجودون عليه بكل صنوف العذاب وأشكال المرارة، ويتحمل كل هذا البلاء صابرًا محتسبًا.

وبعد عودتنا إلى البيت كان لوالدتي شأن آخر، فقسوة ما حدث جعلتها تمرض مرضًا ألجأها إلى الفراش، وكانت تقول لنا بأسى:

"**إن هذا الذي ضربني يذكرني بالخدم الذين يخدمون عند والدي في البيت**"، كانت (رحمها الله) كلما تراءى لها السوط الهادر على ظهرها... تبكي بكاءً مرًا متواصلاً، وكل دمعة حارة تذرفها تجسد ما تستشعره من أَلَم من رجال باتوا يفتقدون لأدنى معاني الشهامة والرجولة في تعاملهم مع الحرائر؛ كنا حينها أطفالاً، وكنا نجلس حولها نواسيها ونخفف عن نفسها ما تعانيه من لوعة، وعن قلبها ما يكابده من أَلَم، حتى عادت إلى نفسها واسترجعت، ونظرت إلى الأمر بِضِيَاء عقلها ووهج بصيرتها، ورجت أن يكون هذا البلاء تمحيصًا لنفسها وتطهيرًا لذنبها وعلوًا لدرجتها في الجنة بإذن الله، وأصبحت بعد هذا الموقف أكثر صبرًا واحتسابًا وأشد ثباتًا وحلمًا، فهكذا تعودنا منها: أن تعتمد على مولاها في النوائب، وتحتسب منه العوض عند المصائب.

في خِضَمِّ هذا الموقف كنا نَتَذَكَّرَ معاناة الوالد وإخوانه، وكانت والدتي الحبيبة تتساءل: "كم يا ترى من هذه الكرابيج مزقت ظهر أبيكم وإخوانه... وكم من السياط شربت من دمائهم؟! فنجلس معها ندعو الله أن يخفف عنهم ما يلاقونه من عذاب، وأن يكف عنهم بأس الظالمين.

المباحث عنه، فأيقن أن موعد المحنة قد حان، فغادر البيت في ١٩٥٤/١٠/١م بعد ربع ساعة من دخوله، تاركًا إيانا في معية الله (ﷻ) وحفظه.

لم تكن نفس والدي الحبيب لتطاوعه على تركنا، ولكنه مضى في رحلة فرار مضطرًا إليها ... وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه على لسان نبيه موسى (عليه السلام): ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ (الشعراء: ٢١).

وقد شاء الله أن يُقْبَضَ عليه في ١٩٥٥/٨/٥م بعد أن حكمت عليه المحكمة حكمًا غيابيًا بواسطة قاضٍ لا يمت إلى النزاهة بصلة من قريب أو بعيد، فقد حكم عليه حكمًا جائرًا كان مُعَدًا سلفًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وزُجَّ به في السجن وسط أتون العذاب عشرات السنين ليذيقه عبيدُ النظام عذابًا تقشعر له الأبدان، عذابًا تحمله الوالد الحبيب صابرًا؛ فما لانت له قناة وما وَهَنَ له عزم، وما ضعف وما استكان لما أصابه في سبيل الله، بل ضرب أروع الأمثلة في الثبات والاحتساب والصبر على زبانية كانوا يسهرون عليه الليالي الطوال لينهالوا عليه تمزيقًا وتقطيعًا بالسياط.

وكم أكلت السياط من لحمه! وكم ارتوت من دمه الطاهر! ولكن هذه الدماء الذكية لدعاة مصر الشرفاء كانت ثمن النصر في الدنيا، وعنوان الفوز والفلاح في العقبى بإذن الله، ورواءً لشجرة الإسلام الخالدة.

كان لاعتقال والدي وقع الزلزلة في نفس والدتي الحبيبة التي استشعرت ظلمًا اكتوى به قلبها واحترق فؤادها، وغلبت مشاعر الأسى على نفوسنا جميعًا؛ وخيّم الحزن على دارنا، ولاحت ظلال الكآبة على زواياه، وخبا نور كان يشع بين جنباته، وغاب دفء كان يغمر أركانه بعد غروب شمسه وأفول قمره وأفول أنجم السعادة والهناء التي كانت تلمع في سمائه؛ ولكن الله (عزوجل) ما لبث أن ربط على قلب الوالدة الحبيبة التي واجهت محنة السجن بالصبر الجميل والتوكل على الله، لذلك

لله درك يا أماه، كنتِ موجةً لا تعرف الانكسار، وشعاعًا لا تعوقه الحجب... وعشت وفيّة العهد عزيزة النفس، مرفوعة الرأس، عشتِ كبيرة كريمة، ومضيتِ شامخة عزيزة.

أختاه عين الفجر ترقب ما جرى ... وغدًا ستشرب نوره الأزهارُ

وسيحرق الليل الطويل ثيابَهُ ... ولسوف تهتك دونه الأنهارُ

وسيكتب القمر المنير حكايةً ... عن حزنه وستُفْضَحُ الأسرارُ

وستعزف الشمس المضيئة نورها ... ولسوف تهدم عندها الأسوارُ

أختاه كم من ظالمٍ يبني له ... ملكًا.. فيهدم ملكه القهارُ

لا ترهبي التيَّار... أنت قويةٌ ... بالله مهما اسْتَأْسَدَ التَّيَّارُ

أين الجبابرة الذين تسلطوا ... ذهبوا وظل الواحد الجبارُ

إن البناء وإن تَسامَقَ واعتلى ... ما لم يشيد بالتقى ينهارُ[1]

تبقى صروح الحق شامخةً وإن ... أرغى وأزبد عندها الإعصارُ

(١) شعر د. عبد الرحمن العشماوي.

زهدها

إن الدنيا لا تصفو لشارب، ولا تبقى لصاحب، ولا تؤمن من فتنة، ولا تخلو من محنة، فلنعرض عنها قبل أن تعرض عنا، فإن نعيمها ينتقل وأحوالها تتبدل، ولذاتها تفنى، وتبعاتها تبقى.

لذلك؛ فالزهد تربية ووقاية للمسلم عند مداولة الأيام وتغير الأحوال، وهو لا يعني تحريم الطيبات، وهجر الزينة، وحرمان النفس من متع الدنيا ولذاتها، ولكنه يعني التقليل من ملذات الحياة، والاستغناء عن فضول الأشياء، فمن لم يستطع تحقيق الزهد الكامل فليكن له منه نصيب.

وصدق الله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران: ١٤).

ومن أقوال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): "اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم".

وقال أحد الحكماء: "الدنيا كالماء المالح، فشاربها كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا، أو كإناء من عسل أسفله سم، فللذائق منه حلاوة عاجلة تنتهي بالموت، أو كحلم النائم يفرح في منامه؛ فإذا استيقظ زال فرحه أو كالبرق يضيء قليلاً ثم يذهب".

عاشت الوالدة الحبيبة حياة قوامها القناعة والصفاء؛ وكانت لوالدي واحة ظليلة يستظل بها من رمضاء عنائه، ونهرًا عذبًا سلسبيلاً صافيًا يغسل فيه أدران همومه؛ وكان قلبها مفعمًا بالإخلاص والتفاني ونفسها عاطرة بالوفاء والحب... حبًا طاهرًا سما على المصالح، وارتفع على المطامع، وعلا على حب الذات، حبًا انتشر عبقه عبر الآفاق، وفاح شذا رياحينه في الأجواء.

ولكن الأيام دول، وما من أحد تصفو كل أيامه، وما من أحد تضحك كل لياليه؛ فقد تراكمت سحب المحن في سماء الحياة، وبدأت رياحها تُزَمْجِرُ، وتتحول إلى عواصف عاتية أخذت تجتاح دروب الحياة بعد أن أمر الطاغية بإدخال خيرة رجالات مصر الشرفاء وصفوة دعاتها الأتقياء السجون؛ فجاء الظالمون وانتزعوا شريك الحياة ورفيق الدرب من بيت والدها الشيخ **سليم إبراهيم أبو رامون** ليغيبوه وراء الأسوار؛ وهنا بدأت أشواك المحن الدامية تتناثر تحت قدميها لتحول حياتها من حياة البحبوحة واليسر والنعيم إلى حياة الجد والشظف والزهد، حياة عانت فيها كل صور الحرمان، ولكنها الدنيا... سرورها أحلام، وأفراحها أوهام، إن أضحكت قليلاً أبكت كثيرًا، وإن أعطت قليلاً حرمت طويلاً!!

صبرت والدتي الحبيبة على البلاء، وشكرت على العطاء، ورضيت بالقضاء، وتجافت عن دار الغرور، وتركت دنيا الغافلين وراء ظهرها، وزهدت زخرفها ومتاعها، واحتسبت أجرها عند مولاها (ﷻ)، ومدت يديها إلى السماء تدعوه وتتضرع إليه بعد أن فجر الابتلاء ينابيع الخير المستكنّة في نفسها، ومنذ بداية المحنة، وإلى أن توفاها الله (ﷻ) أصبحت البساطة تطبع ملبسها ومطعمها ومسكنها... وحياتها كلها.

لم تتمنَّ يومًا غنًى أو تَحْفِلُ بجاه، ولم تَسْعَ إلى نيل ثراء أو تحقيق رخاء، ولم تُقْبِلْ على ترف أو تركن إلى دعة، ولم تتمحور آمالها في لقمة هنية أو فرشة ليِّنَة؛ ولم تَتُقْ نفسها إلى مظاهر الأبّهة أو أشكال البذخ من فُرُشٍ وثيرة وثريات جميلة وبُسُط فاخرة... إلى غير ذلك من مظاهر الإسراف وأشكال النعيم التي لا طائل من ورائها، والتي يسعى إليها الناس ليعمّروا بها دنياهم الفانية... فقد كانت تعلم أن مرارة الدنيا هي عينها حلاوة الآخرة؛ فكانت تسعى لتعمير آخرتها وشغل نفسها بفضائل الأعمال؛ ولذلك سخرت أوقاتها في طاعة الرحمن لتتحول من مرارة منقطعة إلى حلاوة دائمة، وعاشت حياتها تتحمل المشاقّ وتتكبد الصعاب؛ من أجل نيل رضا الله

رب العالمين، وتحصيل الثواب العظيم، وأقبلت على مولاها بقلب سليم ونفس تهفو للجنان، فرزقها الله (ﷻ) الطمأنينة والسكينة وراحة البال، وأصبحت مثالاً صادقًا للقناعة والزهد اللذين لم يخفَيا على من خالطها واطلع على أحوالها.

وبعد ردح من الزمان تغيرت الظروف، وتبدلت الأيام، ووسع الله عليها العيش، وبَسطَ لها الرزق، وأقبلت الدنيا عليها بزينتها التي تتزين بها ليغتر بها الغافلون... أقبلت عليها تخطب ودها بعد تمنع، ودخلت حماها دون طلب أو استئذان، ولكنها كانت قد أخرجتها من قلبها، وترفعت عن فتنتها، بعد أن أدركت أنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وعلمت أنها دار مَعْبَر ومَمَرّ، لا دار مقام ومستقر، وأيقنت أنها إلى زوال، وكل ما فيها إلى فناء، وكان لسان حالها يردد ما كان يردد رسول الله (ﷺ): "ما لي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها"[1].

لقد أدركت أن أجمل ما في الدنيا هو طاعة الرحمن الرحيم، وأنفع ما فيها هو السير على طريق الله المستقيم، وخاصة أن مكوثها في الدنيا محدود، فسارعت إلى الصالحات، وبادرت إلى الطاعات؛ مما أضفى على وجهها الصافي نورًا وبهاءً، وعمّر قلبها الطاهر بإيمان وضياء؛ وكان الصيام الذي كانت تكثر منه يحرّرها ولا يستعبدها، ويمنحها ولا يحرمها... يمنحها العزيمة والصمود، ويضفي عليها النقاء والطهر، ويرتقي بروحها لتسبح في مدارك العلوّ والرفعة.

ومن مظاهر زهدها أنها ما طمعت ولا نظرت أبدًا لما في أيدي الناس مهما كانت قيمته؛ وقد دفعها هذا الزهد إلى رفض التوسع في المطاعم والمشارب، وخفض العيش، ولين الحياة، وقد اشتريت لها معطفًا فاخرًا جميلاً وهي في مرضها الأخير وأرسلته إليها من السعودية حيث كنت أعمل، فكتب الوالد الحبيب يقول لي:

---

(١) الترمذي - صحيح.

"**ابني عبد الحميد**، أما بالنسبة لهديتك لوالدتك فما أعارتها انتباهًا وما حركت فيها ساكنًا، وقالت: "ليس لي من أمل إلا رؤية عبد الحميد".

وكان من مظاهر زهدها كذلك أنه ما من مرة وضع طعام أمامها هي ووالدي إلا وتشاغلت عنه؛ حتى لا تأكل ما قد يشتهيه هو، تفعل ذلك حبًا وزهدًا وإيثارًا، وكان ذلك ديدنها معنا؛ فلم تكن تأكل حتى نأكل أو تشبع حتى نشبع، أو تمدّ يدها إلى طعام حتى تتأكد أنه ليس هناك من يرغبه أو يشتهيه؛ فهكذا عهدناها... لا طعام يلهيها ولا ملبس يغريها، ولا متاع يشغلها، ولا بريق يأسرها، ولا زخرف يبهرها ولا دنيا تفتنها، فقد اسْتَعْلَتْ على شهواتها، وترفعت على سفاسفها، وتطهرت من جواذبها، وسمت عن دناياها، ونأت عن التعلق بحطامها الفاني.

وهكذا عاشت الوالدة الحبيبة مثلاً أعلى في التواضع والسماحة والبساطة، وقدوة طيبة في الزهد والصفاء والارتقاء، وامتلأ قلبها بحب الرحمن، فكان رضا الله (سبحانه وتعالى) غايتها، ونيل الجنة أسمى أمانيها... هكذا كان نقاء الإسلام ونصاعة الإيمان وحقيقة اليقين في قلبها الطاهر.

ومرضت والدتي الحبيبة؛ فما زادها المرض إلا إعراضًا عن الدنيا الفانية، وإقبالاً على الآخرة الباقية... وسموًا على متاع الدنيا الزائل... وظلت على هذا الحال إلى أن توفاها الله (جل جلاله). فانتقلت إلى جوار كريم، وأقبلت على عادل رحيم يوفي العاملين الصادقين أجرهم بغير حساب، ويُبَوِّئُهُمْ من الجنة غرفًا تجري من تحتها الأنهار.

النفس تبكي على الدنيا وقد علمت ... أن السلامة فيها تركُ ما فيها

لا دَارَ للمرء بعد الموت يسكنها ... إلا التي كان قبل الموت يبنيها

فإن بناها بخير طاب مسكنُهُ ... وإن بناها بشرّ خاب بانيها

لا تركنَنَّ إلى الدنيا وما فيها ... فلست ترشد إلا حين تعصيها

عشقها للصلاة

كم ليلةٍ ما كان يوقظني في جنْحِها إلا تَشَهُّدُها

يستأنسُ الليلُ الطويلُ بها لما يزينُهُ تَهَجُّدُهَا(١)

كلنا يعلم منزلة الصلاة في ديننا الحنيف، فهي أول ما أوجبه الله من العبادات، وآخر ما يفقد من الدين، وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة؛ وقد كانت الصلاة هي قرة عين الوالدة الحبيبة... أحبتها حبًا ملك عليها كيانها... فبها كان يطمَئن قلبها وينشرح صدرها، كانت تحرص على تأديتها أول وقتها في حضرٍ أو سفر... في تعبٍ أو مرض، وكانت لها في بيت والديها حجرة للصلاة كلما فتحت جدتي بابها في ساعات الليل وجدتها تحيا أوقات من الوصال وتعيش لحظات من القرب ترتشف فيها من برد اليقين وحلاوة الإيمان وأنوار الهداية.

ولأن والدتي الحبيبة كانت تسعى لتربية جيل يحقق الغاية ويحيا حياة طيبة ليفوز برضوان الله، فقد أنشأتنا على الإيمان بالله وحسن الصلة به... ودعتنا إلى كل ما دعا إليه الله ورسوله، وغرست في قلوبنا الوازع الديني وحب الصلاة، وكانت تمثل لنا المثل الأعلى في تأديتها... فكنا نراها تهرع للصلاة وتلبي النداء متى سمعته، مهما كانت مشاغلها وأيًا كانت ظروفها، فعلمتنا أن المبادرة بالوقوف بين يدي الله (جل جلاله) هي خير من أعراض الدنيا وزينتها.

وكانت تسارع لإيقاظنا للصلاة عندما يرتفع أذان الفجر، ولم تكن تقبل منا تكاسلاً أو عدم استجابة، ثم تذهب بنا للوضوء رغم قسوة برد الشتاء، ولا تمضي حتى تطمئنّ أننا قد أنهينا الوضوء على أكمل وجه، وبعد الصلاة تجلس للذكر، وتجلسنا معها لنسمع ما تردّده من الدعاء والأذكار، رغم أننا كنا لا نعي ما تقول من

(١) شعر د. عبد الرحمن العشماوي.

عشقها للصلاة

كم ليلةٍ ما كان يوقظني — في جنْحِها إلا تَشَهُّدُها

يستأنسُ الليلُ الطويلُ بها — لما يزينُهُ تَهَجُّدُها[١]

كلنا يعلم منزلة الصلاة في ديننا الحنيف، فهي أول ما أوجبه الله من العبادات، وآخر ما يفقد من الدين، وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة؛ وقد كانت الصلاة هي قرة عين الوالدة الحبيبة... أحبتها حبًا ملك عليها كيانها... فبها كان يطمَئن قلبها وينشرح صدرها، كانت تحرص على تأديتها أول وقتها في حضرٍ أو سفر... في تعبٍ أو مرض، وكانت لها في بيت والديها حجرة للصلاة كلما فتحت جدتي بابها في ساعات الليل وجدتها تحيا أوقات من الوصال وتعيش لحظات من القرب ترتشف فيها من برد اليقين وحلاوة الإيمان وأنوار الهداية.

ولأن والدتي الحبيبة كانت تسعى لتربية جيل يحقق الغاية ويحيا حياة طيبة ليفوز برضوان الله، فقد أنشأتنا على الإيمان بالله وحسن الصلة به... ودعتنا إلى كل ما دعا إليه الله ورسوله، وغرست في قلوبنا الوازع الديني وحب الصلاة، وكانت تمثل لنا المثل الأعلى في تأديتها... فكنا نراها تهرع للصلاة وتلبي النداء متى سمعته، مهما كانت مشاغلها وأيًا كانت ظروفها، فعلمتنا أن المبادرة بالوقوف بين يدي الله (جل جلاله) هي خير من أعراض الدنيا وزينتها.

وكانت تسارع لإيقاظنا للصلاة عندما يرتفع أذان الفجر، ولم تكن تقبل منا تكاسلاً أو عدم استجابة، ثم تذهب بنا للوضوء رغم قسوة برد الشتاء، ولا تمضِي حتى تطمئنّ أننا قد أنهينا الوضوء على أكمل وجه، وبعد الصلاة تجلس للذكر، وتجلسنا معها لنسمع ما تردّده من الدعاء والأذكار، رغم أننا كنا لا نعي ما تقول من

---

(١) شعر د. عبد الرحمن العشماوي.

شدة التعب أو البرد أحيانًا، ولكنها كانت تمتلك إصرارًا عجيبًا على أن تجلسنا معها لتُحَبِّبَنا في الذكر وتعودنا عليه وتعلمنا أن نبدأ يومنا بذكر الله (ﷻ)، عسى الله أن يجعل يومنا يوم نجاح وصلاح وفلاح.

وكانت الصلاة من أوائل ما تسألنا عنه: هل...؟ متى...؟ وكيف...؟ وما كانت لتتساهل أبدًا مع من ضيّعها أو أخّرها عن وقتها، أو تكاسل عنها، أو قصر فيها؛ هنا كانت تبدي دهشة كبيرة وتصوب إليها نظرة عميقة ملؤها الحزن والأسى، قائلة له:

"لماذا لم تصلِّ؟! ما شغلك عن الصلاة؟! ولماذا إذًا سُجِنَ أبوك؟ ألم يسجن لأنه كان يربي الشباب على الدين؟!!

كما كانت والدتي الحبيبة تذكرنا من خلال كل موقف تتجلى فيه نعم الله علينا أن الله سبحانه هو صاحب النعمة والفضل، وهو السند العظيم والملجأ الكبير في أوقات الضيق والعسر، وكانت تبثّ فينا الشعور برقابة الله علينا، وأنه (جل في علاه) يعدّ علينا خطرات قلوبنا ولمحات أبصارنا وحركات جوارحنا ووساوس نفوسنا وفلتات ألسنتنا وخلجات أفكارنا، ويطلع على سرائرنا، وتنكشف له علانيتنا، وتنجلي له أسرارنا، ويرى أفعالنا صغيرها وكبيرها، ويشهد أعمالنا دقها وجلها، ولا يخفى عليه شيء من أمرنا.

وكانت صلاة الليل بالنسبة لها شعاعًا من نور السماء يعينها بها الله (ﷻ) على تخطّي العقبات ويصبّرها على المحن، ويثبّتها أمام الشدائد، ويبدد بها ظلمات القلب وينير دروب النفس، لذا كانت إذا جنَّ الليل تهجر الراحة ودفء الفراش لتنضم إلى قافلةِ عباد الرحمن الذين يجدون أنسهم مع الرحمن... هؤلاء الذين تحيطهم أطياف الملائكة وتهب عليهم نسائم الإيمان... وينتشر بينهم عبير الجنان، فتقف بين يدي مولاها تبتهل إليه وتناجيه، وترجوه وتستهديه... تصلي صلاة العابدين الخاشعين، وتسجد سجود الطائعين المتذلّلين، وتدعوه دعاء الوجلين الخائفين، تطلب رضاه

سبحانه، وتتودد إليه بجميل أوصافه وواسع رحمته وعظيم لطفه؛ فتصبح وقد حباها الله نفسًا تشع نورًا وسماحة، ووجهًا يشع صفاءً وإشراقًا، وجسمًا يمتلئ نشاطًا وطاقة، وروحًا تسلحت قوةً وعزيمةً، وقلبًا تحصن إيمانًا وتقوى، وهي جوائز ونفحاتٌ قرآنية وأعطيات وفيضُ رحماتٍ ربانية يمنّ الله بها على صالح عباده ممن استعلى على الشهوات؛ لتريح جوانح نفوسهم، وتنير فجاج دروبهم.

وحتى في أشد حالات المرض لم تكن أمي (رحمها الله) تضيع فرضًا أو تؤخره مهما كانت الظروف، ولقد ابتليت مرة بالسقوط فكسرت ساقها وذراعها ووضعتا في الجبس، فكانت تزحف إلى الصلاة زحفًا لتؤديها دون تأخير أو تقصير!! ومرة أخرى ابتليت بسقوطِ قدر كبير يحوي ماءً يغلي عليها، فأصيبت بحروق شديدة في أنحاء كثيرة من جسدها كانت بسببها أقرب إلى الموت منها إلى الحياة، ومع ذلك لم تتوانَ مرّة عن الصلاة أو تؤخرها عن وقتها، وفي مرض الوفاة بالمستشفى ما كانت قادرة على الحركة، فكانت تصلي جالسة أو مستلقية بجوارح خاشعة لله رب العالمين، لذا ظل محيّاها يعلوه نور وإشراق حتى فاضت روحها إلى بارئها.

لقد كانت والدتي الحبيبة تدرك أن الدنيا جسر للآخرة، وأن كل ساعة تمضي من حياتنا لن تعود، فكانت تشتري الآخرة بالدنيا قبل رحيلها عنها... رحمها الله وأسكنها الفردوس الأعلى، وتقبل منها جميل صبرها وصالح سعيها، وجمعنا بها في رحاب الرحمة الإلهية تحت ظل عرشه وفي مستقر رحمته... فهي (رحمها الله) من بَثَّتْ في نفوسنا حب الله ورسوله (ﷺ)، وهي من غرست فينا الشعور بمعيّة الله (ﷻ)، وهي من علمتنا الوضوء والصلاة والذكر والدعاء.

تضحياتها الجسام

ثباتك في الزعازع صار رمزًا ... وفي درب الكفاح غدا علامةْ

منار أنت لم يخمد سناه ... وتكره في الورى عيش النعامةْ[1]

عاش والداي الحبيبان حياة تسودها المودة والرحمة بقلبين متعانقين، وروحين متشابكين، وسواعد متحدة، ونيات مضيئة، وطموحات مشتركة... حياة أسَّسا بنيانها على تقوى من الله ورضوان، فكانت والدتي حنانًا يغمر والدي... وريحانًا انتشر عبقه في أركان الدار... وطِيبًا انتشر أريجه في زواياه.

ثم بدأت سُحُبُ المحن تتكاثر في سماء الحياة، فكانت أول محنة أثناء حكومة النقراشي في عهد الملك فاروق أواخر الأربعينيات، وتحديدًا في ١٩٤٩/٣/٥م؛ إذ حلت جماعة الإخوان لأول مرة في أواخر عام ١٩٤٨م، وفتحت المعتقلات في الطور وهايكستب لاستقبال الإخوان المسلمين، واعتُقِلَ الوالد الكريم من بيت جدي الشيخ سليم إبراهيم أبو رامون، ورغم أن الوالدة الحبيبة لم تكن تألف أجواء المحن فقد صبرت خلال فترة الاعتقال هذه التي امتدت لعام وثلاثة أشهر قضاها والدي في عدد من السجون وهو صابر محتسب.

ثم كانت المحنة الثانية حين اعتقل في ١٩٥٤/١/١٣م، لمدة شهرين ونصف، لم تتبرم والدتي الحبيبة خلالها أو تسخط، بل ظلت راضية صابرة، أمام امتحان عظيم وابتلاء شديد، ومنذ يوليو وحتى سبتمبر من هذا العام كان الوالد (رحمه الله) يحسب أن الحكومة تفكر في القبض على الإخوان مرة أخرى بعد الاعتقالات التي جرت في يناير وفبراير ومارس، فأخذ ينام خارج البيت، وما إن علم باستدعاء أحد الإخوان المقربين وهو الأستاذ أحمد إمام حتى عاد إلى بسيون، وهناك علم بسؤال وكيل مأمور مركز بسيون وضابط

---

(١) شعر أحمد محمد الصديق.

لم تهدّها النكبة، ولم توهن عزمها المصيبة، بل كنت تلمس فيها برد اليقين وعبق السكينة، ونداوة التقوى وصدق العزيمة، فظلت نموذجًا فريدًا في الصبر والرضا، ومثلاً رائعًا في العطاء والوفاء؛ وبدأت صفحة جديدة من حياتها سطرتها بمداد الصبر والبذل والكد... والكفاح والعطاء... وكان وراء هذا الصبر وهذا الثبات ابتغاء ما عند الله من الأجر، والوفاء بعهد قطعته على نفسها بألا تتخلى أبدًا عن رفيق الدرب مهما كان الثمن، بل أن تكون عونًا له على مشاقّ الحياة وتقلبات الأيام، فتقف خلفه في محنته... تؤازره وتشد من أزره، وتعينه وتثبّته بكل ما حباها الله من صبر وثبات وقوة.

لم يكتفِ الظالمون بحرماننا من الوالد الحبيب ظلمًا وعدوانًا، بل مارسوا ضدنا سياسات التجويع وقطع الأرزاق في إطار سياسة لئيمة وهجمة حاقدة، ولكن الوالدة الصابرة غالبت الأعاصير الهوج، وتحدت أمواج الحياة الهادرة، وبدأت فصلاً من التضحية تتضاءل أمامه أعظم التضحيات، وتسلحت بأمضى سلاح على هذا الحصار، ألا وهو الصبر الجميل، والعزيمة الشامخة، والهامة السامقة، ولم يكن أمامها إلا طريق واحد لتسلكه، وهو طريق أصحاب الدعوات الذي قال عنه الإمام الشهيد:

"ستسجنون وتشردون، وتفتش بيوتكم، ويروع أطفالكم، وتنهب أموالكم، وتثار ضدكم الافتراءات الظالمة لتشويه سمعتكم والنيل من أقداركم، وقد يطول بكم مدى هذا الامتحان، عند ذلك فقط تكونون قد بدأتم تسلكون طريق أصحاب الدعوات".

ومن تداعيات هذه المحنة ضريبة قاسية كان على والدتي الغالية دفعها لترى والدي الحبيب في السجن، فقد بدأت من اللحظة الأولى تجوب أرض مصر في نفرة متواصلة وسعي دائم تكبدت فيه المتاعب والآلام... لتقوم بزيارة كانت تتطلب منها المرور بعدة مراحل: أولها كان الحصول على تصريح زيارة من مصلحة السجون التي

كانت تذهب إليها وحدها، ولا تسل عن التعب والعناء اللذين كانت تلاقيهما، ولا عن الغلظة والجفاء اللتين كان يتعامل بهما العاملون هناك.

وما إن تعود بهذا التصريح حتى تبدأ المرحلة الثانية من الإعداد لرحلة الشقاء التي كانت تبتغي بها وجه الله (جل جلاله)، وهي القيام بتأجير سيارة تأخذنا إلى السجن، وكثيرًا ما كانت والدتي الحبيبة تسعى لاصطحاب جدتي وعمتي وفاءً لوالدي الحبيب، وتقديرًا لأحب الناس وأكثرهما عطفًا وحنانًا علينا "الجدة والعمة"، فكنا جميعًا: والدتي ونحن الأبناء وجدتي وعمتي، نقضي ساعات السفر الطويلة مكدّسين في سيارة تشبه "علبة السردين" في عناء لا يعلم مداه إلا علاّم الغيوب، ولكنها - كما قلت - كانت الضريبة التي على والدتي الحبيبة وعلينا جميعًا دفعها، لنتمكن من رؤية الوالد الصابر؛ ويا ليتنا بعد كل ذلك العناء كنا نستمتع بالزيارة أو نقضي فيها وقتًا معقولاً، بل كان لا يسمح لنا إلا بقضاء فترة محدودة في جو خانق وظلم لا حدود له من وراء حواجز تحول دون التواصل بيننا وبينه، فقد كانت تمنع رؤية من هو خلف الأسلاك من الجانبين أو حتى سماعه جيدًا ... يفعلون ذلك زيادة في البغي وإمعانًا في التنكيل ولتكون رؤية أهل المعتقل له أكثر عذابًا من عدم رؤيته.

وفي كل مرة تذهب والدتي للزيارة كانت تلاقي ألوانًا من الظلم، وتعاني أشكالاً من الغلظة من فراعنة صغار واقفين على أبواب السجون أو في داخلها... كانت والدتي الحبيبة تتحملها بصبر جميل؛ حتى لا تحرم من رؤية والدي الحبيب والاطمئنان عليه؛ وبعد انتهاء الزيارة التي كانت تشكل نوعًا من الكابوس كان ينادي منادٍ بالخروج، حينها كانت الأمهات والزوجات والأبناء يتفرقون... وعلى الخدود دموع جارية، وفي القلوب أحزان عاتية، وفي الصدور جروح غائرة لهذا الفراق السريع قبل أن تشبع النفوس من لقاء الأحبة.

ولك أيها القارئ أن تنظر إلى تضحيتها بعد أن ابْتُلِيَتْ بسقوط ماء مغلي أتى على نصف جسدها كادت تهلك بسببه بعد أن انسلخ الجلد عن اللحم، لولا أن حفظتها عناية الله وتداركتها رحمته (جل جلاله)، فقررت أن تضحي بزيارتها لوالدي حينها رغم أهميتها القصوى بالنسبة لها، حيث أشفقت على والدي أن يرى الضمادات والأربطة البادية حتى العنق، فيزداد حزنًا على حزن وغمًا على غمّ، فقررت أن تظل في البيت متعللة بالاعتناء بوالدتها المريضة، على أن نذهب نحن الأبناء مع جدتنا وعمتنا لزيارته.

وكم من مرة حاولوا منعها من الدخول لرؤية والدي بعد أن تتكبد رحلة العذاب هذه التي كانت تحتسبها عند الله، بحجة زيادة العدد عما هو مدون في التصريح الذي أحضرته من مصلحة السجون، بل كم من سنوات كانت تمر، يمنعون فيها الزيارة زيادة في الحرمان والتنكيل؛ فكانت والدتي لا تملك إلا الصبر الجميل على عدم رؤية والدي لفترة طويلة، وفي ذلك يقول والدي الحبيب في كتابه[1]:

"وكانت تمر علينا سنوات لا أراها أو أحدًا من أولادنا، وتعددت البلاد التي حبست بها وبعدت، فقد كنت بالواحات الخارجة مثلاً لمدة خمس سنوات، وبِقِنَا لمدة خمس أخرى، وكانت تمنع الزيارة لحرماننا أو زيادةً في التنكيل".

وكم من مرة كانت تزوره وهي تحمل طعامًا أو دواءً أو ملابس للإخوان، فكانوا يرفضون إدخال بعض ما تحمله، بل كانوا يذهبون أكثر من ذلك فيلقون بها أمام أعينها بعد أن تكون قد تعبت في إعدادها من ميزانية البيت الضئيلة... تلك الميزانية التي لم يكن يعلم بحالها إلا علاّم الغيوب... وذلك في صورة من صور الانتقام، وفي محاولة لإذلال النفوس، فكانت والدتي الحبيبة تعود حزينة منكسرة، بل ربما تمرض لأيام بسبب ذلك؛ فنجلس نواسيها ونخفف عنها، وتردد: إنا لله وإنا إليه راجعون، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) الإخوان المسلمون في ريف مصر.

ورغم أنها كانت تتعرض لمثل هذه الممارسات في كل مرة، فإنها ما تراجعت مرة عن زيارة والدي، فقد كان قلبها المؤمن يترجم مشاعرها صبرًا واحتسابًا، ورضًا وثباتًا، ويقينًا ورجاءً، وأملاً في الله (جل جلاله) لا ينقطع أن يجعل لها من كل هم فرجًا ومن كل ضيق مخرجًا ومن كل بلاء عافية، وصدق الله:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ (إبراهيم: ٤٢).

وفي إحدى الزيارات لسجن الواحات كان معها أخي الصغير محمد خالد، وكان عمره بين سبع وثماني سنوات، وبعد سفر طويل جدًا في قطار الدرجة الثالثة الذي لا يعلم بحاله إلا الله، توقف القطار في منطقة تسمى "**الواسطة**" للاستراحة، وكان عليها أن تبدّل القطار لتأخذ قطارًا آخر إلى الواحات الخارجة، ولما أدارت عينيها حولها في فضاء المكان المسمّى استراحة، أقلقها السكون الرهيب لصحراء رحيبة ممتدة، ولكنها كانت صحراء مقبضة رغم رحابتها... خانقة رغم امتدادها؛ ولما استشعر الخفير قلق والدتي وسط هذا المكان القفر الحالك السواد... ألقى الله في قلبه الرحمة وأعطاها الكشك الخاص به لتستريح فيه، فاحتضنت والدتي الحبيبة أخي محمد خالد الذي وضع رأسه الصغير على صدرها، وأخذت تربت على ظهره بحنان، وتذكر الله (جل جلاله) وتدعوه وتتضرع إليه بقلب خاشع حتى سكن خالدٌ في حضنها، فاستشعرت معه الأنس في وحشتها، واستمدت منه القوَّة على احتمال محنتها، وتنزّلت على قلبها السكينة وتغشّتها الرحمة؛ وظلت على ذلك حتى لاحت طلائع الفجر وجاء الفرج... جاء القطار الذي أقلها إلى الواحات الخارجة، فأي تضحية هذه؟ وأي رضا وصبر لقضاء الله وقدره؟ وأي زوجة هذه في وفائها وحنانها؟!

ولك أن تعجب لحالها حين ذهبت لوالدي بعد ذلك بوجه باسم طلق... فما سألها عن شيء إلا أجابت بأحسن ما يمكن... تُهَوِّن عليه ألم الفراق وبُعْد الأحباب ما

استطاعت إلى ذلك سبيلاً... ولم تَشْكُ إليه شيئًا مما وقع لها في رحلتها من عنت ومشقة أو خوف ورهبة؛ لأنها كانت تشعر أن واجبها أن ترفع عنه الهم وتمسح الألم وتخفف الحزن، لا أن تضيف إلى همومه همومًا، وإلى أحزانه أحزانًا؛ وعوضًا عن الشكوى لوالدي رفعت كفيها لتشكو بلواها لمن يسمع الأنين ويجبر الكسر من فوق سبع سماوات، تشكو إليه ما يقع عليها من عنت وظلم من هؤلاء الذين طغوا وبغوا وأشاعوا في البلاد كل صنوف القهر والظلم والفساد.

وهكذا عاشت تجوب مصر طولاً وعرضًا بهمة عالية وإرادةٍ قوية وعزيمة متقدة: طرة... القناطر... القلعة... قنا... المحاريق... أسيوط... الواحات الخارجة؛ تفعل كل ذلك والصبر يملأ قلبها والرضا يطمئن نفسها، فقد كان هناك دائمًا وسط الظلام الدامس شعاع من نور يجعلها تستعذب كل عذاب وترضى بكل بلاء، وتصبر على كل شقاء، وكانت ترى علامات الفرج قريبة، فيسكن قلبها، وتطمئن نفسها، ومهما ادْلَهَمَّت الخطوب أو اشتدت وطأة الحوادث فلم تكن تتقوى إلا بإيمان راسخ، ويقين واثق في الله (جل جلاله) الذي كانت تثق بوعده بالنصر والفرج، فأي تضحية وأي نموذج من الفداء كانت عليه هذه المرأة؟!!

أما في باب البذل والإنفاق، فقد كانت والدتي الحبيبة نبراسًا في العطاء، ومثلاً في الجود والتضحية - ولو بقوتنا أحيانًا - في سبيل تخفيف معاناة فقير محروم أو فك كربة مسكين معدوم أو تفريج كرب حزين مهموم كانت تتحرك مشاعر الرحمة والشفقة في قلبها تجاههم... وتسري مشاعر العطف والحنان في جوانحها عند رؤيتهم، ولعل الصيام الذي كانت تكثر منه كان يذكّرها بأهل البلاء والحاجة... ويجعلها تسارع بطيب نفسٍ إلى البذل والعطاء والجود بما لديها وإن كانت لا تملك غيره حتى لو كان قليلاً، ورب درهمٍ يسبق ألف درهم؛ فقد كان حب التضحية متغلغلاً في نفسها الكريمة التي كانت تستشعر آلام الآخرين، وتسعى في حاجة أهل الحاجة؛ ابتغاء الأجر والمثوبة من الله.

تحكي أختي إحسان أن أمي شاهدت من إحدى شرفات شقتنا في بسيون كهلاً لا يقوى على السير، فرقّ قلبها لحاله وأعدت له طعامًا وفراشًا، وأمرت بمن يعطيهما له، فطعم الرجل ونام بجوار البيت، ولما أصبح الصباح أطلت الوالدة من الشرفة تبحث عنه بناظريها لعلها تطعمه، ولكن الرجل كان قد ذهب وترك المكان.

ومرة أخرى كان هناك ثلاثة جنود في عربة للجيش تعطلت أمام عمارتنا ثلاث أيامٍ بلياليهنّ، وعجزوا عن إصلاحها ربما لعدم وجود من يقدر على ذلك حينها في بلدتنا الصغيرة، فكانت والدتي الحبيبة تصنع الطعام وترسله طوال هذه الأيام مع حفيدها، حتى تمكنوا أخيرًا من إصلاحها ومضوا في طريقهم.

كل ذلك وغيره كثير كانت تعطيه في سماحة ندية رغم حالنا الذي لم يكن يعلم به إلا من لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ولكن بسبب عملها الصالح كان الله يخلف علينا ويبارك لنا في القليل.

وظلت والدتي الحبيبة على هذا الخلق الجميل والإيثار النبيل والنفس الكريمة حتى توفاها الله بعد حياة حافلة العطاء، فاللهم تقبل كل ذلك منها، واجعله ذخرًا لها يوم القيامة، وأظلها اللهم بظل صدقتها يوم لا ظل إلا ظلك، واجمعنا بها في أعلى عليين، بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

الفصل الثالث

أمي...

حنان ومسؤولية

- غرسها لشعور المسؤولية في نفوسنا
- أعيادنا في ظلها
- وعاد أبي..
- حكمتها ورجاحة عقلها
- حناتها وحزمها

غرسها لشعور المسؤولية في نفوسنا

كانت الوالدة الحبيبة تمتلك صفة القيادة الحكيمة، وكانت على درجة كبيرة من الوعي في إدارة شؤون الحياة، واستطاعت في غياب والدنا العزيز أن تكون الأم التي تحتضننا وتشعرنا بالأمان والاطمئنان، والعطف والحنان، والأب بقيادته للأسرة وحزمه وشدته في غير قسوة، وتحملت المسؤولية الملقاة على عاتقها بصورة يَنْدُرُ أن يراها إنسان، واستطاعت بما حباها الله من حكمة وبما اتصفت به من صبر وأناة، وبما فرضته الظروف والأحداث، أن تغرس في نفوسنا المفاهيم الصحيحة والعادات السوية، وأن تزرع فينا الثقة والقدرة على تحمل المسؤولية، والتي كانت تحثنا على أدائها بأمانة وإخلاص، وأن تغرس فينا الوعي بإدارة شؤون الحياة، وتبثّ فينا القدرة على مواجهة الأزمات من خلال إشراكنا في ما كان يعتري حياتنا من مشاكل يومية كانت تستدعي منا جميعًا التكاتف لمواجهتها ومحاولة إيجاد حلول لها، واستطاعت أن توظف كلاً منا حسب ظروفه وطاقاته دون أن تكلفنا من المسؤوليات والتبعات فوق ما نطيق، مع حرصها على المتابعة المستمرة والتذكير الدائم؛ حتى تضمن صلاح الأمر واستقامة الحال.

كانت والدتي الحبيبة دائمة التشاور معنا في كل الأمور رغم حداثة سنِّنَا، وكانت تحرص على إشراكنا في اتخاذ القرارات كجزء من تحمل المسؤولية؛ ومع التشاور كانت تعلمنا أدب إبداء الرأي والمناقشة، فلم تكن تقبل أن يرفع أحدنا صوته أو يعتزّ برأيه أو يحاول فرضه على الآخرين، بل علمتنا كيف يعبر كل منا عن رأيه بأدب لنتوصل إلى رأي سديد قد يكون سببًا بإذن الله في وقايتنا من الزلل؛ وقد كان لجلوسها معنا وسماعها لنا آثار إيجابية كثيرة؛ إذ علمتنا أدب الحوار وحسن الإنصات، ونمّت في نفوسنا روح الثقة، وعملت على ترابط قلوبنا وتآلف نفوسنا،

وكان أسلوبها التربوي الحكيم وسيلة لبلورة شخصياتنا وإكسابنا القدرة على التفكير والتعامل الإيجابي.

ومن باب تعويدنا على تحمل المسؤولية كانت الوالدة الحبيبة تحثنا جميعًا على التعاون في ترتيب البيت وتنظيفه دون تفرقة بين ولد وبنت من باب العدالة والإنصاف، فكانت تكلف أحدنا بالتنظيف وآخر بالترتيب وثالثًا بالمساعدة في المطبخ، ورابعًا بشراء الحاجيات من الخارج وهكذا .. وكنا نتنافس على أداء ما تأمرنا به لنحوز رضاها وننال دعواتها الطيبة التي كانت تعني لنا الكثير؛ ومن ثمار هذا الأمر أن النظام أصبح سمة مميزة في حياتي، وأجدني إلى اليوم أتحرى النظام في أوراقي وكتبي وأشيائي الخاصة، بل وأسعى إلى غرس هذه الصفات في أبنائي، وأحسب أن الفضل بعد الله يعود للوالدة الحبيبة (رحمها الله).

وكانت والدتي تحكي لنا ونحن أطفال عن والدي الحنون الذي كان يعينها على أعمال البيت حبًا لها وحرصًا عليها وتخفيفًا عنها، وعملاً بوصية رسول الله (ﷺ) القائل: "استوصوا بالنساء خيرًا"، واستنانًا بسنته؛ فقد كان (ﷺ) يعلف الناضح، ويعقل البعير، ويقمّ البيت، ويحلب الشاة، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، أو كما تقول أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها): "كان في مهنة أهله حتى يخرج إلى الصلاة".

ولقد رأى ابن الجيران والدي الحبيب ذات مرة وهو يقوم بغسل الملابس، فصاح في دهشة: "يا سبحان الله!! عم الحاج أحمد البس يغسل الملابس؟!".

فقد كان والدي الحبيب متواضعًا تواضعًا يشهد به كل من عرفه أو تعامل معه، وصدق رسول (ﷺ): "وما تواضع عبد لله إلا رفعه".

وكانت الوالدة الحبيبة تعلق على ذلك قائلة لنا: "لقد كان أبوكم رجلاً ذا مسؤوليات دعوية متعددة، ومع ذلك لم يمنعه ذلك من مساعدتي برضًا كامل وسعادة متناهية".

وكانت هذه الأم الحكيمة تحرص على تنمية روح الاستقلالية والاعتماد على النفس فينا، وتشجعنا على اكتساب الخبرات حتى نعتاد التعامل مع مواقف الحياة دون تردد أو خوف، وكانت تركز على الإيجابيات في شخصية كل منا وتُثني عليها دائمًا؛ مما كان يزرع الثقة في نفوسنا ويرفع من معنوياتنا ويكسبنا اعتزازًا بالنفس، ومن ذلك أنها كانت تعلمني وأنا صغير كيف أواجه الرجال وكيف أتمسك بحقوقي ولا أفرط في شيء منها، وكانت تحملني مبالغ مالية كبيرة دون أن تخشى ضياعها أو سرقتها، حتى أصبح تَحَمّل المسؤولية سمة في حياتي بفضل ما حبا الله والدتي الحبيبة من حنكة وحصافة في التعامل مع الأمور؛ وكانت تثني عليّ بكلمات كان لها وقعها البالغ في نفسي وأثرها السحري، كأن تقول: "لقد أصبح عبد الحميد رجلاً قادرًا بإذن الله على أخذ حقوقنا؛ وكان هذا الثناء يوقظ همتي وينشط عزيمتي ويقوي شخصيتي، ويزيد حماسي وإصراري على إنجاز ما تكلفني به.

وأذكر أنني كنت أقف وأنا أصغر الطلاب حجمًا وسنًا بالثانوية في طابور الصباح متقلدًا مسؤولية ريادة الصف، أمام طلبة كانوا يحبونني لتعاوني معهم وتعاملي بحب وود، وكان ذلك من فضل الله، ثم غرس والدتي في حسن التعامل.

ومن أجمل ما علمتنا إياه أن نحسن التصرف في الإنفاق، وخاصة في ظل ظروفنا الصعبة وإمكاناتنا المحدودة؛ استشعارًا لنعمة الله وحمدًا له على ما أنعم علينا، ورغم صغر سني فقد تعلمت في سن مبكرة كيف أنفق ما في يدي في المكان الصحيح؛ وكانت والدتي تحذّرنا من الإنفاق في المعاصي، وتشجعنا على الإنفاق في أمور البر لتحل البركة في المال ونفوز بجنة عرضها السموات والأرض.

وكانت والدتي الحبيبة حريصة على مراقبة أدائنا المدرسي، فكانت توقظنا للمذاكرة كل حسب ما يريد، وتسهر بجانبنا لتؤنسنا وتلبي طلباتنا، تفعل ذلك برضا وسعادة متناهية، وكان هذا الجهد وهذا التفاني منها من أهم عوامل تفوقنا في الدراسة حينها ثم في مستقبل حياتنا.

كما كانت (رحمها الله) تحثنا على استثمار أوقاتنا وتنظيمها، والتركيز على المفيد من الأعمال، وتحثنا على أخذ الحياة بجدية، سواءً أمور الدراسة أو غيرها، حتى أصبحت هذه الجدية سمتًا واضحًا في حياتي لا أتخلى عنه حتى وأنا أدرس الدكتوراه بأمريكا، فقبل مناقشة الرسالة أغلقت حجرتي لشهر كامل، حيث كنت أعمل ليل نهار في إعداد المشروع المرافق لرسالة الدكتوراه حتى تورمت قدماي، وعجزت يوم المناقشة عن لبس الحذاء بسبب ذلك! وكان أستاذي الأمريكي المشرف على رسالتي يقول لي كلما تقابلنا: "يا عبد الحميد .. أنت طالب ممتاز، وجميع أساتذتك يثنون عليك، ولكني أراك جادًا أكثر من اللازم، فهلاّ ترفقت بنفسك قليلاً؟!".

وكنت أثناء دراسة الدكتوراه أستطيع بفضل الله الموازنة بين مسؤوليات الدراسة وغيرها من المسؤوليات، سواءً نحو زوجتي وأولادي، أو أي مسؤوليات أخرى كانت تقتضي غيابي لساعات طويلة خارج البيت؛ وكان ذلك كله نتاج الجدية والشعور بالمسؤولية اللتين كانتا من غرس والدتي الواعية المثابرة التي كانت دائمًا تحثّنا على تأدية العمل على الوجه الأكمل وتحري الإخلاص فيه، جزاها الله خيرًا.

وهكذا كانت والدتي الغالية: ميزان بيتنا، وكنا نرى فيها العون بعد الله (جل جلاله) على مواجهة أعباء الحياة، وظلت تقود بنا السفينة وسط بحر الحياة الهائج متلاطم الأمواج بمهارة عالية وحنكة متناهية، محاولة الوصول بنا إلى شاطئ النجاة وبر الأمان، وعونها على المضي عزيمة صادقة وحبل رجاء يربطها بمدد السماء، وتعامل هيّن ليّن ونفس متجردة من حولها وقوتها ترد الأمر لصاحب الأمر.

لله درك يا أماه... كنت ذات عزيمة صادقة وإرادة قوية وهمة عالية، فربَّيْتَنا على البر والفضيلة، وغَرَسْتِ فينا المعاني الجليلة، وارتقيت بنا إلى قمةٍ سامقة من محاسن الأخلاق ومحامد الفعال، بكل ما حباكِ الله من قدرة على الإقناع وصبر على التربية، ولأن الصدق كان منهجك فقد فتح الله لك قلوبنا تستمع لتوجيهك السديد وتتأسى بخلقك الحميد، فكنت بحق أجلّ نعمة في حياتنا .. فجزاك ربي عنَّا خيرًا.

أعيادنا في ظلها

العيد شعيرة من أعظم شعائر الإسلام، ومظهر من أجلّ مظاهره، تتجلى فيه من المعاني الإنسانية والاجتماعية ما ينشرح له الصدر، ففيه تتقارب القلوب على الود وتجتمع على الألفة، ويلتقي الناس بعد فراق ويتصافون بعد كدر، وتشمل الفرحة كل بيت وتعم النعمة كل أسرة، وتهش النفوس، وتسعد القلوب، ويستقبله المؤمنون بالفرح والترحاب، ويهلل المسلمون بالتكبير والتحميد، ويلبس الأطفال والكبار الحلل الجديدة، وتشرق أيامه بالفرح والسرور، وتفيض لياليه بالسعادة والنور، وتعمر مجالسه بالمرح والعطاء، وينتشر الأطفال بالبهجة والمرح، ويتزاور الأهل والأصدقاء، وتغمرهم هالات محلقة من النور والأشواق، وتمتلئ قلوب الأطفال بالسعادة، ووجوههم بالضحكات وجيوبهم بالعيدية وأيديهم بالحلوى، وتخرج الزكاة قبل الصلاة، فيفرح الفقير ويسعد الغنيّ، ويمرح الصغير ويسعد الكبير، هكذا اعتاد الناس أن العيد هو فرحة للجميع صغاراً وكباراً ... فقراء وأغنياء.

نعم، ففي العيد يفرح الجميع ويبتهجون شكراً لله تعالى على ما أدوا من عبادات... فأيام العيد هي أيام وصال وتهادٍ، وترابط وتهانٍ، وسعادة ومرح، وخروج وانطلاق في نزهات جميلة يرتبها أفراد الأسرة ليقضوا وقتًا ممتعًا في جو من الأخوة تكون فرصة لتبادل مشاعر الحب والدفء بين أفراد الأسرة.

وعندما كنا أطفالاً كانت كل مظاهر السعادة في الأعياد تنطبق على جميع الناس إلا الإخوان وأسرهم، فقد أمات الطغاة الظالمون الفرحة في قلوبنا بتغييب العائل في السجون، فأنّى لنا أن نشعر بفرحة العيد ...؟! وأي زوجة قد ترغب في ضحك أو تشعر بسعادة وزوجها قابع هناك في أقبية السجون يُسلَّط عليه العذاب أشكالاً وألوانًا بغير رحمة؟ وأنَّى لنا أن تتوافر لنا فرصة الخروج والنزهات ونحن محاصرون اقتصاديًا؟ وأنى لنا أن نستشعر الدفء الأسري ونحن محرومون من حنان الوالد؟

لقد كان أكثر ما يعكر صفو حياتنا في العيد والمناسبات (مثل رمضان ووقت دخول المدارس) هو عدم وجود الوالد الحبيب بيننا ليشعرنا بحبه وحنانه مثل غيرنا من الأطفال... كنا نشعر بمرارة اليتم، بينما كان والدنا هناك حيًا وراء الأسوار، لذا لم يكن يغيب عن ملامحنا الأسى ولا عن قلوبنا مرارة الحرمان من الأب الحاني الذي كانت ألسنتنا تتوق للنداء عليه مثل غيرنا من الأبناء.

وكان غياب أبينا يلقي بظلاله الكئيبة على الدار، وكانت سحائب الحزن والأسى تظلل القلوب قبل أن تظلّل الدار، بل إن فرحة الناس وسرورهم في هذه المناسبات كانا يثيران كوامن الحزن في نفوسنا ويحركان سواكنها، فلم نكن نرى في سرور المسرورين إلا مضاعفة لمعاني الحزن عندنا:

وقف الصغير مسائلاً: أماهُ ... مالي أراك حزينةً في العيدِ؟
العيدُ طرحٌ للكآبة جانبًا ... لتعيشي منطلقة بلا تقييدِ
فعلام تبدين يا أماه حزينةً ... وتخالفين العرف والتقليدِ؟

صوبت لابني نظرة أودعتها ... ردي وفيض مشاعري لوليدي
قلت يا ولدي قد أثرت مشاعري ... ونكأت جرحًا نازفًا بوريدي
كيف السرور وأبوك صفوة أسرتي ... مكبلاً بسلاسلٍ وحديدِ
سيعود حتمًا لا محالة يا فتى ... سيكون حقًا ذاك يوم العيدِ[1]

ورغم كل ذلك كانت الوالدة الغالية (رحمها الله) تبذل جهدها في العيد لتوفّر ما يمكن توفيره من حلوى وغير ذلك لتدخل السرور على نفوسنا، والسعادة على قلوبنا؛ لنسعد كما يسعد بقية الأطفال في هذه الأيام، ولكن أنّى لها أن تأتي لنا بأحضان أبينا الدافئة ومشاعره الحانية التي حُرِمْنا منها؟! كان حزننا يتجدد مع إطلالة كل عيد، يزيده تنكر أولي القربى لنا، فلم يكن يطرق بابنا إلا القليل، ومعظمهم من النساء، مثل عمتي التي كانت تسأل عنا وتتعاطف معنا، وجدتي أم

(١) شعر أحمد حسبو.

والدي التي كنا نستشعر أن وجودها بيننا رحمة وعلى بيتنا بركة، والتي كانت تحب أمي حبًا صادقًا وتحيطها باهتمام بالغ وحنان غامر، وتحرص على زيارتنا في العيد خاصة لتشعرنا بالفرحة وتوزع علينا "العيدية" التي كانت تسعد قلوبنا؛ وكم كانت الفرحة تعمّنا والسعادة تغمرنا لصحبتها وحنانها وأمومتها الدافقة... جزاها الله خيرًا، وجعل ما كانت تفعله معنا في ميزان حسناتها.

وكانت الوالدة الحبيبة عند دخول العيد تحرص على شراء أقمشة جديدة - إذا سمحت الميزانية المتواضعة - لحياكة ملابس جميلة لنا بنفسها، إذ كانت تجيد حياكة الملابس، أما إذا حَالَ ضيقُ ذات اليد دون شراء الجديد من الملابس، فكانت تتصرف بطريقة حكيمة فتحضر ملابسنا القديمة ثم تقوم بصباغتها، ومن العجيب أن هذه الملابس بعد صباغتها وكيّها، كانت تبدو غاية في الجمال يعجب بها كل من يراها.

والعجيب أن بعض أهلنا وغيرهم من الناس كانوا ينظرون إلى ملابسنا الجميلة بدهشة وعجب ويتساءلون فيما بينهم: من أين لهم هذا؟ فقد كانوا لا يكتشفون من فرط جمالها وهندامها أنها ملابسنا القديمة التي قامت الوالدة بصباغتها فأصبحت جميلة في أعيننا قبل أن تكون كذلك في أعينهم؛ كانت تفعل ذلك حتى لا نشعر أننا أقل من أترابنا، بل على العكس تمامًا... كنا نرى ما علينا أفضل من أي شيء آخر جديد يرتديه غيرنا بعشرات المرات.

لقد كانت الوالدة الحبيبة تتحلّى بقلادة من الرضا بما قسم الله لنا، فاستطاعت بما كانت تمتلك من روحٍ عالية وهمّة سامية أن تحوّل حياتنا من حياة الضيق إلى السعة والرضا بفضل الله علينا، وكانت على الدوام تذكرنا بوعد الله للصابرين بالفرج القريب، وتجلس معنا من آن لآخر في حنو عذب لتذكرنا بنعم الله التي تغمرنا وأفضاله التي تعمنا، حتى جعلتنا نستشعر أننا أغنى الناس بما أنعم الله به علينا، وصدق رسول الله (ﷺ): "قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا وقنعه الله بما آتاه"[1].

---

(١) رواه مسلم.

وكانت والدتي الحبيبة تحثنا على أن نحمد الله (ﷻ) حمد الشاكرين على ما أنعم علينا من رزق ليُبَارك الله لنا فيه، وتذكرنا بقوله تعالى :﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم: ٧). وعلمتنا ألا نتحسر على شيء فاتنا من زخرف الحياة الدنيا وزينتها، وألا ننظر إلى ما في أيدي الناس مهما كان، وعلمتنا أن السعادة الحقيقية ليست في امتلاك المال، ولكن في القناعة بما قسم الله، فنشأنا والمال لا يشكل لنا غاية... بل وسيلة تعين على العيش الكريم؛ وهكذا ربّتنا والدتي الحبيبة على الرضا والقناعة وشكر الله... حتى أصبحت تلك المعاني العظيمة والخصال الكريمة والقيم الإيجابية سمات لا تفارقنا، بل وسعينا لتربية أولادنا وأحفادنا عليها.

والحقيقة أن هذا الخير وهذه العزة اللتين غرستهما والدتي الحبيبة في نفوسنا ما كانت لتتحقق لولا أن قدَّر الله أن يواجه الوالد الحبيب (رحمه الله) هذا الابتلاء، وأن تواجه والدتي الغالية (رحمها الله) هذه المحنة وحدها دون أن يكون لأحد فضل عليها إلا الله، هذه المحنة التي تحولت بفضل من الله (جل جلاله) إلى منحة وهبنا الرحمن بسببها الخير الكثير والفضل العميم، فهو وحده سبحانه صاحب المنة... فاللهم لك الحمد ولك الشكر يا إلهي كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

وعاد أبي....

في صبيحة اليوم الرابع عشر من شهر يناير عام ١٩٧٣م حضر شقيقي حسن الإمام من القاهرة ليبشرنا أن الوالد قد تم الإفراج عنه وأنه في القاهرة عند شقيقتي إقبال وزوجها الأخ سعيد منسي (رحمه الله) وما إن سمعت والدتي هذه البشرى الجميلة حتى كاد قلبها يطير فرحًا، وأخذ لسانها يلهج شكرًا وثناءً على ما أنعم الله (سبحانه وتعالى) به علينا.

لقد كان هذا اليوم هو يوم فرحتنا الكبرى، يومها رقصتْ قلوبُنا سعدًا وشعرنا كأن أرجاء دارنا اهتزت فرحًا، والأرضُ من حولِنا تهللتْ طربًا، والسماءُ ازَّيَّنَتْ جذلاً بعودة الوالد الحبيب.

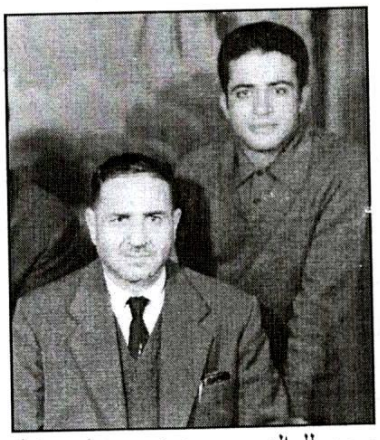

صور للوالد معي بعد خروجه في حقبة السبعينيات

كنت في هذا اليوم في بسيون في إجازة من الجيش، وكنت مع شقيقي الأكبر محمد الأمين في غرفتنا، حين أسرعت والدتي الحبيبة إلى باب الغرفة تطرقه في لهفة وسعادة متناهية، ودخلت الغرفة ووجهها يتهلل فرحًا وقالت تبشرنا: " أمين...

عبد الحميد... لقد خرج أبوكما، الحمد لله رب العالمين... لقد خرج أبوكما... خرج أبوكما ليكمل المشوار، خرج ليكمل تربيتكم؛ تكرر ذلك في ابتهاج وسرور، ولسانها لا يتوقف عن حمد الله رب العالمين وشكره والثناء عليه على ما أولانا من نعمة وما أغدق علينا من فضل.

قد كان حلمًا لها واليوم تحصدهُ كنا نراهُ يقينًا في أياديها

من ينصرُ الرحمنَ ينصره وعزةُ النصرِ في الدنيا ستجنيها

يا الله... ما أجلها من نعمة، وما أعظمها من بشارة... كلمات كنا نتمنى على الله أن نسمعها من سنين، ولكن مع المفاجأة بخروج الوالد والفرحة التي عمتنا... كانت الدهشة التي غمرت كياني كله من عبارتها الأخيرة: " لقد خرج أبوكم ليكمل المشوار... خرج ليكمل تربيتكم!! أي مشوارٍ هذا وأي تربية التي سوف يكملها أبونا بعد أن ربتنا الوالدة وأحسنت تربيتنا وبعد أن أكملنا جميعًا دراستنا والبعض منا تزوج وأنجب، لقد كنت في السابعة من عمري عندما انتزعوا أبانا من وسط أسرته، وحين أفرج عنه كنت قد تخرجت بفضل الله في كلية الهندسة منذ أربعة أعوام تقريبا، وكنت مجندًا بكلية الضباط الاحتياط بالقوات المسلحة بالجيش الثاني بمنطقة وادي الملاك بالتل الكبير، وكان أخي محمد الأمين قد تخرج هو أيضًا من الجامعة قبل خمسة أعوام، وكان يعمل في الإسكندرية، أما شقيقي حسن الإمام فقد تخرج هو الآخر، والتحق بالجيش!! ماذا بقي إذن بعد ما يقرب من ربع قرنٍ من الزمان... ثمانية عشر عامًا وبضعة أشهر في السجن... قبلها فترتا اعتقال، وفترة غياب عن البيت هربًا من الظالمين امتدت لعشرة أشهر، تحملت الوالدة في هذه الفترات كل صغيرة وكبيرة بشجاعة وتفانٍ، فربت وصبرت وتحملت وسهرت وأفنت صحتها من أجل أن نعيش حياة طيبة تحفظ لنا فيها عزتنا وكرامتنا.

ماذا بقي إذن من تربية ترى الوالدة أن على والدي أن يكملها بعد كر الشهور ومر السنين ودوران عجلة الزمن!! لا أقول ذلك تكبرًا ولا تعاليًا حاشا لله أن يكون هذا ما قصدت - فالإنسان يظل يتعلم حتى يلقى الله تعالى، ولكني أقوله من باب الإعجاب بهذه الأم الصابرة المتفانية المنكرة لذاتها المحترمة لزوجها والمقدرة له، فقد أدركت لحظتها بحق أي نوع من الأمهات هي! أنها نوعٌ فريد من الأمهات لا مثيل له في نكران الذات، فهي لا تريد أن ينسب إليها أي فضل رغم أنها صاحبة الفضل الأول والأخير بعد الله.

وأظن أن الأعباء التي كانت تحملها على عاتقها والتي تنوء بحملها الجبال قد أثقلت كاهل هذه الأم العظيمة، فأرادت أن تسلمها إلى صاحبها، بعد قرابة ربع قرن من السجن والاعتقال... عاشت تبذل فيها من نفسها وصحتها ما لا يقوى عليه إلا من وهبه الله مثل ما وهبها وتضحي تضحيات قادت إلى عز... وتكافح كفاحًا أدى إلى نصر... وتجاهد جهادًا أوصل إلى فلاح، وتدفع عنا وإن أوذيت... وتطعمنا وإن جاعت... وتؤمننا وإن خافت..... وتحنو علينا وإن قسا عليها الآخرون، وتتطلع إلى اليوم الذي يعود فيه أبونا الحبيب الحنون إلينا.

عاشت والدتي الحبيبة ترعانا دون أن يتسرب اليأس إلى قلبها بعد أن حكم عبد الناصر على والدي بخمسة وعشرين عامًا... بل أقسم أن الإخوان لن يبارحوا السجون طالما يتردد في صدره نفس، فمن تنتهِ فترة سجنه يعتقل ثانية ليظل الإخوان في السجون مدى الحياة، ورغم ذلك كان قلبها الطاهر يشع نورًا وتفاؤلاً وثقة بوعد الله بالفرج القريب، وعاشت تفيض على قلوبنا مما أفاض الله على قلبها من أمل رحيب في زوال سلطان الطغاة ومجدهم الزائف الذي بنوه على أشلاء الإخوان وجماجمهم وتؤملنا في عودة الأب الحاني والزوج الحبيب إليها وإلينا مكرمًا معززًا.

كانت على يقين بأن القيد لابد أن ينكسر، وأن الظلم لابد أن يندحر، وأن السنين العجاف ستنقضي لينفلق الإصباح عن نور يظهر وينتشر، وها هي اليوم قد ثبت صدق ظنها في مولاها الذي أذن للحق أن يستضيء وللباطل أن تخمد أنفاسه، وللإصباح أن ينفلق عن ضوء تكسرت على محياه الظلمات، وللحق أن يعلو ليندحر بسطوته الباطل، ونودي حي على الفلاح ولم يستطع أحد أن يحجب نور الشمس أو يطفئ جذوة الإيمان وتحقق وعد الله بنصر المؤمنين، وعاد الوالد الصابر قوَّي العزيمة عملاقَ الهمة شامخَ الرأس كبيرًا عزيزًا.

لقد أزيحت السدود وكُسِرت القيود وحطمت الأغلال، وانكشفت الغمة وزالت المحنة وأذن الله (ﷻ) بعودة الزوج الحبيب والوالد الحنون إلى داره... عاد حبيبنا وعماد أسرتنا إلينا في يوم مبارك، وكان رجوعه رجوعًا معطر النسمات، يحمل أنفاس الأبوة الحانية التي طالما حُرِمنا منها، عاد ليُرَوِّح النفوسَ المتعبة... ويُبَرِد القلوب المحترقة... ويروي الجوانح العطشى... كانت عودة أثلجت القلوب وشرحت الصدور وأقرت العيون وأشاعت في البيت من جديد دفئًا وحنانًا... وأضفت عليه بهجةً وحبورًا... وانتشرت أشعة النور في زوايا دارٍ كانت تئن من طول غياب والدي الحبيب... وبدت مشاعر السعد في أركان تلك الدار.... وأضاءت شموع الفرح جنبات بيتنا، وتحَول الحزن الذي كان مخيمًا عليه إلى فرح وسرور، وأحال الله بخروجه الليل الأسود الطويل الذي شهد حكايات الألم المريرة التي تتفطر لذكراها القلوب وتهتز لها المشاعر إلى صباح مشرق، ونهار جميل انتشر ضوؤه وطلعت شمسه وعم دفئه.

كان قد مضى أكثر من عشرين عامًا منذ ترك أبي البيت فارًا من بطشِ القوم الظالمين، كان قد ذهب وهو خائف على والدتي الحبيبة التي اضطر إلى تركها دون أن يدبر لها ما تعيش منه أو يوصي من يرعاها، وخائف علينا نحن أطفاله الذين حُرِمنا من حنانه ورعايته وحضنه الدافئ لفترة لم يكن يعلم مداها إلا الله، لكنه

كان مضطرًا إلى المضي في طريقه بعد أن رفع أكف الضراعة مستجيرًا بربه وداعيًا إياه أن يحفظنا ويكلأنا برعايته.

كم حزنَّا لفراق والدي، وكم اكتنفنا شعور رهيب بالظلم، ولكن معية الله ورحمته شملتنا من أول يوم، وعاشت والدتي الصبورة مطمئنة النفس هادئة البال، ثابتة الأعصاب متفائلة بعد أن ربط الله على قلبها ومضت في حياتها متوكلة على الله واثقة بتأييده، تعلم أنه لن يضيعها أبدًا، كما لم يضيع هاجرعندما تركها إبراهيم (عليه السلام) مع وليدها بواد غير ذي زرع ولا ماء ولا بشر، ولما تساءلت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، فقالت قولتها الخالدة التي ما زال صداها يُسْمَعْ عبر أغوار التاريخ السحيقة : "إذن لا يضيعنا الله" ؛ لقد أيقنت الوالدة الغالية أن الله لن يضيعها كذلك، فالتجأت إليه تدعوه أن يفرج كربنا ويرحم ضعفنا ويهدي نفوسنا، ويحفظنا من كل سوء ويجنبنا الزلل وينعم علينا بالرضا وراحة البال والتوفيق والسداد، فسمعها السميع العليم من فوق سبع سماوات فسكب نوره في الصدور، وهداه في النفوس، ونجانا من كل ضلالة، وحصنّا من كل سوء، وأمنّا من كل زيغ، وحفظنا بما يحفظ به عباده الصالحين استجابة لدعاء والديّ الحبيبين، ونجانا من القوم الظالمين الذين راهنوا على خراب البيوت وفساد الأخلاق وحرق الأخضر واليابس، ونسوا أن الحرب الشعواء التي أعلنوها لم تكن إلا حربًا على الله الذي تكفل بنصر أوليائه... لا يسلمهم ولا يضيعهم ولا يخذلهم.

ورغم قضاء والدي سنين طويلة في أقبية السجون في ظروف غاية في القسوة حيث سلط عليه الظالمون تعذيبًا وحشيًا، ورغم أنه عاش في زنازين كانت ظروفها غاية في القسوة، إذ كانت رطبة لا تدخلها الشمس... شديدة البرودة شتاءً، شديدة الحرارة صيفًا... مرتعًا للحشرات... لا يغادرها أحيانًا لشهور متصلة كان لا يسمح خلالها إلا لواحد فقط بالخروج ليلقي بالفضلات ويملأ زمزمية الماء، طعامها شحيح

حتى كان الإخوان مجرد هياكل غائرة العيون، شاحبة الوجوه، رغم ذلك كله فإنه لم يداهن حاكمًا، أو يمارِ طاغية، أو يؤيد ظالمًا.

صحيح أنه عاد محملاً بذكريات أليمة للتجارب القاسية التي عاشها في ظل الاضطهاد الجارف والظلم الفادح، فقد عايش الكثير من الإخوان الذين أُوذُوا وعُذبوا وسُحِقَت عظامُهم وفقد بعضهم عقله أو قضى نحبه، وعاد بقصة أليمة مريرة محفورة في ذاكرته لكل واحد من هؤلاء، لم تمحها الأيام، ولكنه تسامى فوق جراحاته واستعلى على أحزانه، واحتسب ما حدث له ولإخوانه عند الله الشهيد عليهم الذي لا يعزب عنه مثقال حبة في السماوات ولا في الأرض.

عاد الزوج الحنون بعد زمان قضاه وراء الأسوار كان يمر عليه كل يوم بل كل ساعة وهو في معاناة لا يعلمها إلا من عاشها وقاسى آلامها، بعيدًا عن الأهل والأحباب، وبعيدًا عن الزوجة والأبناء.... إذ كان يحيا تحت سياط جلاديه وعذاباتهم في أقبية السجون الناصرية، ويعاني بسبب حزنه لبعده عن أهله الذين كانوا يتعرضون للحصار والتضييق والترويع، وبسبب بعده عن الحبيبة التي كانت لقلبه روحًا وريحانًا... تلك الوفية التي تركها تواجه وحدها حياة قاسية دون أن يكون هناك ليرعاها ويحنو عليها ويدفع عنها ويذود، وبسبب حرمانه منا نحن الأبناء، فقد كان يتمنى أن يكون هناك يحنو.... ويوجه ويحمي، أو على الأقل ليرانا ونحن نكبر ونشب ونصير رجالاً أمام عينيه، وكم عانى من بعده عن الابن الأصغر محمد خالد الذي تركه وهو ابن سنة فلم يسعد يومًا واحدًا بطفولته البريئة... ولا بصباه اليافع، وحتى حين توفاه الله وهو ابن خمسة عشر ربيعًا إثر مرض لم يمهله سوى أيام لم يكن هناك بجانب زوجته الحبيبة الثكلى ليحنو عليها ويخفف، أو ليلقي على ولده الحبيب خالد نظرة وداع أخيرة عند رحيله عن هذه الدنيا.

لقد تركنا أطفالاً وعاد ليجد رجالاً ونساءً... تخرجوا... وتزوجوا... وأنجبوا... ترك أطفالاً... وعاد ليجد للأطفال أطفالاً... فأي ظلم وغبن وجور هذا. وخاصة أن مَنْ حولنا لم يعبؤوا بنا؛ فقد أداروا الظهور وأشاحوا الوجوه وآثروا السلامة.

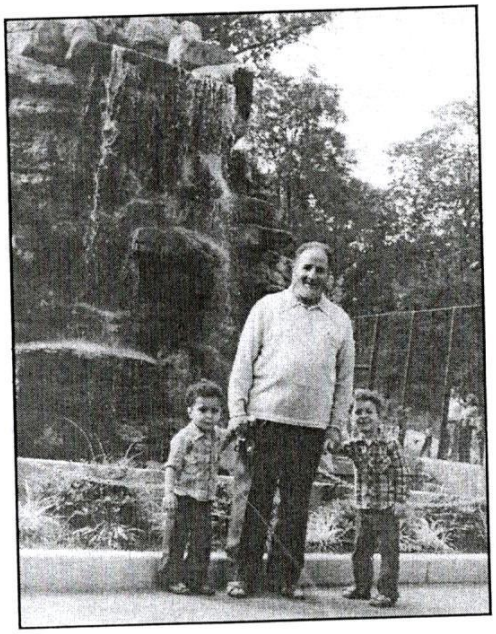

خالد وأحمد عبد الحميد البس مع جدهم
أحمد البس في الولايات المتحدة

لقد مضى والدي شابًا قويًا يافعًا موفور الصحة... يتفجر قوة وشبابًا... وعاد شيخًا يجالد الوهن ويصارع المرض... مضى أبًا وعاد جَدًا ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولكنه عاد بعد كل هذا الزمان ليجد رفيقة دربه... أزكى ما تكون زوجة... كانت على العهد في انتظار فارسها، وقد حفظته في نفسها وماله وأولاده.

وتعْجب لذلك اللقاء بعد أكثر من عشرين عامًا، عندما تنحني الزوجة الصالحة تقبل يد زوجها، ويقبل الكريم رأسها، وتتعانق القلوب، وتحلق الأرواح، وترفرف الجوانح... كم كان شوقه إلى لقائها عارمًا، وكم كان تطلعها إلى رؤياه غامرًا؛

عاد فتبسما معًا نسائم الشوق وخفق قلباهما خفقات الود، واستشعرت الزوجة الوفية السكينة الحقيقية والراحة والاطمئنان لأول مرة منذ غادر والدي، وشفى الله قلبها بعودته إليها، وأقر أعيننا جميعًا بهزيمة الباطل واندحاره وعلو الحق وانتصاره وعودة والدي الحبيب إلى رفيقة درب لم تزدها المحن إلا إباءً وعزة وشموخًا.

أذن الله بعودة الزوج الصابر إلى المرأة الصالحة التي عاشت تعاني صنوف الابتلاء بقلب راضٍ ولسان ذاكر وأمل لا يتزعزع في الله بفرج قريب. عاد إليها ليبدآ معًا مشوار الحياة من جديد في ظل طاعة الله بعد أن خرجا من المحنة نقيين تقيين، يمثلان نموذجًا للصدق مؤثرًا ومثلاً للوفاء مبهرًا؛ وما زاد مرور السنين جذور علاقتهما إلا امتدادًا، وما زادتهما المسافات بينهما إلا تقاربًا، وما زاد التفاهم إلا قوة، وما زاد التواصل إلا قربًا، وما زاد الوداد إلا عمقًا، وما زاد الحب إلا دفئًا، فما كان يربط بينهما لم يكن ليؤثر فيه بُعْد المكان أو الزمان لأنهما لم يجتمعا إلا على حب الله، ولم يفترقا إلا في سبيل الله وابتغاء مرضاته (ﷻ).

أما نحن الأبناء الذين كنا بالأمس أطفالاً ضعفاء لا حول لنا ولا قوة... يعايرنا الناس ويؤذوننا بإشارات جارحة وألفاظ مؤذية، فقد أصبحنا اليوم بعودة الأب الحاني بفضل الله منصورين مكرمين، عاد إلى أطفاله ليجدهم رجالاً ونساءً قرة عين في البر والوفاء، وكان لقاءً تعجز الكلمات عن وصفه، لقاءً فاض فيه الشوق وجاشت العواطف وسالت الدموع، ولكنها كانت هذه المرة دموع الفرح عوضًا عن دموع القهر والحزن والإحساس المرير بالظلم التي شيَّعناه بها عندما ذهب وترك نفوسًا فطرها الحزن وقلوبًا أدماها الأسى، وعقولاً مزقتها الحيرة ولله الأمر من قبل ومن بعد.

لقد اجتمع الشمل ومضت الحياة من جديد في وجود زوج كريم طال الشوق إلى لقياه وأب حنون صحت عزيمته لنحيا جميعًا حياة تظللها السعادة وحسن العشرة ويملؤها الكرم والرضا وتغشاها المودة والرحمة، ويسودها التناصح والتواصي بالصبر، ويظللها التعاون على البر والتقوى.

بدأت الحياة من جديد، وقلب الزوج الكريم يحمل للزوجة الوفية من الحب أضعاف أضعاف ما كان يحمل من قبل، فقد ارتفعت منزلتها، وسما قدرها، وارتقت مكانتها، وأصبحت رمزًا للوفاء والتضحية، ومصدرًا للعز والفخار له وللإخوان جميعًا.

وعاشت والدتي الحبيبة الحنونة ترعى حقوق والدي، وتتعهده بالاهتمام وتحيطه بالعطف، فقد كانت نبعًا فياضًا من الحبِ والحنان يفوق حنان الأم على وليدها، فكانت توقظه بلين غامر، وتقدم له الدواء برفق أرق من النسيم، يقول الوالد في كتابه[1]:

"ها نحن في الستين من عمرنا ولا تزال ترمقني بالعطف والحنان... وتحنو عليَّ كما تحنو الأم بولدها، توقظني برفق وتقدم لي الدواء والطعام والشراب برفق".

لقد عاشت والدتي الحبيبة وهي تمني نفسها بعودة رفيق الدرب الذي طال غيابه لتسلمه الراية التي ظلت تتحامل على نفسها لترفعها طوال ربع قرن من الزمان... راية كان شعارها العزة وعلو الهمة، وعنوانها الوفاء والتضحية... راية لم تُنَكس يومًا، بل ظلت مرفوعة خفاقة رغم الصعاب والأهوال ورغم الجراح والآلام حتى سلمتها له؛ والتفت الأسرة من جديد حول ربانها الذي أمسك المجداف وأدار الدفة وأخذ يقودنا ثانية تحت أجنحة الهناء والود في قارب يمخر عباب نهر الحياة الهادئ.

(١) الإخوان المسلمون في ريف مصر.

حكمتها ورجاحة عقلها

أسمى صفاتِكَ أنْ تكونَ مميَّزًا بسداد رأيكَ في الأمور حكيما

أسمى صفاتكَ أنْ ترى الدنيا بلا غَبَشٍ، وأنْ يبقى الفؤادُ سليما[1]

لقد رزق الله (ﷻ) والدتي الحبيبة من الحكمة وحصافة الفكر؛ مما أعانها على مواجهة المواقف الصعاب والتعامل مع الأزمات الشداد بفضلٍ من الله ونعمة، فقد كانت (يرحمها الله) تعرض كل أمر على قلبها الحي وعقلها النابض، فإذا هداها الله (عزوجل) إلى قرار تحولت الكلمات من سكونٍ إلى حركة، ومن ضعفٍ إلى قوة، ومن عجز مقعد إلى همةٍ عالية.

وكانت حبيبتي الغالية من فرط حنانها ورحمتها بنا تسعى سعيًا دائبًا لتحقيق ما تصبو إليه نفوسنا رغم ضيق ذات اليد، فمنتهى سعادتها كانت تجدها في تحقيق ما نتمنى في حدود ما تسمح به الإمكانات، وكان حنانها حنانًا يحكمه العقل ورحمتها رحمة يغلفها الإباء، فلم تطمع يومًا إلا في صاحب الفيض الكريم والعطاء العميم، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

أذكر وأنا في المرحلة النهائية بكلية الهندسة - قسم العمارة - عام ١٩٦٨م، أنني كنت أحتاج إلى مبلغ من المال يفي بتكاليف مشروع التخرج، فذهبت أطلبه من الوالدة الحبيبة التي استمعت إليّ بإنصات... وبدت عليها الحيرة لحظة... ثم بادرتني قائلة:

"عبد الحميد... ليس معي ما تطلب الآن، فأنت تعرف أني قد بِعْتُ كل ما أملك من أرضٍ ورثتها عن والدي في الأعوام الماضية للإنفاق عليكم، ولا أحب أن أقترب من أرض والدك وهو غائب عنا"، وبعد تفكير عميق أردفت قائلة:

---

(١) شعر: د. عبد الرحمن العشماوي.

"إذا رأيت أن تبيع جزءًا من بيت والدك في بلدته لتأخذ ما تحتاج إليه من المال فافعل"، قالتها في تردد شديد وحرج بالغ، فقد آثرت والدتي الحبيبة أن تنفق كل ما تملك قبل أن تتصرف على استحياء في شيء من أملاك والدي للإنفاق عليّ في وقت كنت أحوج ما أكون فيه إلى هذا المال؛ لقد هداها الله إلى ذلك الحل مضطرة، رغم علمها أن ذلك لا يزعج الوالد في شيء، ولكنها التقوى التي كانت تتسم بها.

سعيت إلى إنجاز ذلك الأمر بعد أن توكلت على الله؛ لأنني شخصيًا لم أكن مستعدًا لأن ألجأ إلا إلى الله (سبحانه وتعالى) حتى ولو لم أتخرج؛ وقد لاقت عملية البيع تعنتًا ومعارضةً شديدين من كثيرين في البداية، إلا أن الله (عز وجل) يسّر لي بفضله عملية البيع في النهاية، فحمدت الله حمد الشاكرين، وأعطتني والدتي الغالية حاجتي من المبلغ الذي حصلنا عليه؛ إلا أن ما حدث بعد ذلك كان عجيبًا! فقد شاء الله أن يقوم رئيس قسم العمارة د. **عرفان سامي** (رحمه الله)، وكان رجلاً شهمًا كريمًا حنونًا، بشراء كل مستلزمات مشروع التخرج لجميع طلاب دفعة البكالوريوس بلا استثناء على حسابه الخاص! وقد فعل ذلك في وقت كانت فيه المادة هي المسيطرة على حياة الناس، فجزاه الله عنا خير الجزاء، وأسكنه فسيح جناته، وجعل عمله هذا في ميزان حسناته، وفرّج عنه كربة من كرب يوم القيامة كما فرّج عن كثير من طلابه كرباتهم.

عمت الفرحة قلوبنا بما أنعم الله به علينا، وغمرت السعادة نفوسنا لاهتمام أستاذنا الفاضل بنا، وشكرنا - نحن طلاب قسم العمارة - لهذا الأستاذ الكريم جميل صنعه ونبيل خلقه الذي إن دل على شيء فإنما يدل على رعايته واهتمامه بأبنائه الطلاب، وحمدنا الله (سبحانه وتعالى) على أن سخر هذا الرجل الكريم ليقدم هذا

"إذا رأيت أن تبيع جزءًا من بيت والدك في بلدته لتأخذ ما تحتاج إليه من المال فافعل"، قالتها في تردد شديد وحرج بالغ، فقد آثرت والدتي الحبيبة أن تنفق كل ما تملك قبل أن تتصرف على استحياء في شيء من أملاك والدي للإنفاق عليّ في وقت كنت أحوج ما أكون فيه إلى هذا المال؛ لقد هداها الله إلى ذلك الحل مضطرة، رغم علمها أن ذلك لا يزعج الوالد في شيء، ولكنها التقوى التي كانت تتسم بها.

سعيت إلى إنجاز ذلك الأمر بعد أن توكلت على الله؛ لأنني شخصيًا لم أكن مستعدًا لأن ألجأ إلا إلى الله (سبحانه وتعالى) حتى ولو لم أتخرج؛ وقد لاقت عملية البيع تعنتًا ومعارضةً شديدين من كثيرين في البداية، إلا أن الله (عز وجل) يسّر لي بفضله عملية البيع في النهاية، فحمدت الله حمد الشاكرين، وأعطتني والدتي الغالية حاجتي من المبلغ الذي حصلنا عليه؛ إلا أن ما حدث بعد ذلك كان عجيبًا! فقد شاء الله أن يقوم رئيس قسم العمارة د. **عرفان سامي** (رحمه الله)، وكان رجلاً شهمًا كريمًا حنونًا، بشراء كل مستلزمات مشروع التخرج لجميع طلاب دفعة البكالوريوس بلا استثناء على حسابه الخاص! وقد فعل ذلك في وقت كانت فيه المادة هي المسيطرة على حياة الناس، فجزاه الله عنا خير الجزاء، وأسكنه فسيح جناته، وجعل عمله هذا في ميزان حسناته، وفرّج عنه كربة من كرب يوم القيامة كما فرّج عن كثير من طلابه كرباتهم.

عمت الفرحة قلوبنا بما أنعم الله به علينا، وغمرت السعادة نفوسنا لاهتمام أستاذنا الفاضل بنا، وشكرنا - نحن طلاب قسم العمارة - لهذا الأستاذ الكريم جميل صنعه ونبيل خلقه الذي إن دل على شيء فإنما يدل على رعايته واهتمامه بأبنائه الطلاب، وحمدنا الله (سبحانه وتعالى) على أن سخر هذا الرجل الكريم ليقدم هذا

العطاء لمن يحتاج ومن لا يحتاج إليه، وشعرت حقًا حينها أن الله يسخّر عباده الأخيار لعون إخوانهم، وأن تقوى الله (جل جلاله) هي مفتاح كل خير والمخرج من كل بلاء وباب مفتوح للرزق، وصدق رسول الله (ﷺ): "**إن الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه**" (رواه الحاكم في المستدرك).

عدت إلى الوالدة لأعطيها ما أخذت كاملاً من ثمن البيت بعد أن أصبحت لا أحتاج إليه، فنظرت إليّ بدهشة!! فقصصت عليها ما حدث فزادت دهشتها ودعت لهذا الأستاذ كثيرًا... ولكنها رفضت أخذ المبلغ، وطلبت مني أن أحتفظ به لعلي أحتاج إلى شيء، فأبيت ذلك بإصرار؛ لعلمي بمدى حاجتها إليه، فملأت الدموع عينيها تأثرًا، ودعت لي بالتوفيق والرشد والسداد.

ومن المواقف التي كان لحكمتها وصحة تقديرها دور كبير في معالجتها عندما تصرف معي أحد أصدقاء الوالد (رحمه الله) في حضور الوالد تصرفًا غير مقبول، ولم ينتبه الوالد لتصرفه غير اللائق؛ إذ كان مشغولاً بأمر آخر، وأمام عدم قبولي لهذا التصرف واعتراضي عليه رأى الوالد إرضاءً لي أن يعاتب صديقه، ولكنه عرض أن نستشير والدتي أولاً، فقد كانت رجاحة عقلها وبُعْد نظرها موضع تقديره وإجلاله، بل كانت موضع تقدير كل من تعامل معها، فوافقت دون تردد لثقتي في حرصها على قول الحق ولو كان مرًا؛ فرأت الوالدة بعد تفكير في الأمر ألا نفاتحه في ذلك حفاظًا على علاقة المحبة والوداد التي تربطه بالوالد والتي قد تتأثر بذلك العتاب، وساقت مبررات لما يمكن أن تؤول إليها الأمور إذا تم مفاتحته في ذلك، وقامت باسترضائي طالبة مني أن أعفو وأصفح، فقبلت من منطلق قول الله (عز وجل): ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤).

نعم، قبلت ذلك طاعة لربي ثم برًا وإحسانًا وطاعة لها (رحمها الله)، فما كنت لأخالفها أو أعصي لها أمرًا من فرط حبي لها واحترامي لرأيها؛ وفعلاً كان في رأيها الخير كل الخير، والحمد لله رب العالمين، فقد دلت تصرفات الرجل على شعوره بخطئه دون مفاتحته أو إشعاره بسوء تصرفه من قريب أو بعيد، واعتبرت ذلك نوعًا من الاعتذار قبلته منه ورضيت به، وكان ذلك بفضل الله ثم حكمة الوالدة الحبيبة.

وعندما تُوُفِّيَ شقيقي خالد ضربت والدتي سياجًا من التكتم حول خبر وفاته. واعتذرت عن زيارة والدي لفترة؛ فلقد كان قلب والدتي مكتويًا بنار الحزن والأسى واللوعة على فقدان أخي "محمد خالد"، أصغر الأبناء وأعزهم وأقربهم إلى قلبها؛ لذلك رأت بحكمتها أن ننتظر عدة أشهر قبل إخبار والدي الحبيب، فذلك كفيل بتخفيف وقع الخبر عليه، وفي الوقت ذاته يعطيها فرصة لتتجاوز المحنة وللشفاء من الحزن والألم، فتكون قادرة حينها على التخفيف عنه بعد أن تكون قد أصبحت أكثر تماسكًا وصبرًا وثباتًا، ومن ثم أكثر قدرةً على إمداد زوجها الحبيب بالصبر والثبات والمؤازرة.

وكنا كلما زرنا والدي في السجن يسأل عن خالد متعجبًا من عدم زيارته أو حتى كتابته، فنتعلل بظروف المذاكرة أو الاختبارات أو غير ذلك؛ وهكذا ظل خبر وفاة أخي محجوبًا عن والدي حوالي ستة أشهر حتى قمت بزيارته مع شقيقي محمد الأمين فأخبرته حينها بوفاته، وأخذت والدتي تزوره بعدها وتواسيه، مذكرة إياه أن خالدًا إنما كان وديعة استودعنا الله إياها وقد استرد الله وديعته؛ ففاضت عواطف والدي وبكى كثيرًا، وبكت والدتي معه، ولكنه بعدها هدأت نفسه، واسترجع، واستغفر الله.

والواقع أن ما دفع والدتي الحبيبة إلى تجرع مرارة رحيل أخي محمد خالد وحدها في البداية هو وفاؤها لوالدي الحبيب القابع وحده خلف قضبان الزنازين، وحرصها على مشاعره، وهو موقف صعب لا يقدر عليه إلا من حباه الله من شمائل النبل وفيوض الحكمة مثل ما حباها.

ومن الأمور التي أذكر أنها نجحت بحكمتها في أن تخفف عنا وقعها ونحن أطفال، موقفها عندما كانت تخرق مسامعنا كلمات التعيير بسجن الوالد، التي كانت تؤذي مشاعرنا، وتجعل مشاعر الحزن والضيق تملأ نفوسنا، فنجري باكين إلى أمنا التي كان يؤذيها ما يؤذينا، ولكنها كانت تربت على ظهرنا بحنان وتكفكف دمعنا، وتطيب خاطرنا، وتنصحنا بعدم الالتفات إلى هؤلاء؛ ثم تقول لنا وهي تهدئ نفوسنا:

"إن أباكم ما أُدخل السجن إلا لأنه كان داعية كريمًا ينادي بالإسلام شريعة تحكم الدنيا بالعدل، وكان يقدم للشباب الإسلام بصورته النقية الصافية"؛ ثم تبثّ فينا الفخر والاعتزاز بسجن أبينا قائلة: "إنه لشرف لا يدانيه شرف أن تكونوا أبناء أحمد البس... هذا الداعية الكريم، وينبغي أن يكون سجنه مصدر فخر واعتزاز لكم؛ لأنه في سبيل علو شأن الدين في الدنيا"، ثم تسأل الله له علوّ الدرجات في الآخرة بإذن الله.

فكنا نمضي ونتركها بعد أن تكون قد ملأت صدورنا شعورًا بالعزة والإباء، وإحساسًا بالشرف والكرامة، وبعد أن تكون قد أشعرتنا أن سجن أبينا هو شامة نور على جبينه، ووسام ضياء على صدورنا؛ وهكذا أصبحنا نسير وسط الناس مرفوعي الرؤوس، يملأ صدورنا الاعتزاز والفخر لكوننا أبناء لهذا الداعية الكريم؛ وهو شعور لم يزايلنا ولله الحمد حتى يومنا هذا.

لقد كانت لأمنا الحبيبة في نفوسنا منزلة عظيمة ومكانة كريمة؛ لما حباها الله من فهم وإدراك وحكمة، والواقع أن هذا غيضٌ من فيضٍ من المواقف والأزمات التي كانت تعالجها برشاد وحزم، وتتعامل معها بسهولة ويسر لكي تكفل لنا الاستقرار النفسي والصفاء الذهني، فاللهم لا تحرمنا أجرها ولا تفتنّا بعدها، واغفر لنا ولها، وارفع منزلتها بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

حنانها وحزمها

أختـــاه، دينُـــك منبـــع تَـــرْوين بـــه ... قلـــوب بنـــيكِ فتـــشرق الأنـــوارُ
نبـــع ونهـــر لا يجـــف مـــسيله ... أبـــدًا، وجـــذع شـــامخ وثمـــارُ
أختـــاه حولـــك روضـــة مخـــضرة ... تختـــال فـــوق ربوعهـــا الأشـــجارُ
هـو فـي احتـدام القـيظ ظـلّ وارف ... وإذا التـــوى وجـــه النهـــار دثـــارُ
ودعـــاؤكِ الميمـــون لهـــم في جـــنحِ ... الدّجى سهمٌ تذوب أمامه الأخطارُ[1]

كانت والدتي الحبيبة أمًا من نوع فريد من الأمهات... فلها قلبٌ يقطر عطفًا ويغدق حبًا، ويفيض حنانًا، ويعطي ولا ينتظر المقابل، ولها نفس تحمل هموم الكل ولا تشغل أحدًا بهمّها؛ كانت تقدم مصلحتنا على مصلحتها، وتؤثر راحتنا على راحتها... وتنشر جناحيها على عشنا؛ لتشعرنا بالأمن والأمان، والعطف والحنان، ربتنا في إطار من الستر والرضا، ورعتنا خير رعاية دون أن تأبه للشدائد التي اعترضت طريقها، ولا للعقبات التي ظهرت أمامها، ولا للعواصف التي ثارت في وجهها؛ وقد ضاعف غياب والدي عنها - لفترة طويلة - شعورها بالمسؤولية، وفرض عليها أن تتسم بشخصية حازمة لا تعرف النكوص ولا التردد، ولا الضعف ولا التراجع، وكان حزمها هذا صمامًا للأمان يحمل بين طياته الخوف علينا من أن نتنكّب طريق الخير أو نبتعد عن طريق الفلاح، وكانت شدتها خيارًا مرًا تلتجئ إليه لينهض الكسول ويستقيم المعوج ويؤوب إلى الجادة، مهما كلفها ذلك من أحزان قد تعيش فيها أيامًا ولياليَ.

لقد عاشت والدتي الحبيبة تتحمل عبء الأسرة باقتدار، وتقوم بدورها المُشَرِّفْ في حياتنا كأمٍ رحيمة حنون تبتغي قرة العين في أبنائها؛ وكان أمر تربيتنا من أولياتها؛ فلم يشغلها عنه شاغل، ولم يصرفها عنه صارف؛ ولم تقصّر يومًا أو تتهاون في حق من

---

(١) شعر د. عبد الرحمن العشماوي.

حقوقنا، ولم تتركنا هملاً بعد أن تنكّر من حولها وتركوها تحتمل قسوة الحياة وحدها؛ أنفقت علينا كل ما تمتلك ولم تبخلْ علينا يومًا بوقت أو جهد أو مال، وعاشت تبني لنا بساعديها حياة عزيزة فاضلة لبنة لبنة، بَنَتْهَا بالعرق والكفاح، والكد والتعب، والجهد والنصب، وكلما تعالى البنيان وتكاملت أركانه كانت نفسها تشع أملاً وقلبها يمتلئ تفاؤلاً.

وكان يعز عليها تساؤلاتنا لها ونحن أطفال عن غياب أبينا ولماذا لا يعيش بيننا لننعم بحنانه: أين...؟ متى...؟ وكيف...؟ ولماذا...؟ وكنا نستشعر في إجاباتها تناغمًا جميلاً بين روح الأمل التي تبثّها في نفوسنا الصغيرة.... وروح التحدي التي تحاول أن تشد بها أزرنا وتربط قلوبنا الغضة بالدعوة المباركة، وكأن لسان حالها يردد قول الشاعر:

ستمر أعوام طوال في الأنين وفي العذابْ

وأراك يا ولدي قوي الخَطْوِ موفور الشبابْ

تأوي إلى أمّك واهنة مغضنة الإهابْ

وهناك تسألني كثيرًا عن أبيك وكيف غابْ

هذا سؤال يا صغيري قد أُعِدّ له الجوابْ

أما حكايتنا فمن لون الحكايات القديمةْ

تلك التي ينضى بها التاريخ دامية أليمةْ

الحاكم الجبار والبطش المسلح والجريمةْ

وشريعة لم تعترف بالرأي أو شرف الخصومةْ

ما عاد في تنّورها لحضارة الإنسان قيمةْ

وكانت والدتي تمرض أحيانًا، فكنا نجري (أنا وإخوتي) في ظلمة الليل الحالك في شوارع مدينة بسيون التي لم تكن الإنارة قد دخلتها بعد؛ نذهب ونحن متماسكون خوفًا من الظلام الحالك لإحضار الطبيب، ثم نعود معه لنتحلَّق حول فراشها نبكي في لوعة وحرقة ومرارة، وقلوبنا الصغيرة تدعو لها بالشفاء، ونفوسنا البريئة تخاف أن تحرم من صدرها الحنون وقلبها الرحيم كما حرمنا من حنان أبينا ظلمًا وعدوانًا، فقد كانت كل شيء في حياتنا: الأم بحنانها وقلبها الكبير، والأب بحزمه ورعايته، والأمل والملاذ والموئل بعد الله (ﷻ).

لقد كانت مخططات الطغاة تستهدف دفع أبناء الإخوان إلى الزلل والانحراف، ولكن والدتي لاذت بمولاها واعتصمت بحبله واستمطرت رحماته، وقرعت أبواب السماء تدعوه (ﷻ) أن يحفظنا ويهدي نفوسنا ويصلح قلوبنا ويكشف عنا السوء:

هزت الأرض بالتسبيح سجدتها وبللت وجهها بالدمع عيناها

تدعوه يمنحها عفوًا وعافيةً وفضل الله يبدو في سجاياها[١]

وعاشت والدتي الحبيبة تحملنا على الأدب الرفيع، وتغرس فينا الخلال الحميدة التي تحقق شرف الدنيا وعز الآخرة؛ وعاشت تبذر الصدق، وتثبّت الخطو، وتغرس المروءة، وتزرع الفضيلة، وترشد الفكر، وتعلِّم الآداب، وتنشر المبادئ، وتروي شجرة حياتنا بماء العز والإباء.

ومرت السنون وصرنا شبابًا، وظلت والدتي الحبيبة تتعامل معنا بلين بالغ وحنان سابغ، وعاطفةٍ جياشة وحبٍّ متدفق، فإذا سافر أحدنا، حزنت لغيابه، وإذا عاد اغتبطت لعودته؛ وإذا أثقلتنا الهموم جلسنا إليها فنرتاح نفسًا، وإذا أصابنا الحزن لجأنا إليها فنهدأ روعًا،

---

(١) شعر: د. يوسف القرضاوي.

فقد كانت صاحبة نفس مؤنسة وقلبٍ حنون؛ تحبنا دون تمييز، وترعانا دون تفريق، وتبذر بذور المحبة بيننا لتؤلف بين قلوبنا، وتسعى لبناء علاقة بيننا أساسها الحب والحنان، وكنا نبادلها حبًا بحب وعاطفة بعاطفة وحنانًا بحنان.

وهكذا قضت أمي الغالية حياتها تحافظ علينا وتضحي من أجلنا، وتعطي من نفسها القدوة الطيبة والمثل الأعلى في الالتزام بأخلاق الإسلام وآدابه قولاً وعملاً: وجهت فأحسنت، وربت فأحكمت؛ فكنا قرة عين لها في البر والوفاء؛ وظلت على سعيها هذا حتى أقعدها المرض، وهنا حصدت البر والإحسان، ونالت أصدق الدعاء الذي لم - ولن - ينقطع بإذن الله إلا بانقطاع الأنفاس من الصدور، والنبض من القلوب.

لقد كانت أمي الحبيبة غرة في جبين الأمومة؛ كانت خيمة حنان وزهرة جميلة في بستان، وسراجًا يضيء الدروب في دياجير الظلام؛ ونموذجًا من الأمهات المتفانيات قد لا يتكرر كثيرًا في هذه الأيام.

يا من غرست لنا الأمومة دوحةً ... ميمونة الأغصان يانعة الثمرْ

ماذا أقول عن الأمومة إنها ... شلال حب من مشاعر ينحدرْ

شجرٌ وأزهارٌ يحدثنا الشذا ... عنها حديث العطر في الكون انتشرْ

قد كان فيك الأمومة منبعٌ ... ظلت به الأحلام مورقة الشجرْ[1]

(١) شعر: د. عبد الرحمن العشماوي.

الفصل الرابع

أمي...
زهرة أسرتها

- برها بوالديها
- حبها لزوجها وإجلالها له
- تقدير زوجها وثناؤه عليها
- علاقتها بأبنائها

برها بوالديها

رغم أن حياة والدتي الحبيبة بعد زواجها كانت سلسلة من المحن، فإنها لم تضرب جميل زمان مضى بجدران الحياة القاسية، وظل صدرها ممتلئًا برحيق الحب، وقلبها مكتحلاً بومضات الوفاء الطاهرة لوالديها الحبيبين اللذين نشأت في أحضانهما، وكان لهما أكبر الأثر على استقامتها وتربيتها على معاني البر والإخلاص والوفاء.

لم تنس يومًا عرق الجبين الذي بذلاه، ولا زهرة الشباب التي أعطياها، ولا تلك الأيادي الطاهرة التي ظلت تحنو عليها وتربت حتى آخر لحظة، فكانت من أبرّ الناس بوالديها، وأحسنهم عشرة لهما، وأحرصهم على كسب رضاهما، وفعل كل ما يجلب لهما الهناء، واستمرت على ذلك ما بقيا في الحياة وما امتدت بها الأيام.

كانت نظرات أبيها الحنون تثير مشاعر الرحمة بين حناياها، ودعوات أمها الرؤوم تغذّي عواطف الحب بين جوانحها، فعاشت بارة بهما وصولة لهما كريمة معهما، إذا استقبلتهما، فعلى ثغرها ابتسامة، وإذا حادثتهما ففي حديثها الأنس، وإذا تعاملت معهما ففي تعاملها الإجلال؛ وحتى بعد أن كرت السنون، ووهنت قوى والديها ... وحل الكلال وارتعش الساعد، لم تزدد بهما إلا برًا وتفانيًا في التماس رضاهما، وبذلاً للحب والود لهما، وإغداقًا للعطف والحنان عليهما.

كان جدي يحب والدتي ويحيطها بحنان دائم وعطف لا مثيل له، فقد كانت البنت الوحيدة وسط سبعة إخوة، وكانت والدتي الحبيبة لا تذكر جدي إلا بكل خير، وكانت دائمة الثناء عليه والدعاء له، خاصة عندما تذكر وقوفه موقفًا داعمًا لها عند زواجها من الوالد الحبيب الذي كان قد تقدّم لخطبتها، ثم أشار عليه بعض الناس بأن يتراجع عن هذه الخطبة باعتبار أن عائلة العروس من العائلات المالكة في الريف فمنها العمد والمشايخ ، أما هو فهو من أهل الله كما يقولون!!

ولكن بعد مرور عام تقدّم والدي مرة أخرى، فرفضته جدتي بسبب انقطاعه لفترة طويلة بعد تقدمه أول مرة، أما جدي (رحمه الله)، فلم تأخذه العزة بسبب هذا الانقطاع، بل أصَرّ على إتمام الزواج بعد ما تنامى إلى سمعه حب الناس لأبي لسعيه في خدمة الجميع، وبسبب ما كان يتسم به الوالد (رحمه الله) من علامات الخير والصلاح والتقوى، لذا فقد فَضّله جدي (رحمه الله) على من سواه من الأغنياء والأعيان وأصحاب الأراضي، وصدق رسول الله (ﷺ):

"**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفساد...**" (رواه الترمذي).

بعد أن تم الزواج ازداد حب جدي لوالدي الحبيب؛ لكرم تعامله مع والدتي، ولما رأى منه من برٍّ وإحسان وحسن تعامل معه هو شخصيًا ومع جدتي، فقد كان يعاملهما كما لو كانا أبويه؛ كذلك أحبت جدتي الوالد كثيرًا بسبب ما لمست فيه من برٍّ بها وحسن خلق، وكم من مرة سمعتها تعبر عن حبها وإعزازها له! وكيف لا وقد كان الوالد يكن لها كل حب وإجلال، ويتعامل معها بكل تقدير واحترام؟!

كان جدي دائم الزيارة لوالدتي أثناء اعتقال الوالد رغم كبر سنه ومرضه؛ مما خفف من وقع المعاناة التي كانت تستشعرها الوالدة الحبيبة كثيرًا، فكانت تستقبل جدي أحسن استقبال، وتحيطه بكل أسباب الرعاية والتكريم والإجلال؛ وقد تُوُفِّيَ جدي (رحمه الله) عندما بلغْتُ من العمر حوالي خمس سنوات، فحزنت والدتي الحبيبة عليه كثيرًا، فبرحيله فقدت نفسًا عطوفة وقلبًا رحيمًا، فكانت دائمة الدعاء له أن يتغمده الله برحمته، وأن يسكنه فسيح جناته.

أما جدتي لأمي فقد امتد بها العمر حتى توفيت بعد والدتي، لذلك فقد رأيتها وعايشتها، وأعرفها جيدًا: لقد كانت امرأة حازمة ذات شخصية قوية، مهابة في

عين كل من يراها، وهي إلى جانب ذلك على قدر كبير من الصبر والمقدرة على أن تواجه من ابتلاءات الحياة ما يعجز عنه كثير من الرجال!! فقد توفِّي لها خمسة من الأبناء واحد في سن كبيرة نسبيًا وأربعة في سن الشباب، توفاهم الله على صدرها، ولم يند عنها مرة واحدة صوت كما يحدث في ريف مصر في مثل هذه الظروف، ولم تُبْدِ أي نوع من أنواع الجزع أو السخط ، بل صبرت أجمل الصبر، واحتسبت أمرها لله.

وكانت والدتي تحب جدتي كثيرًا، وتتلمس كل الطرق لإرضائها... فتلقاها ببسمة ودود، وتعاملها بأسلوب لطيف، وتسلك معها مسلك الرفق، وظلت على برها بها إلى آخر يوم في حياتها؛ وكثير من أفعالها شاهد على ذلك.

ومن أبرز هذه المواقف التي تشهد على عظيم برها بها أنه في مرض والدتي الأخير، كانت جدتي أيضًا مريضة، وكانت تقيم عند خالي في مدينة طنطا، وأرادت الوالدة الحبيبة أن تكون السبَّاقة إلى عيادة جدتي رغم تحذير الأطباء لها من الحركة والإجهاد، برًا بأمها وإحسانًا، وكم كان مؤثرًا وعميق الدلالة أن تذهب والدتي الحبيبة تجالد الوهن وتصارع المرض، وهي محمولة على الأعناق حيث تكفل شقيقي حسن الإمام - صاحب الهمة والمروءة - بحملها لعيادة والدتها المريضة؛ وكم دعت لها أمها، وكم أكبرت حضورها وهي محمولة لتعودها... إنهما البر والإحسان اللذان كانا طبعين متأصلين في والدتي الحبيبة.

اشتد المرض بعد ذلك على والدتي، ولكنها ظلت صابرة حامدة ربها، وقبل وفاتها بفترة قليلة طلبت حضور جدتي إليها في بسيون لتكون بجانبها، وحضرت جدتي، وأخذت تدعو لها بتفريج الكرب وكشْف الضر، وبقيت بجانبها حتى فاضت روحها الطاهرة وهي عنها راضية، واطمأنت جدتي عندما رأت وجه والدتي الحبيبة يكسوه

النور ويغمره الضياء وتغشاه السكينة، فدعت الله (عَزَّوَجَلَّ) أن يرحمها رحمة واسعة، وأن يسكنها فسيح جناته.

وهكذا عاشت الوالدة الغالية على مثال فريد من البر والإحسان بوالديها الحبيبين، فاللهم اجزها عن والديها خير الجزاء، واجعل اللهم برها بهما وإحسانها إليهما قربة إليك يا مولاي، وأنعم عليها برضوانك وبالخلود في أعلى جنانك... آمين... آمين يا رب العالمين.

حبها لزوجها وإجلالها له

تزوجت الوالدة الحبيبة... وفارقت الجو الذي فيه درجت إلى بيت استشعرت فيه من أول يوم عظمة مكانتها كزوجة لهذا الداعية الكريم، ووعت كلام رسولها (ﷺ):

"**لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**"(١).

ولقد كان من نعم الله على والدي الحبيب أن رزقه هذه الزوجة الصالحة التي كانت مفتاح سعادته في الدنيا، وصدق رسول الله (ﷺ):

"**من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه؛ فليتق الله في الشطر الثاني**"(٢).

تلك الزوجة التي أتم مراسم الزواج بها من خطبة وعقد قران ودفع مَهْرٍ من غير أن يراها، أو حتى تراها والدته أو أخته لتصفها له، ومع ذلك فإنه بعد الزواج لم يسمع أو يَرَ منها إلا ما زاده شكرًا على نعمة الزوجة الصالحة.

لقد وجد والدي الحبيب استقراره واطمئنان قلبه وصفاء روحه في حياة زوجية هانئة ارتبط فيها مع والدتي الحبيبة بوشائج أثمرت المودة والألفة، وأورقت المحبة والتعاطف، فقد كانت والدتي السكن الذي يسكن إليه، والنفس المحبة التي يأوي إليها فتفيض عليه عاطفةً وإخلاصًا، والقلب الرؤوف الذي كان له مرفأً آمنًا يستظل بظله في لحظات العسر وفي أوقات الشدائد؛ كانت والدتي بحقٍّ تلك المرأة التي وصفها رسول الله (ﷺ) عندما سئل: أي النساء خير؟ فقال:

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه الحاكم وصححه.

"**التي تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه في نفسها ولا ماله بما يكره**"(١).

والواقع أن الوالدة الغالية أحبت والدي من يوم أن تقدم للزواج منها، وفضّلته على من سواه دون أن تراه، فهي لم تجد بأسًا في عدم رؤيته قبل الزواج، وقبلت الزواج منه لشهادة إخوانه له بالصلاح والتقوى، والأمانة والصدق؛ وبأنه رجل دعوة تمس شغاف قلبه وتملأ خبايا نفسه وتجري منه مجرى الدم؛ دعوة عاش من أجلها، وجاهد للذّود عن حياضها، وبذل طاقته من أجل نصرتها، فلم يكن يرى لنفسه حياة إلا بها ولا سعادة إلا في رحابها ولا اطمئنانًا إلا بالعمل من أجلها بعزيمة تفل الحديد ونشاطٍ يملأ الآفاق؛ وقد التقت والدتي من أول يوم مع والدي على معنًى، واتفقا على غاية؛ وهي إرضاء المولى (جل جلاله)، والعمل معًا لإعلاء راية الإسلام والسير على منهج رسوله وحبيبه (ﷺ).

عاش والداي معًا قصة جميلة، امتزج فيها الحب بالمودة والرحمة، والتوافق الفكري بالإيثار والتضحية، والمسؤولية المشتركة بالرغبة في تهيئة حياة مثالية للأبناء، وامتزجت كل القيم النبيلة في علاقتهما لتصنع الأمل الطموح للعمل للإسلام؛ وصدق الله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ (الأعراف: ١٨٩)، وصدق رسول الله (ﷺ):

"**ألا أخبركم بنسائكم من أهل الجنة؟! الودود الولود العؤود على زوجها، التي إذا آذت أو أوذيت جاءت حتى تأخذ بيد زوجها، ثم تقول: والله لا أذوق غمضًا حتى ترضى**"(٢).

مرت السنون الأولى من عمر هذا الزواج يظللهما حب فريد في الله... فقد كان والدي يعيش في أعماق أمي ووجدانها ويسكن حبه قلبها حتى خالط منها اللحم والعظم، وحَرَصَا معًا على إرواء نبتة هذا الحب بالقيم النبيلة والكلمات الطيبة والنظرات الحانية، حتى صار هذا الزواج مضرب الأمثال لكل ما هو جميل؛ ولكنهما لم يحلقا

---

(١) رواه أبو داود والنسائي.

(٢) النسائي في السنن الكبرى.

طويلاً بأجنحة السعادة... فقد شاء الله أن يبتليا بمحن قاسية... ولكن رغم قسوة المحن فإنها لم تفرقهما ولم تؤثر في العلاقة النَّديّة الجميلة التي تربط بين قلبيهما؛ بل زادتهما لطمات الحياة القاسية تفاهمًا، والآلام تقاربًا، والجراحات تعاضدًا، والمعاناة تآزرًا.

والحقيقة أني لم أرَ في حياتي امرأة أحبت زوجها مثل والدتي؛ فقد أحبت أبي حبًا خالصًا وُجِدَ لينمو مع الأيام ويقوى مع السنين، وكان حبها وإجلالها له جليًا لنا - نحن الأبناء، وهنا أسوق بعضًا من مظاهر حبها له، وهي غيض من فيض:

كانت تطيعه طاعة الزوجة الوفية التي ترى في طلبات زوجها أوامر واجبة التنفيذ، تفعل ذلك حبًا وإعزازًا له، وطاعة وامتثالاً لأمر الله ورسوله.

فما سمعتها قط تتحدث عنه باسمه مجردًا، بل كانت تقول: الحاج أحمد، أو تقول: والدكم، وكان ذلك من فرط أدبها في التعامل معه؛ كذلك ما صافحته في أي وقت في سفر أو حضر إلا وقبلت يده في ود واحترام بالغين، وكذلك كان والدي الحبيب يعاملها تعاملاً يغلفه الود والوفاء والاحترام، وصدق رسول الله (ﷺ):

"**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**"(١).

وقد أُثِرَ عن والدتي إكرامها أهل والدي وذويه إكرامًا وتقديرًا نابعًا من وفائها وحبها لوالدي؛ فقد كانت تكن المودة والتقدير والحب لعمتي الحبيبة، وكذا جدتي لوالدي، التي كانت تنزلها مقام الأم، وتحيطها بكل مظاهر الحفاوة والترحيب المنبثق من قلب طاهر عامر بالحب والحنان... وتفرح بزيارتها لنا أيّما فرح، وتجالسها بحب صادق خالٍ من الكلفة أو الرياء، وتقربها حبًا وإعزازًا وإجلالاً واحترامًا؛ وتحرص على أن تغرس في نفوسنا هذا الحب والإجلال والاحترام.

وكانت جدتي فعلاً تستحقّ هذا الحب والوداد، فهي الحنون المحبة التي كانت تغمر والدتي بفيض عواطفها، والتي كانت تحبنا وتحنو علينا، وتشعرنا أننا رياحين

(١) رواه الترمذي وابن ماجه.

قلبها ونور عينيها؛ وكان يثلج صدر الوالد الحبيب رؤيته أواصر الود والاحترام والتقدير معقودة بين والدتي وجدتي، وكان يقدر لوالدتي الحبيبة هذا الحب الصادق لأهله وبرّها بهم، ويبادلها وفاءً بوفاء، فكان يبر جدتي لأمي ويكرمها ويكرم أهلها جميعًا إكرامًا كبيرًا.

والحقيقة أني ما رأيت زوجة تحب أم زوجها مثل أمي، حتى تزوجت ورأيت زوجتي أعزها الله تحب والدتي حبًا لا مثيل له رغم أنها لم ترَها؛ فقد تُوُفِّيَتْ والدتي قبل زواجي بعامين، وكم سَمِعْت زوجتي تتمنى لو أنها أدركتها لتراها وتسعد بها وتكرمها وتحنو عليها وتستفيد من خبراتها في الحياة... ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، ويبقى الأمل أن يجمعنا الله بها في مستقر رحمته.

ومن أجمل مظاهر حب والدتي الغالية لوالدي الحبيب حرصها على زيارتها له في السجن مؤازرة له والتماسًا لرضا ربها؛ ورغم المشاق التي كانت تتجشمها والمتاعب التي كانت تلاقيها والوقت اليسير الذي كانت تمكثه معه، فقد كانت تحتسب أجرها عند الله، ويكفي أنها كانت تسعد برؤياه وتطمئن عليه ويتسنى لها أن تخفف عنه بعض همومه وأحزانه وتذكره بوعد الله لعباده الصابرين:

صبرًا أخي في محنتي وعقيدتي ... لابد بعد الصبر من تمكينِ
ولك بيوسفَ أسوةٌ في صبرهِ ... وقد ارتمى في السجنِ بضعَ سنينِ
هوّن عليك الأمر لا تعبأ بهِ ... إن الصعاب تهون بالتهوينِ
أمسٌ مضى واليومَ يسهلُ بالرضا ... وغدًا ببطنِ الغيبِ شبه جنينِ
ستعود للدنيا تَطُبّ جراحها ... ستعود للتكبير والتأذينِ[1]

وكانت والدتي لا تلقى والدي إلا وثغرها مشرق ببسمة حانية، ومحياها مستنير ببشاشة سمحة تنشر ظلال الراحة والأنس على نفسه، وتدخل السعادة والسرور على

(١) شعر د. يوسف القرضاوي.

قلبه؛ وكانت عذوبة روحها وصدق مشاعرها ونبل أحاسيسها تخفف عنه الكثير مما يجد من نصب ومعاناة في سجون الظالمين.

ولا أذكر أنها لامت والدي في غيبته على أي أمر، أو ندبت حظها لأنها تزوجته وربطت مصيرها بمصيره، بل على العكس كانت فخورة بانتمائها لرجل عانى ردحًا من الزمان في سجون الظالمين لأنه كان يحمل راية الإسلام، ويدعو إلى صراط العزيز الحميد.

أما عندما كانت تُحَدِّثنا - نحن الأبناء- عنه، فكانت تتحدث عنه بأجمل ما يمكن أن تتحدث به الزوجة الصالحة عن زوجها الودود الكريم، فكانت تحكي لنا عن نبل خلقه وسعة صدره وخفة ظله وبشاشة وجهه، وعندما خرج من محنة السجن رأينا فيه كل السجايا الجميلة التي كانت تحكيها عنه، ووجدنا فيه الزوج الحنون على والدتي الحبيبة والأب العطوف علينا.

وكانت والدتي تمرض لمرضه، وتفرح لفرحه، وتحزن لحزنه، وتخاف عليه خوفًا شديدًا؛ لذا لم تكن تَشْكُ إليه شيئًا ألمّ بها من متاعب الأسرة، أو تحدثه عما تكابده في الحياة وحدها بشجاعة نادرة، بل كانت تحرص على ألا تنقل إليه إلا السارّ من الأخبار، وتوصينا ألا نتكلم إلا بخير، قائلة: "لا تجمعوا على والدكم همومكم وهموم سجنه وبعده عنكم، ولا تنقلوا إليه إلا ما يفرحه ويدخل السرور على نفسه"؛ أما غير ذلك من أخبار فكانت تُزْوِيها وتتحملها وحدها صابرة محتسبة، فكم من الآلام كتمتها في قلبها! وكم من الأحزان أخفتها ترفقًا به وتجرعت مرارتها وحدها، وربما لم يسمع بها الوالد الحبيب مطلقًا إشفاقًا عليه حتى بعد خروجه من محنته!

لقد كانت العلاقة التي تربط بين والديّ تجسد عظمة التضحية والتفاني، في لوحة مزدانة بألوان الحب والعطف، منقوشة بريشة الرحمة؛ هذه العلاقة التي مزجت بين روحيهما وربطت بين قلبيهما أبدًا حتى لقيا الله وهما على هذا الحال من الحنان والمودة والتراحم والرقة والشفافية والعاطفة المتجددة.

فاللهم يا من وسعت رحمته كل شيء، ارحم والدتي، وأرسل عليها في قبرها من نسائم رحمتك ما يجعلها تنعم إلى يوم القيامة، واجزها اللهم بفضلك عن أبنائها وزوجها خير ما تجزي به أمًا حنونًا وزوجة وفيةً، واجمعها بوالدي الحبيب في أعلى جنانك كما جمعتهما في الدنيا... برحمتك يا أرحم الراحمين.

يا شيخ هذا نهرُ حبي لم يزلْ ... يجري إليكَ معطِّرَ الجَرَيانِ
ينساب من نَبع المودَّةِ والرِّضا ... ويزفُّ روحَ الخصب للكثبانِ
حبٌّ يميزه الشعور بأننا ... نرقى برُتبَتِهِ إلى الإحسانِ
والحبُّ يسمو بالنفوس إذا غدا ... نبراسها في طاعة الرحمنِ
يا شيخ ما أنتم لأمتنا سوى ... نبع يزيل غشاوة الظمآنِ
علمتمونا كيف نجعل همنا ... في خدمة الأرواح لا الأبدانِ
علمتمونا كيف نحسن ظننا ... بالله في سر وفي إعلانِ
علمتمونا أن وعي عقولنا ... يسمو بنا عن رتبة الحيوانِ
يا شيخَنا دعواتُنا مبذولةٌ ... رُفِعت بها نحو السَّماءِ يَدَانِ
نرجو لكم أجرًا وسابغ صحةٍ ... وسعادة بالعفو والغفرانِ[1]

(١) شعر عبد الرحمن العشماوي.

تقدير زوجها وثناؤه عليها

فلو كان النساء كمثلها ... لفُضّلت النساءُ على الرجالِ

فما التأنيث لاسم الشمسِ عيب ... ولا التذكير فخر للهلالِ

قال رسول الله (ﷺ): "**تنكح المرأة لأربع: لمالها، وحسبها، وجمالها، ودينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**"(١). وعن عبد الرحمن بن عوف قال: قال رسول الله (ﷺ): **إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي من أي أبواب الجنة شئت**"(٢). ويقول رسول الله (ﷺ): "**من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه، فليتق الله في الشطر الآخر**"(٣).

كان الوالد يبحث عن زوجة صالحة فاضلة، فلما أنعم الله عليه بزوجة ملتزمة بأوامر ربها متبعة سنة نبيها، وهو ما كان يسعَى إليه سعيًا حثيثًا جادًا، شعر أنه هُدِيَ إلى الفلاح ورُزِق كنزًا لا تعادله كنوز الدنيا، فقد رزقه الله زوجة من أسلم النساء قلوبًا وأعفّهن منطقًا، وأسلمهن طويّة، وأطهرهن ذيلاً، وأرحمهن فؤادًا:

إذا الغرب أمسى من الطهر خاويًا ... فذيلك يا أخت العفاف طهورُ

وإن سقطوا للقاع كنتِ أنت في الذرا ... كما سكنت فوق الجبال نسورُ(٤)

لقد كانت والدتي الحبيبة مثالاً للزوجة العفيفة القنوع، التي لا تكلف زوجها ما لا يطيق... وكانت مثالاً للزوجة الصالحة، فالله غايتها، والرسول زعيمها والقرآن دستورها، ورضا الزوج أسمى أمانيها، لذا لم يرضَ والدي الحبيب عنها بديلاً، فالحياة

---

(١) متفق عليه.

(٢) مسند أحمد.

(٣) رواه الحاكم وصححه.

(٤) انظر شعر أحمد محمد الصديق.

من دون زوجة صالحة مثلها هي ضرب من النقمة والشقاء، والعناء والابتلاء، كما يقول رسول الله (ﷺ):

"**من سعادة ابن آدم ثلاثة، ومن شقاوته ثلاثة؛ من سعادة ابن آدم: المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح، ومن شقاوة ابن آدم: المرأة السوء، والمسكن السوء، والمركب السوء**"[١].

كانت الوالدة ثمرة تربية وإعداد من وَالِدَيْنِ محبين قدّماها هدية غالية لوالدي على أن يكرمها ويحسن عشرتها؛ فأحلها في القلب قبل الدار، بل أحلها قبل القلب في مقلتيه، وكان لا يخاطبها إلا سلامًا، ولا يعاملها إلا إكرامًا، ولا يطعمها ويكسوها إلا حلالاً، وكان يسره منها صفاء قلبها وتقواها، فقد كانت القلب الذاكر واللسان الشاكر والسريرة النقية والنفس المؤمنة التي أعانته على أمر الدنيا والآخرة، فأحبها حبًا ملك عليه فؤاده، وعاشت في سويداء قلبه وأعماق نفسه، وحلّق بها في سماء حب أثمر المودة والرحمة، وعاشا معًا في جنة فيحاء تظللهما أجنحة السعادة والهناء.

ولكن بعد حوالي عشر سنوات من تلك الحياة الهانئة في طاعة لله... شاء الله لوالدتي الحبيبة أن تتقلب بين صنوف المحن والابتلاءات، وتتلقّى الطعنات والضربات، إلا أنها عاشت قوية بالله تسكن قلبها مخافته (عَزَّوَجَلَّ)... وكانت ثقتها بالله ويقينها بوعده يسريان في كيانها، ويملكان عليها أقطار نفسها، فعاشت ترى وسط الظلام الحالك فجرًا تلوح بشائره في الأفق... وتمنّي نفسها بإصباح مشرق وفرج قريب بعد هذا الضيق المستحكم الحلقات؛ لهذا كله سكن إليها والدي، واطمأنت نفسه إليها وإلى رعايتها للبيت والأبناء الذين تركهم أمانة في عنقها، وكان يُكبر فيها صمودها في وجه المحن، وثباتها في وجه الابتلاءات، وتجلدها وسط العواصف، وشموخها أمام الأعاصير، كما كان يكبر فيها مؤازرتها له...

---

(١) رواه أحمد بسند صحيح.

فقد كانت سنداً على الخطوب وعوناً على الأيام، وزاداً عند تعثّر الخَطْوِ، وثقة عند نزول النوائب، وتحفيزاً عند فتور الهمة، لم تحرّضه يوماً على الضعف أو تحثّه على الخنوع، ولم تطلب منه مرة أن يتنازل للطغاة حتى يعود إليها، بل ظلت تشد من أزره وتتحمل معه آلام الحياة؛ لعلمها أنه ما سلك إلا درب الشرفاء، وما اجتاز إلا سبيل المجاهدين.

عاشت شامخة رأسها إلى السماء عزةً وإباءً، حتى خرجت من المحنة صافية القلب وفيّة عزيزة، فرفعت رأس أسرتها ورأس الإخوان جميعاً، وكانت لهم عزاً وشرفاً وفخراً.

لقد كانت والدتي (رحمها الله) ذات عقل لا يوازيه عقول كثير من الناس، وكانت تتعامل مع المواقف بحصافة وذكاء وحنكة، لذا كان والدي الحبيب يحب أن يشاورها في الأمر، وكان يأنس برأيها ويركن إليه، بل كان يطلب منا أن نقدم رأيها فيما يعرض لنا... وكثيراً ما كانت مشاورتنا لها باب رحمة ومفتاح بركة.

وكان والدي يجد في مراسلتها من آن لآخر راحة لنفسه وتفريجاً لهمه، وفي رسالة إليها من قلب المعاناة في أقبية السجون الناصرية، كتب الوالد إلى رفيقة الدرب وشريكة الجهاد يقول:

"زوجتي العزيزة، مضت مدة لم أكتب إليك فيها، وأنا حين أكتب إليك أشعر بالراحة والسعادة، فكان من الواجب أن أستمر في الكتابة إليك؛ حتى أسعد بهذه الراحة، وعذري الوحيد أني حين أكتب لأحد أبنائك أو بناتك فإني أكتب إليك في الحقيقة، فكل حرف وكل سطر وكل معنى وكل خطاب موجه إليك قبلهم، ومع هذا فإني أكتب باسمك خطاباً حينما يشتد بي الخطب ويصعب عليّ الأمر لأنفّس عن نفسي وأريح قلبي؛ أحييك على بعد المكان لوقوفك موقف المؤمنات الصابرات المجاهدات، وأدعو لك بالصحة والعافية والعفو من الله تعالى، وأن يمدّك الله دائماً

بعونه وقوته؛ حتى تجدي أولادك وبناتك وأبناءهم وأحفادهم في أرفع الدرجات وأطيب الأحوال، وأن يرد لك زوجك منصورًا معافًى في بدنه ودينه ودنياه".

وبعد خروج الوالد الكريم من السجن، اجتمع شمل الأسرة، وعاشت في ظلال التفاهم والرضا والمشاعر الراقية من جديد، وعادت العواطف النبيلة إلى مكانها في الصدارة، وعاد نهر الحب يجري في حياتنا، حبٌ تعَمّقت امتداداته وزادت منابعه بمرور الأيام، وزاده الزمن فيضانًا وعمقًا، وأضفى وجود الأحفاد جوًا من المسرة والأنس والسعادة.

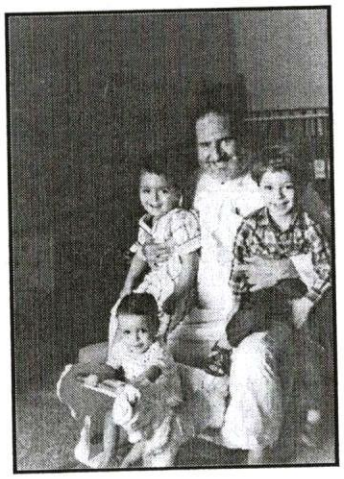

الوالد مع الأحفاد: خالد وأحمد ورحاب عبد الحميد البس في الولايات المتحدة

منحت والدتي الوفية الصدوق الهاشّة والدي الصابر حبًا أثلج قلبه، وحنانًا أراح نفسه، وعطفًا مسح الله به عن صدره سنين العذاب والحرمان والمعاناة، وزاد رصيد الذكريات والجراحات والآلام المشتركة من الترابط والتراحم، ومن قُرْبِ المسافات ومساحات الحوار، وعاش والدايَ الحبيبان يتذاكران كيف واجها المحن معًا بقلوب راسخة ونفوس مؤمنة.

ومن المفارقات الطريفة والمواقف المضحكة أن زوجة أحد الإخوان اتصلت بوالدي الحبيب بعد خروجه من محنة السجن بفترة قصيرة تشكو قلقها على زوجها الذي خرج وتأخر في العودة قائلة له:

"لقد خرج زوجي في الصباح الباكر ولم يعد إلى البيت منذ حوالي عشرين ساعة، وأنا قلقة جدًا". فتعجب والدي وقال لها: "أنت قلقة لغياب زوجك عشرين ساعة؟!! ماذا لو علمت أني قد غبت عن البيت لأكثر من عشرين عامًا، ولم تنزعج زوجتي مثل ما تفعلين الآن؟!!

وفي مرض والدتي الأخير، وتحديدًا في عام ١٩٧٥م، كنت قد أنهيت خدمتي بالقوات المسلحة المصرية لأربعة أشهر خلت، وكانت الوالدة مريضة بمستشفى المبرة بطنطا، وجئت من القاهرة - حيث كنت أعمل في كلية الهندسة بجامعة الأزهر - لزيارتها، ولم أجد الوالد الحبيب، وتعجبت، وشعرت بشيء من الضيق؛ لأنه سافر ووالدتي مريضة، ولكني علمت فيما بعد أنه سافر مضطرًا في مهمة دعوية إلى الرياض بالسعودية... وقد حاول جاهدًا أن يؤجل السفر أو يعتذر عن عدم أداء هذه المهمة، ولكن والدتي هي التي ألحت عليه ليسافر؛ حرصًا على مصالحه، حتى قَبِلَ أن يسافر كارهًا بعد أن اطمأن لوجود شقيقتي إحسان معها.

وشاء الله أن يصلني من مكة المكرمة بعد أيام رسالة منه يعبر فيها عن مشاعره نحو والدتي الحبيبة تفيض حبًا وحنانًا يقول فيها: "ابني عبد الحميد... صحيح أني بالبلاد المقدسة، وصحيح أني مغمور بفيض عظيم من الله ورحماته، إلا أنني مشدودٌ إليكم طوال الرحلة المباركة، فوالدتك لا تفارق ذهني في نومي وصحوي وفي حديثي وصمتي، أنينها في أذني، ودمعي في عيني حين أذكرها، هي أكبر من زوجة في قلبي... هي أختي في الإسلام، وعوني في المُلِمّات، وأم بناتي وأولادي فلذات كبدي، هي حافظة عرضي وكاتمة سري، كتب الله لها الشفاء والعفو والعافية!".

وتعجبت في نفسي عن سر كتابة الوالد لي هذه الرسالة دون غيري من إخوتي، معبرًا عن مشاعره الصادقة نحو أمي، إلا أني تيقّنت أنه من ثمرات الإيمان الصادق في قلب المؤمن أن يقذف الله في قلبه نورًا، فيرى بنور الله الذي أفاض عليه من فضله، فأنار بصيرته من فيض الإيمان به.

وحسبك أن تراه بعد وفاتها، وهو يتكلم عنها بحنان لتستشعر مدى الحب والمودة التي كان يكنها قلبه تجاهها، فكلما مر شريط الذكريات أمام عينيه الدامعتين ظل يسرد سيلاً من الذكريات الحبيبة إلى نفسه، مذكرًا بجهادها وصبرها وإبائها، وما قدمت من تضحيات، ويتحدث بفضلها عليه بعد الله (جل جلاله)، وكيف أنها كانت عونه في الملمات وسنده في الشدائد وظهره في الأزمات، ويتذكر كيف كانت تجوب مصر مع ما في ذلك من مشقة وعنت لتزوره في السجون المختلفة وتحمل له أولاده ليطمئنّ عليهم، فكانت بلسمًا شافيًا يمسح ألمه ويغسل شجنه، ويظل يثني عليها ويذكر فضلها وحنوها وإخلاصها حتى تظن أنه يعلمك فقه الوفاء للزوجة:

واهًا على دمعة في الخد تسبقني ... لا أستطيع لها ردًا أجاهدها
أفضى حبيبي الذي قد كان لي سندًا ... دهرًا طويلاً بلا حال ينكّدها
تلك الحنونة لا ترضى تغاضبني ... فيها الهدوء بلا حُمْقٍ يعقدها
تلك المطيعة في بيتي وتسمعني ... من دون شك لعل الله يسمعها
تلك الصبورة في جدي وفي حزني ... تلك الخدومة للضيفان تشهدها
تلك الكتومة في سري وفي علني ... تلك الأمينة لا شكًا يراودها
تلك الوصولة للأرحام تدفعني ... لا أستطيع لها عدًا يعددها
تلك الكريمة للمحتاج تُعْلِمُني ... يا رب وَسّع لها في القبر مرقدها[1]

(١) شعر فهد العصيمي.

وكنت أسمعه يقول لنا مثنيًا عليها:

"إن أمكم (رحمها الله) كانت نعم الزوجة الصالحة الصابرة، ما صافحتني مرة إلا وقبلت يدي، وما مدت يدها إلى طعام قبلي، كانت تحنو عليَّ وتعاملني أجمل وأكرم ما تعامل به الزوجة زوجها، رحمها الله، وأنار قبرها، وألان مضجعها".

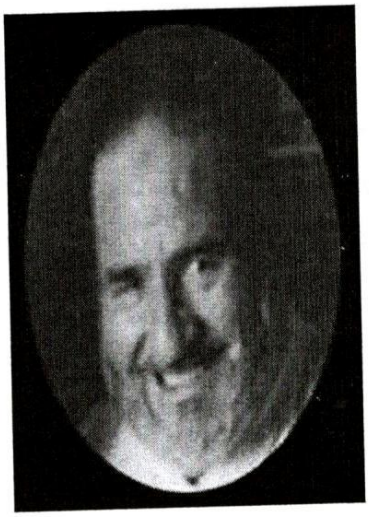

وبعد مرور تسعة أعوام على وفاتها كتب يقول: "مضت تسع سنوات على فراق زوجتي "دولت"، أنار الله قبرها وألان مضجعها، وغفر ذنبها، وأرسل لها من يؤنسها إلى يوم القيامة".

أرجو إلهي لعل الله يلهمني صبرًا جميلاً لعل الله يسعدها

أدعوك ربي لعل الله يجمعني مع الحبيبة للفردوس نصعدها[1]

(١) فهد العصيمي.

علاقتها بأبنائها

علاقتها بشقيقتي

لقد كانت للوالدة الغالية درّتان مصونتان ولؤلؤتان مكنونتان، هما: إحسان، وإقبال.... ربتهما في حجرها الدافئ على الفضيلة والعفاف، وكانت قدوة طيبة لهما في الإيمان والصبر، ومثلاً أعلى في الثبات والرضا، ونموذجًا نبيلاً في الوفاء والعطاء، وأسوةً حسنةً في التوكل على الله واللجوء إليه في كل وقت وحين، فتخلقت إحسان وإقبال بأخلاق والدتهما، وتعلمتا منها مواجهة الابتلاءات بالصبر، والمحن بالثبات، ونزول البلاء بالسكينة، والشدائد بالرضا، وشرور الناس بالإحسان، وتشربت كلتاهما منها كرم الطبع ونبل الخلق وحميد العادات وإخلاص العبادات؛ لذلك لمّا شاء الله أن تتَعَرض كل منهما للمحن كانتا قادرتين على الصبر والصمود والثبات والتعالي فوق الصعاب والأزمات بإذن الله.

كانت تربيهما بالحب، وتعاشرهما بالنصح، وتعاملهما بالرفق، وتعالجهما بالصبر، وتقنعهما بالحوار، وترتجي لهما الخير والعلو، وتتمنى لهما الرقي والسمو، وأخذت تعلو وتسمو بهما حتى بلغتا مرتبة عالية من الإيمان واليقين والعزة والإباء.

كانت شقيقتي الكبرى "إحسان" تبلغ من العمر أربعة عشر عامًا عند بدايات المحنة، وبذلك فقد وعت أحداثها وعايشتها كلها، وشاهدت أمها وهي تكابد المحن بكل آلامها وأحزانها، فلم تَرَ إلا أمًا شامخة صابرة راضية ثابتة، تخرج من كل محنةٍ أصلب عودًا، وأمضى عزمًا، وأقوى قلبًا، وأزكى روحًا.

كانت إحسان تسافر يوميًا في الحافلة مع بعض زميلاتها بعد أن التحقت بمدرسة المعلمات بمدينة طنطا، لعدم وجود هذه المدارس في بسيون، أما شقيقتي "إقبال" فقد لحقت بها في العام الذي يليه، وكانت الوالدة تعيش ساعات غياب إحسان في لهفة الأم الحنون وخوف الوالدة الرؤوم التي لا يطمئن لها بال حتى تعود

ابنتها وتستقر في أحضانها؛ خاصة بعد أن تناهى إلى مسامعها أن المباحث تهدد باختطاف إحدى ابنتيّ أحمد البس حتى يسلم نفسه للدولة، وذلك كنوع من صور الحرب النفسية لتحطيم أمي، والضغط عليها لتدل على مكان والدي إذا كانت تعرفه، وكأنه لم يكفهم ما كانت تعانيه من مشقة وعذاب لغياب والدي وتحمل المسؤولية عن ستة أطفال لا عائل لهم ولا معين إلا الله، فأرادوا لها أن تعيش في قلق وعذاب دائمين.

لم يكن ذلك مستغربًا؛ فقد كنا نعيش في غابة لا يحمينا فيها إلا الله (عزوجل)، وكفى بالله حافظًا ومعينًا؛ وفي الواقع إن وقع هذا الأمر على الوالدة كان عظيمًا، إلا أنها اعتصمت باليقين وتسلحت بالصبر، فالصبر كما يقال: "سيف لا ينبو، ومطية لا تكبو، وضياء لا يخبو"، واتجهت إلى الله ترجوه العون على الخطوب، وتلتمس منه المؤازرة في الكروب.

وشاء الله (جل جلاله) أن يتم القبض على الوالد الكريم، ليقضي حكمًا بخمسة وعشرين عامًا (أشغال شاقة مؤبدة)؛ إلا أن التهديدات ظلت تحاصر والدتي الصابرة، وأمام الخوف من اختطاف إحدى شقيقتيّ، اتخذت والدتي الحبيبة قرارها - بعد التفكير والمشاورة - بإبقائهما في البيت خوفًا وحفاظًا عليهما، ورغم حزن شقيقتيّ الحبيبتين الشديد لترك المدرسة فإنهما اقتنعتا في النهاية تحت ضغط الظروف تحسبًا لأي مكروه قد يصيبهما.

بقيت إحسان وإقبال في البيت ترقبان عن قرب صبر الوالدة الحبيبة (رحمها الله) ورضاها وحزمها وتقواها، وعاشتا في مدرستها ... مدرسة الصبر؛ تتلقيان الدروس على يدي أمي التي كان لها حزم المعلم الواعي المتفهم لظروف طلابه، خاصة وأنهما كانتا في سن يحتاج إلى كل رعاية واهتمام، فربّتهما والدتي على طاعة الله والصبر على قضائه والرضا بمشيئته والطمأنينة إلى معيته، فشربتا الصبر على البلاء، والاطمئنان التام لجنب الله تعالى، وكما يقال: "ربما كمنت المنن في المحن والمحن في المنن".

كانت "إحسان" قد بلغت من العمر ستة عشر عامًا عندما تقدم الأخ أبو اليزيد الملاح للزواج منها، والأخ أبو اليزيد هو أحد إخوان بسيون الميسورين الذي كان يزاول تجارة رائجة من خلال مكتب خاص، وكان قد سبق اعتقاله عام ١٩٥٤م، ولم يتم الحكم عليه، فخرج بعد عامين، وتم زواجه بشقيقتي إحسان عام ١٩٥٧م، على أن يقيما معنا في البيت ليوفر وجوده معنا نوعًا من الحماية في ظل التهديدات المستمرة التي كنا نتعرض لها؛ وهكذا عاشت معنا شقيقتي إحسان بعد الزواج عدة أعوام في ذات الشقة، ثم انتقلت إلى شقة أخرى في العمارة نفسها، وشاء الله لها أن تتعرض لمحن متتابعة وابتلاءات متوالية، حتى ضاقت عليها الأرض بما رحبت، فمدت يديها إلى السماء تشكو أمرها لصاحب الأمر، فربط الله على قلبها برباط الصبر، وأعانها على تحمل المحن بثبات تحسدها عليه الجبال.

الأخ أبو اليزيد الملاح

كانت أولى خطوات الابتلاء عندما تعرضت تجارة الأخ "أبو اليزيد الملاح" لكساد فادح خسر على أثره معظم أمواله، ثم شاء الله أن يبتليه بمرض شديد؛ وليت الأمر

اقتصر على ذلك، ولكنه اعتقل مرة ثانية عام ١٩٦٥م بعد أن أصدر عبد الناصر أمره باعتقال كل من سبق اعتقاله عام ١٩٥٤م، وسيق مرة أخرى إلى السجن، حيث أذاقه جبابرة النظام كل صنوف العذاب التي لا قِبَلَ للبشر بمثلها؛ مما أفقده رشده وصوابه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وعندما أفرج عنه في نهاية ١٩٦٨م خرج في حالة صحية يُرثَى لها، ثم فوجئ بوفاة شقيقي الأصغر محمد خالد الذي كان يحبه كما لو كان ابنه، فزاد مرضًا على مرض، وانتكست حالته بصورة جعلت حياة زوجته وأبنائه معه أليمة مريرة، بل ضربًا من العذاب الذي لا يحتمل!!

ظل الأخ أبو اليزيد في حالته الصحية المتردية، وما خرج من بيته منذ خروجه من السجن عام ١٩٦٨م إلا لقبره عام١٩٩٠م، أي أنه لم يغادر بيته لحوالي اثنين وعشرين عامًا، تحمّلت خلالها شقيقتي الحبيبة إحسان - والتي كانت ما زالت في سن صغيرة - معاناة لا تُحتمل وآلامًا لا حدود لها وأحزانًا لا قبل لها بها، فقد وجدت نفسها أمام زوج مريض بدنيًا ونفسيًا، ومن ثم فقد كان غير قادر على الكسب والعمل، فكان عليها أن تصبر على مرضه وتخدمه وترعاه؛ قربى لله والتماسًا للأجر من الذي لا يضيع عنده شيء؛ بالإضافة إلى ذلك كان عليها تربية خمسة من الأبناء كُتِبَ عليهم أن يعيشوا في هذه البيئة الحزينة الكئيبة.

وهكذا تكاثرت على أختي الهموم والبلايا، وأخذت المحن ترميها بسهام متتابعة دون أن تترك لها فرصة لالتقاط الأنفاس، ولكنها كانت قد تعلمت في مدرسة والدتها كيف يكون الثبات والرضا بقضاء الله وقدره، فضربت مثلاً رائعًا في الصبر على شظف العيش وعلى سجن ومرض زوج ظلت تُكِنُّ له كل الاحترام رغم ظروفه المرضية التي لا تحتمل، ولا عجب فقد تفتحت عيناها لترى أمها الحبيبة تكنّ الاحترام والتقدير لوالدنا، وتربينا في وسط ظروف معيشية بالغة القسوة والمرارة.

وكان لوالدتي (رحمها الله) الدور الأكبر في مساعدة أختي الحبيبة إحسان على تجاوز محنتها، فقد تحملت معها عبء أسرتها، وساعدتها في تربية أبنائها،

وعلمتهم الفضائل الجميلة من محبة وبرّ، ووفاء وشرف، وحياء وعفة، حتى أصبح كل من يراهم يشهد لهم بحسن الخلق وحميد الخصال.

فسل الليالي من طوى ساعاتها سهرًا بصبرٍ دائمًا ترعانا

قيثارة الصبر التي لسماعها طرب الزمان بأعذب الألحانا

لذلك فهؤلاء الأحفاد لن ينسوا أبدًا تلك الجدة الحنون التي تربوا في أحضانها، والتي كانت تقضي نهارها تخدمهم، وتسهر ليلها ترعاهم... تدفع عنهم الشرور، وتبعد عنهم الأذى، وتتولاهم بالاهتمام، فأحبوها وتعلقوا بها؛ فهي لم تكن بالنسبة لهم جدة فقط، بل أمًا رؤومًا احتضنتهم وخصتهم بالمودة، وأسرتهم بالحنان، وأغدقت عليهم العطف، وغمرتهم بالدفء، ورعتهم خير رعاية؛ كان إذا مرض أحدهم تجري به إلى الطبيب في ظلمة الليل وسكون شوارع بسيون دون أن تعبأ بشيء سوى أن تراهم بعافية، وتظل تضاحكهم وتلاطفهم وتحاول أن ترسم البسمة على وجوههم البريئة؛ لتخفف عنهم مشاعر الكآبة التي كانت تظلل حياتهم بسبب ظروف مرض والدهم، التي كان عليهم تحملها رغم حداثة أعمارهم.

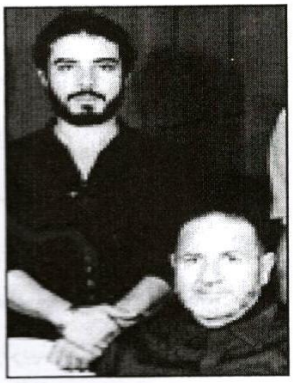

صورة لحفيدها محمد مع الوالد بعد خروجه من محنة السجن

لقد كان من لطف الله بشقيقتي وإكرامه لها أن سخّر لها تلك الأم التي عاشت فترة المحنة قدوة للصغير ومثلاً للكبير، تحمل هَمّ الأبناء، وتجبر كسر الأحفاد، تفعل ذلك في صبر وجلد ربما لا يقدر على تحمله الكثيرون، وذلك بفضل ما حباها الله به من رجاحة العقل والمقدرة على إدارة الأزمات، لذلك لما رحلت والدتي وتركت شقيقتي إحسان وحيدة بعد أن كانت لها ولأبنائها نبعًا يفيض حنانًا ... ونهرًا يتدفق عطاءً... وقمرًا ينساب ضياءً... انفطر قلب شقيقتي وانسكب دمعها وأحسست فراغًا كبيرًا برحيلها، فقد كانت والدتي ظهرها وسنامها والبلبل الذي يشدو في ليل أحزانها، تحمل الهمّ وتأسو الجرح، ولكنها مشيئة الله التي لا رادّ لها، والكأس المورود الذي لا محيد عنه، وكان عزاؤها أن الله قد توفاها وهي عنها راضية ولأبنائها داعية.

أما شقيقتي إقبال فكانت تصغر أختها الكبرى إحسان بعامين، وقد عاشت كذلك المحنة بكل آلامها ومتاعبها؛ وكانت تملأ على والدتي حياتها، فقد كانت لصيقة بها لا تكاد تغيب عنها لحظة... كانت تحتضن والدتي إذا مرضت، وترعى كل صغيرة وكبيرة في البيت، وكانت عونًا لها في كل شيء، لذا كانت الوالدة تحبها كثيرًا.

وشاء الله أن تأخذ شقيقتي إقبال دورها في الابتلاء والتمحيص، فقد اختار الوالد الأخ سعيد منسي ليكون زوجًا لها، وكان الأخ سعيد في ذلك الوقت يقضي عقوبة عشرة أعوام بدأها عام ١٩٥٤م أثناء محنة الإخوان المسلمين، وكان حين رشحه والدي على وشك الخروج من السجن؛ والحقيقة أن شقيقتي إقبال كانت قد اعترضت على هذا الاختيار، فقد عاشت حياة مصطبغة بالحرمان والشقاء والألم... حياة لم تكن تريدها أن تتكرر مع أولادها، فما زالت تذكر الحرمان من الوالد... والحصار الذي كانوا يفرضونه حول بيتنا ليمنعوا أي أحد من الاقتراب... وما زال كسر الأبواب تحت جنح الليل لترويعنا وإلقاء الرعب في قلوبنا ماثلاً في مخيّلتها...

وغير ذلك من الممارسات اللاإنسانية التي كانوا يتعاملون بها معنا، والتي لم تكن ترغب في أن تتكرر مع أبنائها، إلا أن الوالدة الحبيبة كانت تسدي لها النصح قائلة:

"إن الإخوان يا بنيتي بما هم عليه من حسن خلق وقوة إيمان من خيار الناس، فما عليك إلا الرضا والتسليم لله، وخاصة أن هذا اختيار والدك الذي يحبك، وثقي أنه لا يختار لك إلا الخير".

في البداية لم تكن إقبال على قناعة بهذا الأمر، وكان كلما تقدم لخطبتها أحد ممن لا يعلم بأمر خطبتها - وهم كثر - تحزن حزنًا شديدًا، ولكنها أخيرًا وبعد رؤيتها للأخ سعيد اقتنعت بما هو عليه من خير، وشرح الله صدرها لهذا الأمر، ووافقت على الزواج منه اطمئنانًا إلى خلقه ودينه، وثقةً في اختيار الوالد الحبيب لها، وتم عقد زواجهما وهو في السجن، وبعد أن قضى عشر سنوات في أقبية سجون عبد الناصر تم الإفراج عنه عام ١٩٦٥م.

ملأت الفرحة قلوبنا ... فرحة عقد الزواج وفرحة الإفراج عن الأخ الحبيب سعيد منسي، ولكن تلك الفرحة لم تدم طويلاً، فقد شاء الله أن يبتلي شقيقتي إقبال مرة أخرى عندما صدرت أوامر الطاغية باعتقال عشرات الألوف من الإخوان، وتم القبض على الأخ سعيد منسي مرة أخرى، ليعود الحزن ويملأ القلوب:

كلما صدحت في القلب صادحةٌ ... من الرضا جدد الأحزان ناعيها

وكلما ابتسمت أطياف فرحتها ... مدت إليها يد الآلام تبكيها

تألمت شقيقتي إقبال لحدوث الاعتقال الذي كانت تَحْذَرُهُ، وظلت في خوف وترقب أن تطول فترته، وللأسف هذا ما حدث، فقد طالت فترة الاعتقال، ودارت الدائرة على إقبال، وأصبحت تفعل ما كانت تفعله والدتي الحبيبة من قبل، فكانت تذهب لتزوره في السجن، وكنت غالبًا ما أرافقها في زيارتها للأخ الحبيب سعيد منسي.

الأخ سعيد منسي

وكان يعزّ على والدتي الحبيبة المحنة القاسية التي تتعرض لها شقيقتي إقبال، خاصة أنها كانت بعد كل زيارة تعود متألمة حزينة منكسرة، وتظل تبكي بكاءً مرًا، فكانت والدتي الحنون تحتضنها وتكفكف دمعها وتشد من أزرها، وتصبّرها وتواسيها، وتذكرها بظروفها هي شخصيًا، وكيف أنها كانت - وما زالت - صابرة محتسبة أجرها عند الله (سبحانه وتعالى)، وتبين لها أنه ما علينا إلا الرضا والتسليم لله رب العالمين، فالحياة قصيرة، أيامها معدودة، ودنيانا فانية ليس فيها ما يستحقّ أن نبكي عليه، وتذكرها بأن بعد هذه الدنيا هناك جنة قد أعدها الله للصابرين، فتسكن أختي وتصبر وتحتسب، وينفرج كربها، ويزول همها.

وبذلك كانت والدتي الحنون ظلاً لشقيقتي إقبال تستريح فيه، ونبعًا زلالاً ترتوي منه، فيجدد نشاطها، ويوقظ آمالها، ويرفع فيها من جديد روح التحدي لمواجهة ما ينزل بها من خطوب وما تلاقيه من كروب.

وكانت والدتي تقوم الليل تسأل الله (جل جلاله) أن يرفع عن شقيقتي إقبال البلايا والمحن، ويفك عنها الشدائد والكرب، وشاء الله أن يستجيب الله لدعائها الصادق، فقد خرج الأخ سعيد منسي من السجن عام ١٩٧١م، وفرحت الوالدة بخروجه،

وأحاطته بكل الحب والحنان والرعاية كواحد من أولادها، وتم زواج شقيقتي إقبال في ذات العام، وسافرت العروس لتقيم مع زوجها في القاهرة، فحزنت والدتي لفراق شقيقتي أشد الحزن، فكانت لا تكف عن السفر للقاهرة لزيارتها ومساعدتها وإسداء النصح لها، وظلت على ذلك حتى خرج الوالد من السجن في بداية عام ١٩٧٣م، وكان مريضًا بسبب ما عاناه من تعذيب تقشعر لهوله الأبدان، فأولته والدتي رعايتها، ولكنها لم تهمل شقيقتي "إقبال"، بل ظلت تحيطها بحبها وحنانها.

وبعد مسيرة حافلة بالعطاء، وحياة زاخرة بالصبر والتضحية، داهم المرض الوالدة، ورغم ذلك فقد آثرت أن تواصل عادتها في السفر إلى شقيقتي إقبال من وقت لآخر لتحيطها برعايتها، ولكن عندما اشتد بها المرض وأحاط بها من كل جانب ألجأها إلى القعود، ثم أخلدها إلى الفراش، ثم أعجزها عن الحركة؛ وكم عز على إقبال رؤية حبيبتها تتردى صحتها على هذه الصورة! وكم عزّ عليها بعد ذلك أن تغادر الوالدة الحبيبة الدنيا وتتركها، بعد أن كانت نعم الأم والصديقة والحبيبة التي تنصحها وترعاها وتسعى في قضاء حوائجها!

وعاشت إقبال تذكر حنان والدتها ومواقفها النبيلة معها وأخلاقها الفريدة، وتدعو الله أن يتغمدها بواسع رحمته ويسكنها فسيح جناته، وتتمنى عليه سبحانه أن يلحقها بوالدتها الحبيبة في جنات النعيم.

علاقتها بأشقائي

غَذّي صغارك بالعقيدة إنها زادٌ بـــه يـــتزود الأبـــرارُ
هُزّي لهم جذع البطولة ربما أَدْمَى وُجُوهَ الظالمين صِغارُ[1]

لقد أودع الله (ﷻ) قلب والدتي الحبيبة مشاعر الرحمة والرأفة، والحب والإحسان، فكانت الحصن والأمان بعد الله (ﷻ) في رعاية أسرتنا والقيام على شؤونها؛ لذا كان شقيقاي محمد الأمين وحسن الأمام يحبّانها حبًا مَلَكَ عليهما مشاعرهما وأحاسيسهما، فقد كانت لهما نعم الأم العطوفة الرحيمة الحازمة التي عاشت تبث في قلبيهما حب الله ورسوله، وتنمّي فيهما الوازع الديني، وتذكرهما بحق الله عليهما، وتسأل الله أن يملأ قلوبهما بنوره الذي لا يخبو، ويشرح صدورهما بفيض الإيمان به وجميل التوكل عليه؛ وكان أخواي يبادلانها حبًا بحب وحنانًا بحنان.

كان أخي محمد الأمين يكبرني بحوالي عامين، لذلك فقد كان يشاركني الكثير من مغامراتي "ومشاغباتي" في فترة الطفولة التي غالبًا ما كانت تنتهي بحدوث مشكلة تستدعي العقاب، فكانت والدتي الحبيبة غالبًا ما تعاقبنا حتى نهتدي ونرتدع ونرجع إلى طريق الصواب.

وكان أخي محمد الأمين لا يكف عن مداعبة والدتي وإظهار مشاعر الحب والبر تجاهها من خلال الشعر والزجل الذي كان يجيده، وكان مما كتبه لها:

أمـــي ليكـــي مـــني ســـلامي فـضلك يعجـز عنـه كلامـي
أنـت مـلاك الرحمـة يـا أمـي لمـا بـشوفك بنـسى آلامـي

(١) د. عبد الرحمن العشماوي.

أمي عمري ما بنسى حنانك　　أصل الرحمة جوا بنانك

رب ما يحرمني من عطفك　　ولا يحرمني شهد لسانك

مرت السنون، وحصل أخي محمد الأمين على الثانوية العامة عام ١٩٦٤م، فعرض على والدتي الذهاب إلى جدي عبد الفتاح باشا حسن (رحمه الله) ليساعده في الحصول على وظيفة على أمل أن يخفف عن والدتي بعض الأعباء؛ لكنها رفضت بشدة هذا الاقتراح، وأصرت عليه أن يكمل تعليمه، فلم تكن والدتي الحبيبة تتصور أبدًا أن يُحْرَم أحدنا من التعليم لضيق ذات اليد، فاضطر محمد الأمين أن ينزل على رغبتها، وظل يدرس حتى أتم تعليمه الجامعي، والحمد لله رب العالمين.

أما أخي حسن الإمام، فقد كان رمز الشهامة في الأسرة، خاصة في كل ما يتصل بوالدته (رحمها الله)، فقد كان يبادر إلى كل ما يسعدها ويشعرها بالبهجة والسرور، والأنس والحبور، وكان يسابق الجميع في خدمتها، حتى والدي نفسه، فوالدي — رغم قضائه زهرة شبابه في محنة السجن يعاني من ويلات التعذيب - كان رجلاً بشوشًا مرحًا خفيف الدم لا يكف عن مضاحكة والدتي وملاطفتها، ومضاحكة كل من حوله، لذلك كان هو وحسن الإمام يتنافسان في إدخال السرور على قلبها ومضاحكتها وتقديم كل ما يدخل السعادة على نفسها والسرور على قلبها، وتلبية طلباتها في أي وقت

من ليل أو نهار، لذلك كانت والدتي الحبيبة تهفو نفسها إلى وجود حسن الإمام دائمًا قريبًا منها، فإذا غاب عنها انتظرت عودته بحنان وشوق بالغين.

وكان أخي حسن الإمام وهو صغير يصحب والدتي الحبيبة أحيانًا لزيارة والدي أثناء محنة السجن؛ ويروي لي حسن عن إحدى هذه المرات التي صاحب فيها والدتي الحبيبة، فيقول: "كنت في الرابعة عشرة من العمر يوم صحبتها إلى السجن لنرسل ملابس لزوج أختي الأخ أبو اليزيد الملاح، فسألنا الضابط موجهًا كلامه لوالدتي: "أنا مستغرب... مش عارف إنتوا عايشين منين".

فأجابته والدتي الحبيبة بعفوية وثبات: "لو كنت تعرف الله ما سألت هذا السؤال"، فتغير وجه الرجل وعقد الله لسانه، فلم يعرف بماذا يجيبها، فما كان منه إلا أن أخذ منا الملابس وانصرف بسرعة من أمامنا؛ فسعدنا وحمدنا الله كثيرًا؛ لأن أمي الحبيبة كانت قد أخفت خمسة جنيهات في ثنايا الملابس لتصل لزوج أختي في السجن، وقالت: "الحمد لله الذي أعمى بصيرته؛ وعُدْنَا معًا ونحن سعداء بفضل الله (ﷻ) علينا وكرمه معنا".

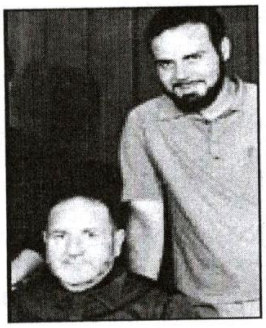

حسن الإمام مع الوالد بعد الإفراج عنه

ومن دلائل حنانها أن حسن الإمام أصيب بمرض التيفود وهو صغير، وغاب عن الوعي قرابة الأسبوع، ولما أفاق وجدها بجانبه تبكي وتدعو الله له بالشفاء، ولخوفه

عليها قال لها: "أنا بقيت كويس"؛ وليؤكد شفاءه طلب الاستحمام، فعاوده المرض بشدة، وظلت والدتي الحبيبة بجانبه ترعاه وتحنو عليه وتدعو له إلى أن استجاب الله دعاءها وكتب له الشفاء.

وأثناء مرضها، كان حسن الإمام يحنو عليها حنوًا بالغًا، فيحملها إذا تعذر صعودها ونزولها، ولو كان الأمر بيده ما تركها تخطو خطوة على الأرض، يفعل ذلك عن طيب خاطر، وبعاطفة وحب بالغين؛ لذلك كان لسان والدتي الحبيبة لا يفتر عن الدعاء له ليلاً ولا نهارًا.

وإلى جانب هذا الحنان الدافق الذي لا مثيل له، والذي كانت الوالدة تغدقه عليهما... كانت بالنسبة لهما المربية الواعية، والموجهة الحازمة التي تتسم بشدةٍ مع لين، وحزمٍ مع رأفة لتكون قادرة على قيادة المركب وتوجيهه للسير وفق ما يرضي الله (ﷻ)، فكانت لا تترك شاردة أو واردة ترى فيه ضرورة النصح والتوجيه إلا فعلت دون تردد.

وهكذا كانت والدتي الحبيبة ذات شعور بالمسؤولية لا يداخله مجاملة، وإرادة قوية لا يتطرق إليها ضعف، وحزم لا يعتريه لين، وما كانت لتجامل أحدًا أو تربت على ظهره أو تسكت عن خطأ يأتي به، أو زلل يقع فيه ترى أن مسؤوليتها أمام الله (ﷻ) تقتضي النصح والتوجيه، بل كانت تنصح وتوجه وتجابه بالخطأ، فقد كان عندها إصرار وعزم أن ترانا جميعًا نتنكّب سبيل الغي ونتبع سبيل الرشد.

وكان أخواي محمد الأمين وحسن الإمام بفضل من الله ونعمة يستجيبان لنصحها ويتقبلان توجيهها ويطيعان أمرها، فما كان لأحد أن يخالفها أو يعصيها وهو يرى كم من التضحيات قدمت هذه الأم الصابرة الكريمة التي أفنت حياتها في خدمتنا ليل نهار، في محاولة منها لتعويض غياب الوالد مهما كلفها ذلك من عناء ومشقة؛ ابتغاء مرضات الله (ﷻ)، ورغبة في إدخال السعادة والسرور على قلوبنا.

وهكذا ظلت الوالدة (رحمها الله) طوال حياتها تنصح هذا وتوجه ذاك دون كلل أو ملل، ودون تهاون أو تفريط حتى أقعدها المرض عن مواصلة السعي، وصبرت والدتي الحبيبة على مرضها صبرًا جميلاً حتى فاضت روحها إلى بارئها وهي راضية عنا، داعية لنا بخيري الدنيا والآخرة.

علاقتها بالابن الأصغر محمد خالد (رحمه الله)

الموت يحمل كل يومٍ صاحبًا ... ويرى ما لا يراه الناس من دنيانا
هو لا يفرق بين شيخ أو فتًى ... أبدًا ولا يتخيّر الألوانا[1]

أما علاقة الوالدة بمحمد خالد - الابن الأصغر - فكانت علاقة من نوع فريد لم نرَ مثله أبدًا، فقد كان أحب الأبناء إليها ... أحبته حبًا ملك عليها أقطار نفسها، وخصّته بعناية وعطف بالغين؛ فخالد عندما تركه والدي كان طفلاً صغيرًا لا يتجاوز عمره عامًا واحدًا؛ فعاش الحرمان من عطف الأب الحاني الذي غيّب عنه قسرًا في سجون الظالمين، ولد أخي محمد خالد في ١٩٥٣/١٠/١م، بينما والدي كان قد ترك البيت في ١٩٥٤/١٠/١م، وسُجِنَ في ١٩٥٥/٨/٥م.

لم يكن محمد خالد يدرك ببراءة الطفولة سبب غياب والده عنه، فكان يلحّ في السؤال عنه ... وظل والده طيفًا جميلاً يداعب خيالاته ويهفو إليه في أحلامه، ويتمنى وجوده معه يلاعبه، وينام بجانبه، ويخرج معه، ويرتمي في أحضانه، كما يرى أقرانه يفعلون مع آبائهم، ولكنها كانت أمانيّ لم تتحقق، وآمالاً هي أقرب للأوهام، فهذا الأب لم يكن أبدًا حقيقة قريبة منه يلمسها بيديه، لذلك لاذ بأحضان أمه الحنون التي حاولت جهدها تعويض بُعد والده عنه، فكانت تفيض عليه الحنان ... وتحيطه بالحب ... وتسهر ليلها لينام، وتسعى نهارها ليسعد، وتسكن بسكونه، وتحزن لمرضه، وتسعد بعافيته، وتغتمّ لشكاته، وتفرح لفرحه.

وهكذا نما محمد خالد على صدرها، ودرج في أحضانها، وعاش الابن المقرب منها، تلاعبه فتغمرها البهجة، وتحادثه فيغشاها السرور؛ تسعد ببراءة طفولته، وتهنأ

---

(١) د. عبد الرحمن العشماوي.

بصفاء فطرته اللتين كانتا تبدوان في وهج عينيه وتمتمة لسانه؛ وكانت كلماته البريئة تخفف أحزانها، وضحكاته الحلوة تكفكف دمعها، ومشيته المتعثرة تُفْرِحُ قلبها، وحركاته اللطيفة تخفف رتابة الحياة وتدخل على البيت كله الفرح والسرور، والسعادة والحبور.

لقد كان محمد خالد حقًا طفلاً مميّزًا، يملأ العين، ويبهج النفس، ويشرح الفؤاد، ويسر الخاطر؛ لذا كانت والدتي الحبيبة تشتاق نفسها إليه وهو بجانبها، فإذا غاب فالكل مسخّر للبحث عنه، وإذا عاد استراح قلبها، وهدأت نفسها، وعايشت السكينة فؤادها، وملأت الطمأنينة قلبها، وكأنها كانت تستشعر دنوّ أجله ورحيله عن الدنيا قبل رحيلها.

وفي أحد الأيام، حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد شاء الله لوالدتي الحبيبة أن تتعرض لابتلاء كان وقعه شديدًا عليها بل علينا جميعًا، أصبحنا يومًا فلم نجد أخي "محمد خالد" في البيت! وعبثًا حاولنا أن نبحث عنه في كل مكان نتوقع أن يكون قد ذهب إليه عند أقاربنا أو أصدقائنا أو جيراننا، ولكن دون جدوى... فلم نجد له أثرًا في أي مكان، وكأن الأرض قد انشقت وابتلعته... وكم شقّ علينا الأمر! وكم مزّقتنا الحيرة حتى شعرنا أن عقولنا تكاد تذهب!!

طال بحثنا وانتظارنا لأي خبر عنه في يوم طويل طويل... تباطأت ساعاته وزحفت دقائقه وتلكّأت ثوانيه، كنت خلاله أرقب الوالدة الحبيبة... فأنا أعلم مدى شدة هذا الأمر وقسوته عليها، فكنت أراها تارة تبكي... وتارة تلوذ بالصمت... وتارة تسرح بخيالها، فلا أعلم إلى أين يمكن أن يكون قد جنح بها الخيال... وفي النهاية لم تجد لها سبيلاً إلا أن تلوذ بالدعاء، وتستعين بالصلاة، وتعتصم بمولاها، وتتشبّث بأمل ورجاء في الله (جل جلاله) أن يعيد إليها نبض قلبها ونور عينيها سالمًا معافى في بدنه، فثبّتها الله وربط على قلبها برباط الصبر.

هذا كان شأننا، أما خالد الذي كان يبلغ من العمر حينها ثلاث سنوات، فقد كان له شأن آخر! لقد علمنا فيما بعد أن خادمة جيراننا في العمارة أخذته وهربت به إلى بلدتها "نجريك"، وتبعد هذه البلدة عن بسيون عدة كيلومترات، حيث ألقت به عند أطراف قريتها... وأجلسته وحيدًا وسط المزارع بغير طعام ولا شراب ولا سند وسط مخاوف لا حدود لها لطفل ضعيف لا يمتلك من أمره شيئًا، وزعمت له أنها ذاهبة لشراء الجريدة وستعود لتأخذه، وظل محمد خالد جالسًا في مكانه لا يبرحه من الصباح حتى الغروب منتظرًا عودة الخادمة إليه.

شاهد أحد الفلاحين أخي وهو يجلس طوال النهار لا يحرك ساكنًا، ولم تطاوعه نفسه أن يذهب إلى داره وقت الغروب ويتركه... خاصة أن الليل كان قد بدأ يرخي سدوله، فتوجه نحوه وسأله: "اسمك إيه يا شاطر؟ فأجابه: خالد. فسأله: "أنت منين يا خالد؟". قال: "أنا من بسيون". قال: "طب إنت جالس هنا ليه؟ فأجاب محمد خالد ببراءة الطفولة: "البنت راحت تشتري الجريدة ولسه مجتش تاخدني".

لقد جلس المسكين كل هذا الوقت متصوّرًا أن الخادمة ستعود إليه بعد شراء الجريدة لتصحبه وتعود به إلى داره!!

أشفق الرجل على خالد أن يتركه وسط الظلام في المزارع، فأخذه وذهب به إلى أمه في داره، وألقى الله الرحمة في قلب المرأة الطيبة، فأخذته بدورها وذهبت به إلى العمدة لعله يتمكن من إعادته إلى أحضان أمه.

أخذ العمدة يحاور أخي فقال له: "اسمك إيه ياحبيبي". قال: "اسمي خالد". فقال: "فين أبوك؟" قال: "بابا في المحبس في مصر"، يقصد السجن؛ وأخذ العمدة يحاوره حتى ذكر خالد قي ثنايا الحوار اسم زوج أختي الأخ "أبو اليزيد الملاح" الذي كان تاجرًا معروفًا في بسيون والقرى المحيطة، كما سبق وأشرت، وكان ذلك هو الخيط الذي من خلاله تم التعرف عليه.

تم الاتصال بقسم الشرطة التابع لهذه القرية الذي اتصل بدوره بقسم الشرطة في بسيون وأخبرونا بالعثور عليه، وتم فورًا إرسال سيارة أتت به إلى بسيون حيث استقبلته والدتي بالسجود لله (سبحانه وتعالى)، وكان لسانها يلهج بالشكر والحمد والثناء على الله أن أعاد إليها ولدها سليمًا معافى، لم يمسسه سوء، وضمّته إلى صدرها بحنان ولهفة بالغين وهي تبكي ونحن جميعًا نبكي حولها، ولكنها والحمد لله كانت دموع الفرح أن أعاد الله إلى البيت بسمته وفرحته وبهجته، واحتسبت والدتي الحبيبة الخوف والقلق الذين عايشا قلبها منذ الصباح عند الله (عزوجل).

مرت الأيام والأسابيع وكرت الشهور والسنين وكبر محمد خالد، وزاد الله وجهه وضاءة... وطلعته بهاءً... وروحه عذوبة... كان إذا تكلم أخذ بمجامع القلوب... فقد جُعِلَ له ودّ في قلب من رآه بسبب ما حباه الله (جل جلاله) من جميل الصفات وحميد الخصال... كان يمتلك شهامة ونخوة، وعقلاً ورزانة، واعتزازًا بالنفس لا مثيل له، فزاد تعلق أمي به، خاصة أنه كان حنونًا عليها... بارًا بها... إذا راح لاطفها... وإذا غدا ضاحكها... وإذا جالسها ملأ قلبها سعادة وسرورًا.

وفي المدرسة كان محمد خالد مضرب المثل في التفوق والنبوغ ودماثة الخلق؛ ما جعله موضع تقدير وحب المدرسة بكل من فيها من أساتذة وطلاب؛ لذلك كله كان أخي مثار حديث الناس، حتى إن بعض المحبين كانوا ينصحوننا ألا نتركه يخرج كثيرًا فالعين حق، ولكن محمد خالد كان قد تعدّى مرحلة الطفولة فأنى لوالدتي الحبيبة أن تمنع شابًا يمتلئ نشاطًا وحيوية من الخروج.

وكان يزور والدي معنا في السجن، فإذا حالت ظروف الدراسة أو غيرها دون ذلك، فكان يكتب لوالدي كلمات تطمئنه وتسعد قلبه، كذلك كان يكتب للأخ سعيد منسي والأخ أبو اليزيد الملاح مطمئنًا الأخير على أبنائه، فقد كان شديد الحنان على أبناء شقيقتي إحسان، وكان يعز عليه حرمانهم من والدهم، وخاصة أنه ذاق طعم الحرمان المرير من الأب.

ولما بلغ أخي الخامسة عشرة من عمره شاء الله الذي لا راد لمشيئته أن تُبْتَلى فيه أمي الحبيبة مرة أخرى، فبعد مرور عشر سنوات على الحادث الأول "حادث الخطف"، أصيب أخي محمد خالد بمرض التهاب الكبد الوبائي الذي لم يمهله غير أيام قليلة، ثم توفاه الله وهو في زهرة شبابه.

كنا في شهر رمضان، وطلبت منه أمي أن يفطر... فأبى الإفطار وظل صائمًا، ثم ما لبث أن دخل في غيبوبة سريعة توفاه الله (عَزَّوَجَلَّ) بعدها، ففقدناه مرة أخرى لا ليوم واحد ولكن للأبد... ورحل محمد خالد عن دنيانا التي كان يملؤها بهجة وحبورًا، لينتقل إلى أكرم جوار في شهر ديسمبر عام ألف وتسع مئة وثمانية وستين للميلاد، الموافق ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان لعام ألف وثلاث مئة وثمانية وثمانين من الهجرة. وأصبح محمد خالد الذي كان ملء السمع والبصر... ذكرى على الدرب، نحتت مكانتها الجميلة في القلوب، ذكرى لم - ولن تُنْسَى - مع الزمن، ذكرى يتضوّع أريجها كلما ذكرته القلوب أو تحدثت به الألسن؛ فقد كانت سجاياه الجميلة وخصاله الحميدة لا تدع لنسيانه سبيلاً إلى القلوب والعقول.

ودّع أخي الدنيا ووالده غائب عنه، محروم من وداعه، محروم من مواساة أمه الثكلى، محروم من إلقاء النظرة الأخيرة عليه، كما حرم من قبل من إحاطته بحبه وحنانه، وضمه إلى صدره طفلاً بريئًا، وصبيًا يافعًا، وشابًا فتيًا، فمنذ أن أُدْخِلَ الوالد العزيز السجن زورًا وبهتانًا ما حاز من محمد خالد إلا على نظرة بريئة عبر الحواجز والأسلاك المقامة بين السجين وأهله، وربما بسمة كانت تفيض على قلبه بردًا وسلامًا، وتظل ماثلة أمام عينيه حتى إذا أغمض عينيه في ليله، كانت هذه البسمة تهون عليه ظلم الظالمين وبطش الباطشين وقهر السجون، أما فيما عدا النظرة والبسمة، فليس من حقه أن يضمه إلى صدره ولا أن يداعبه أو يلمسه إلا عندما تكون هناك زيارة خاصة مرة كل ستة أشهر؛ وصدق الله العظيم:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٥).

في ذلك الوقت كان البلاء قد اجتمع على الوالدة بوجود ثلاثة من أحبابها في السجن: الوالد الحبيب أحمد البس، وزوج ابنتها الكبرى إحسان: الأخ أبو اليزيد الملاح، وزوج ابنتها الثانية إقبال: الأخ سعيد منسي، وتمت الفجيعة بوفاة فلذة كبدها محمد خالد، ولدها الحبيب القريب من قلبها وقلوبنا جميعًا.

حدثت الوفاة قبيل موعد صلاة العصر بدقائق معدودات، فاهتزّت النفوس لهذه الفجيعة، وفاضت الدموع، وعلا النشيج، وتصاعدت الزفرات، وغلف الحزن وجوهنا، وملأ الأسى قلوبنا، وكست اللوعة قسماتنا، فقد كان أخي الحبيب محمد خالد قرة عيوننا وفرحة قلوبنا وبهجة البيت وسعادته.

تروي لي شقيقتي الكبرى إحسان لحظات الوفاة الأخيرة، فتقول: "كان محمد خالد قبيل وفاته في حجرة النوم ومعه أمي وطبيبان، وعندما فاضت روح محمد خالد خرجت أمي من الحجرة مسرعة، وهي ترفع يديها على السماء وتقول:

"يا ربي لك الحمد ... يا ربي لك الحمد ... يا ربي لك الحمد".

كنت حينها واقفة خارج الحجرة، ونظرت إلى وجه أمي فوجدته كأنه خلا من كل قطرة دم فيه!! فتوجست خيفة وسألتها: "هو خالد مات يا ماما؟ هو خالد مات؟ فعادت تردد: "يا ربي لك الحمد ... ياربي لك الحمد".

فَطَرَتْ وفاة محمد خالد الفجائية كبد أمي، ولكنها واجهت الخطب العظيم بالرضا والتسليم والصبر، وما إن ارتفع صوت المؤذن معلنًا صلاة العصر حتى تحرك دافع الإيمان في قلبها، فلملمت جراحها، وطوت أحزانها، وتماسكت؛ حتى لا تدع الوفاة الفجائية لقرّة عينها وحبيب قلبها تشغلها أو تُؤَخِّرها عن الصلاة... لم تتوانَ

لحظة واحدة عن المبادرة إلى تلبية نداء ربها، وقامت إلى الوضوء لتتوضأ وتقف بين يدي ربها لتعلن رضاها الكامل عن الله رب العالمين واستسلامها له (جل جلاله).

أثناء الوضوء حضرت إليها إحدى القريبات ونظرت إليها بتعجب وعلى وجهها ألف علامة استفهام، ولسان حالها يقول: "لقد جُنَّتْ هذه المرأة حتى تقوم للصلاة وابنها ما زال على فراش الموت؟!!"، وبعد برهة وجيزة ساءلت المرأة والدتي بدهشة: "ماذا أنت فاعلة يا أم أمين؟"، وكانت تلك هي كنية أمي.

أجابت أمي بهدوء واطمئنان: "أتوضأ لصلاة العصر".

فاتسعت حدقتا عيني المرأة، وتساءلت بدهشة وتعجب:

"تتوضئين لصلاة العصر... وابنك ما زال على فراش الموت لم يدفن بعد؟!

فردت عليها والدتي الصابرة رد المؤمنة الواثقة المطمئنة إلى جنب الله المستسلمة لأمره سبحانه: "وهل أضيِّع فرض ربي لوفاة ابني"؟!

لم يَرُقْ هذا الرد لقريبتي، فمضت وهي تحادث نفسها قائلة: "لعل هذه المرأة قد ذهب عقلها بذهاب زوجها عنها طوال هذه السنين"!!

لقد كانت الجارات والقريبات يعلمن مكانة محمد خالد عند والدتي، فتوقعن أن يجدْنها ذاهلة النفس، تائهة الخطو، شاردة اللبّ، فلما وجدنها هادئة... متماسكة... بل وتبادر إلى الصلاة كعهدها عند سماع الأذان، اعتقدن ذهاب عقلها، فسبحان الله العظيم! كأنّ تأدية الصلاة على وقتها وقت المحنة في نظر هذه المرأة وأمثالها ذهاب للعقل، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

تم تغسيل أخي محمد خالد في شقة شقيقتي إحسان، ودُفن عند صلاة المغرب... دفن الحبيب الذي تقلّب في أعطاف الحنان والحدب، ودرج في أكناف الحفاوة والحب... دفن الذي كان يبذل البرّ لأمه في كل وقت، ويلتمس رضاها كل حين...

دفن الذي كان شابًا قويًا فتيًا يملأ الدنيا غدوًا ورواحًا... وبهجة وسعادة... ومرحًا ونشاطًا... دفن... وأهيل عليه التراب!!

كم كان المصاب جللاً... وكم كانت الرزيّة كبرى، ولكن والدتي الصابرة استودعت ولدها الحبيب مولاها، ولم تقل إلا ما يرضي ربها، وجلست ووجهها تعلوه أمارات الاحتساب وعلامات الرضا، وقسمات السكينة، فقد أمدّها الله بالصبر والثبات والقوة فمنحتنا بثباتها الصبر والثبات، وأيقنت حينها أن الله ينزل على النفس الصبر مع المصيبة وعلى القلب السكينة مع البلاء؛ وكان عزاؤها أنه في جوار رب رحيم؛ وجرت مدامع والدتي الصابرة حزنًا على فراق ريحانة فؤادها وقرة عينها:

أبكي وليس من البكا بدٌّ ... كان حبيبي على القلوب جليلا

أبكي على فتى كان الجميع يعدهُ ... رجلاً وإن كان الرجالُ قليلا

صعب أن أرى من ملأ الدنا فرحًا ... أمسى على الأعناق محمولا

صعب عليَّ أن يباعد بيننا ... هذا التراب فلا أراه طويلا[1]

كان هذا حال أمي الصابرة، أما بقية النساء - هداهن الله - فقد اجتمعن في شقتنا بعد دفن أخي وأخذن يُعَدّدْن رحيله المفاجئ وشبابه الذي لم يهنأ به، ولاحظت أمي خروج بعضهن عما يرضي الله، فكان لابد من وقفة إيمانية وغضبة لله (جل جلاله).

استَعْلَت والدتي الثكلى على النيران المؤجّجة في قلبها... وتعالت على جراحها ونَحّت الحزن والألم ولوعة الفراق لأعز الأبناء جانبًا، ووقفت تذكر الناس بالله، وتمنعهن بحزم أن يفعلن ما يغضب الله (سبحانه وتعالى)، وتنهاهن عن أفعال الجاهلية، وتكشف لكل ذي عينين الحق من الباطل والمعروف من المنكر، فما كان لبيت من بيوت الدعوة أن ينطوي على السخط وعدم الرضا بقضاء الله وقدره، وليرضَ من يرضى

---

(١) انظر شعر يوسف القرضاوي.

وليغضب من يغضب، فلم يكن يهمها رضيَ الناس أم سخطوا، فإن مرضاة الله (عَزَّوَجَلَّ) هيَ الغاية والمبتغى، وقالت بإيمان راسخ ويقين واثق في الله:

"من كانت تريد أن تفعل ما يغضب الله فلتفعل ما تشاء في بيتها؛ لأننا لا نقبل ذلك في بيتنا مطلقًا".

نظر الجميع إليها غير مصدق.... وكانت نظرات البعض توحي بالإعجاب بهذه الأم المؤمنة الصابرة... والبعض الآخر ظن جمود مشاعرها... واعتقد البعض ذهاب عقلها بذهاب فلذة كبدها؛ والحق أن والدتي الحبيبة كانت تتحرى الصواب في كل ما تفعل وتقول، وتضع نصب عينيها مرضاة الله وموافقة تصرفاتها لما يحبه سبحانه، ولكن بعض النساء لم يستوعبن دعوة أمي لهن بتقوى الله، فقالت إحداهن:

"ماذا تريد هذه المرأة؟! هل تريد أن يذهب ابنها الشاب "فطيس"؟!!

وبادرت أخرى ناصحةً أمي، وبئست النصيحة كانت:

"يا أم أمين، إذا كنت غير قادرة على التعبير عن حزنك لفقد هذا العريس - تقصد شقيقي المتوفى - فلتتيبي عنك من يقوم بذلك".

تقصد جلب النائحات للندب واللطم والقيام بأفعال الجاهلية، والعياذ بالله؛ فلامتها والدتي الصابرة المتعالية على حزنها قائلة:

"إنه ابني... ولن يكون هناك على وجه الأرض من هو أشد حزنًا عليه ولا أكثر ألمًا ولوعةً لفراقه مني، فالله (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) هو الذي خلقه ووهبه الحياة، وهو الذي أماته واسترد وديعته، ولن أقول أو أفعل إلا ما يرضي ربي".

هكذا كان البلاء العظيم، وهكذا كان الناس، وهكذا كانت والدتي المرأة الصابرة المحتسبة الراضية بقضاء الله وقدره في مواجهة مصيبة الموت، موت أعز الناس وأقربهم إلى قلبها، وأني أشهد الله (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) أني لم أسمعها تتفوه بكلمة تغضب الله (عَزَّوَجَلَّ) مطلقًا أو تأتي بفعل ينافي الرضا والإيمان بقضاء الله وقدره.

إنه الإيمان واليقين والصبر والاحتساب وتعلق القلب بالله والاسترجاع والتسليم بالقضاء الذي يكون للقلوب بردًا وسلامًا... وفرجًا واطمئنانًا... وبه تخفّ المصيبة... وتهون الفاجعة؛ لقد كان لوالدتي أسوة حسنة في سيد الخلق (ﷺ)، الذي صبر واحتسب وقال عند موت ولده إبراهيم: "إن القلب ليحزن، وإن العين لتدمع، وإنا لفراقك لمحزونون، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا: إنا لله وإنا إليه راجعون".

نعم، إنها الجنة ونعيمها ترنو إليها النفوس الصابرة الراضية بقضاء الله وقدره... ترنو إلى دورها وقصورها ورياحينها وأنهارها وزبرجدها وياقوتها ومرجانها وتِبْرِهَا وذهبها ولؤلؤها... تشتاق تلك النفوس إلى صحبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وتتشد النعيم المقيم... لذا فهذه النفوس تقهر الشيطان إرضاءً للرحمن وطلبًا للرضوان.

لقد ضربت والدتي الحبيبة أروع الأمثلة في الصبر الجميل على موت أخي الحبيب محمد خالد، وكانت مَعِينًا لا ينضب من الصبر أمدّنا جميعًا بالصبر والثبات، ووقفت وقفات إيمانية سجلها لها التاريخ في صفحات من نور؛ فاللهم ارحمها واجعل أخي خالدًا فرحًا وذخرًا لها وشفيعا مجابًا، وألْحِقْهُ اللهم ووالدتي بصالح المؤمنين، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

علاقتها بي

كانت علاقتي بأمي الحبيبة علاقة مميزة حقًا؛ فقد كانت أحب الناس وأعزهم وأغلاهم إلى قلبي... كانت الأم والأب والأخت والصديقة... كانت القلب الكبير الذي أجد عنده الرعاية والعطف والود؛ والفيء الحنون الذي ألجأ إليه عند الضيق، والظل الوارف الذي أستظل بظله عند الشدائد... كانت حياة تشع على حياتي، وروحًا تتدفق في روحي، وضياءً يسري في نفسي، وقمرًا ينير حياتي، وبلسمًا يمسح همّي فتستشعر جوانح نفسي الراحة... يرتاح قلبي إذا جالستها، وينشرح صدري إذا نظرت إلى وجهها الطيّب، وأتحرّق شوقًا إليها إذا فارقتها؛ وتمتلئ نفسي حبًا لها حين أرى تفانيها من أجل راحتنا، وتضحياتها من أجل رعايتنا؛ فقد جنّدت صحتها ومالها وكل حياتها من أجل القيام على أمورنا، فلم تخذلنا يومًا أو تقصّر في حقنا رغم ضعف الإمكانات، بل رعتنا في غياب الوالد خير رعاية تنشئةً وتهذيبًا وتأديبًا.

كان ترتيبي الرابع في الأبناء، فقبلي بنتان وولد، وكنت أكثر إخوتي إثارة للمتاعب في طفولتي... مما كان يسبب لوالدتي قلقًا مستمرًا، فكانت تسعى لتقويمي تارة بالصبر وتارة بالنصح وتارة بالترغيب وتارة بالعقاب أيها أجدى!! وكلما عانت من متاعبي كانت تمازحني قائلة: "ألم يكفِ أنك كنت سببًا في إفطاري شهر رمضان كاملاً؟" فأجيبها: "وهل ذنبي أني ولدت في رمضان؟!

فقد ولدت في الرابع من رمضان عام ألف وثلاث مئة وستة وستين من الهجرة؛ الموافق الثاني والعشرين من شهر يوليو عام ألف وتسع مئة وسبعة وأربعين.

وعندما كانت أمي ترى أني لا أتوقف عن المشاغبة كانت تقول لي باسمة:

"لو أرضعتك من بداية ولادتك ما فعلت ذلك، ولكن هذا من لبن الشاة الذي رضعته"!

ولهذا الموضوع قصة لا بأس من روايتها، فقد مرضت والدتي مرضًا شديدًا مُنِعَت على

أثره من إرضاعي، وكان والدي في ذلك الوقت مديراً لمدرسة في بسيون تعمل بها أخت فاضلة دأبت على عيادة والدتي، وأمام عدم إمكانية الرضاعة الطبيعية بسبب مرض والدتي الشديد، عرضت هذه الأخت - جزاها الله خيراً - أن تأخذني إلى بيتها لتتولى رعايتي حتى تسترد الوالدة عافيتها ويتم شفاؤها بإذن الله؛ اضطرت أمي إلى الموافقة تحت ضغط الموقف، فحملتني هذه الأخت معها، وقامت بشراء شاة للانتفاع بلبنها في إرضاعي حتى شفيت والدتي بحمد الله، فأعادتني إليها بعد قرابة شهر؛ لذلك كانت الوالدة كلما لاحظت زيادة معدل نشاطي تذكرني بتلك القصة!

وأذكر أني تصرفت في إحدى المرات تصرفًا طفوليًا بريئًا، حيث غلفت نواة تمرة بغلاف جميل وأهديتها لجارتنا مداعبًا لها؛ فظنت الجارة أنها حلوى، وأخذتها مني وفتحتها، ولما جدتها نواة تمرة صدمت، وبدلاً من أن تضحك وتتقبل مداعبتي لها... ثارت وغضبت وأغلظت لي القول وانتَهزَت الفرصة - غفر الله لها - لتؤذي مشاعرنا جميعًا بكلام جارح مؤلم طالت به الوالد الحبيب؛ فعيّرتنا بسجن والدي بكلام مؤذٍ وساخر.

وفي الحديث الشريف: "**لا تظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك**"[1].

ترفعت والدتي كعادتها عن الرد لكرم خلقها وعفة لسانها، فقد كانت (رحمها الله) عاقلة تزن كل كلمة قبل أن تنطق بها؛ ولكن بعد أن تولت المرأة لم تستطع والدتي الحبيبة أن تتمالك نفسها... فانهمرت دموعها مدرارة ألمًا على ما أسمعتنا إياه من عبارات جارحة، وحزنًا على ما قيل في حق والدي الحبيب الذي طالته بالإيذاء والتجريح؛ وأمام هذا الموقف الذي كنت سببًا فيه، كان يجب أن أنال جزاء ما قدمت يداي؛ فلم يكن من الممكن أن يمر هذا الموقف دون عقاب صارم؛ وعندما تأكد إحساسي بالخطر، وأيقنت أني معاقب لا محالة هربت كعادتي إلى حيث

---

(١) رواه الترمذي.

أشعر بالأمان - فوق دولاب الملابس - فرغم ارتفاع الدولاب الكبير فقد كنت أستطيع القفز صعوداً ونزولاً بخفة متناهية... وظلت الوالدة تبحث عني هنا وهناك حتى عثرت عليّ فوق الدولاب، فأنزلتني بعد أن استعانت بكرسيّ، وعوقبت على فعلتي حتى لا أعود لمثلها أبدًا.

كرت السنون، وبلغت مبلغ الرجال، وتخطّيت أمور الشغب هذه، ولكن والدتي الحبيبة لم تكن لتنسى.... بل كانت تتذكر شدتها عليّ في بعض المواقف؛ فتشعر بالحزن والأسى، وقد تبكي وهي تضمني إلى صدرها في حنوٍّ بالغ، طالبة أن أغفر لها هذه الشدة التي كانت تضطر إليها أحيانًا؛ فكنت أهوّن عليها الأمر، وأوضح لها أنني مدرك أنها كانت تقوّم اعوجاجنا؛ ومن أعماق قلبي أظهر تسامحًا وودًا وحبًا منقطع النظير، غفر الله لها وجزاها عنا خيرًا.

وبعيدًا عن أمور المشاغبة، كانت والدتي الحبيبة تسعى في فترة طفولتنا إلى تلمّس ما نتميّز بها من مواهب وما نتمتع به من طاقات، فقد لاحَظَتْ حبي الشديد للرسم، فشجعتني على تنمية هذه الحاسّة، وساعدتني كثيرًا بما حباها الله من حاسة فنية رائعة، إذ كانت تجيد الرسم كما كانت تجيد صنع المجسمات، وأذكر أنها ساعدتني في عمل مجسم لمسجد وآخر لبيت ريفي وراعي غنم، ومن فرط جمالهما تم وضعهما في معرض المدرسة ونالا إعجاب الجميع... أساتذةً وطلابًا.

وكانت تهتم بصفة خاصة بالأعمال الفنية المرتبطة بالدين، ولذلك ساعدتني في إبداع عمل فني جميل أصور فيه كبش الفداء لنبي الله إسماعيل (عليه السلام)، مع محاولتها إبراز المعاني الجميلة في هذا الأمر المتمثلة في طاعة نبي الله إسماعيل لوالده خليل الرحمن إبراهيم (عليهما السلام)؛ وأحيانًا كنت أحاول تمثيل هذا الدور بطريقتي المميزة التي كانت تنال إعجابها ورضاها، فكانت كثيرًا ما تطلب مني تمثيل هذا الدور، فزاد حبي لذلك كثيرًا؛ واستطاعت بذكائها أن تغرس فينا هذه المعاني النبيلة

المتمثلة في بر الوالدين والحنان عليهما، كما استطاعت أن تعلمنا كيف نربط بين الدين وما نتعلمه بأسلوبها الخاص، هكذا كانت تنمّي فينا النزعة الدينية، وتطور ما نتميز به من جوانب إيجابية بما حباها الله من فهم وإدراك وحكمة.

إلى جانب ذلك، فقد كانت تُحمِّلُني دون غيري من إخوتي جانبًا كبيرًا من المسؤولية؛ لثقتها الكبيرة في قدرتي على حسن التصرف ولله الحمد؛ فقد كانت تكلّفني مثلاً بشراء ما يحتاجه البيت من الخارج، وهي تعلم تمامًا أني سوف أبذل قصارى جهدي لأداء هذه المهمة على أحسن ما يمكن وعلى أفضل ما يرضيها، لذلك لم تنتقدني مرة ولو أخطأت، بل كانت تقول مثلاً مشجعةً:

"ما شاء الله، لقد أصبح عبد الحميد رجلاً يفعل بفضل الله ما يعجز عنه الآخرون!!". وقد كان هذا التشجيع عاملاً قويًا من عوامل زرع الثقة في نفسي، وكان يجعلني أحاول أن أثبت لها أني فعلاً ذلك الرجل الذي تثق فيه وتعتمد عليه.

وفي المرحلة الابتدائية، كنت بعد عودتي من المدرسة لا أخلع ملابسي ولا أتناول طعام الغذاء حتى أنتهي من أداء واجباتي المدرسية، وخلال ذلك كانت والدتي الحبيبة ترمقني بنظرات حنون، وكلما حققت نجاحًا كانت تثني عليّ ثناءً مشجعًا، وكان ذلك دافعًا لي لبذل مزيد من الجهد لإحراز مزيد من التفوق لأرضيها وأرفع رأسها وأجعلها تشعر بالسعادة والفخر.

ولأني كنت أحبها كثيرًا وأحمل لها كل الودّ في قلبي، فقد كنت أساعدها كثيرًا في البيت وأفعل من أجلها أي شيء بنفس راضية، بدءًا من غسل الأواني أو حتى الملابس إلى إعانتها في إعداد أي من أنواع الطعام المختلفة... كنت أفعل ذلك طاعة وبرًا وامتثالاً لأمرها وإعانة لها على أعمال بيت لا تنتهي، والأهم من ذلك طمعًا في دعوة صادقة خالصة من صميم قلبها الصافي تملأ قلبي سعادةً وحياتي رضًا؛ ونتيجة لإعانتي أمي الحبيبة أصبحت والحمد لله أجيد أداء كثير من هذه الأمور؛

مما انعكس عليّ إيجابًا في الفترات التي قضيتها بعيدًا عنها أثناء فترة الدراسة بالجامعة أو بعدها، حيث كنت قادرًا بإذن الله على تدبير معاشي وترتيب أمور حياتي دون عناء يذكر، ولعل ذلك كان ثمرة الطاعة والحرص على إرضاء أمي الغالية ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

وكانت الوالدة الحبيبة أحيانًا تسافر لقضاء بعض المصالح أو لزيارة الوالد في رحلة قد تستغرق عدة أيام لبعد المكان، وكنا لا نصطحبها إما لحداثة أعمارنا أو لانشغالنا بالدراسة أو بالاختبارات، وكنت حينها أخشى ألا أستيقظ على صوت المنبّه في الصباح، فكنت أتفق مع شقيقتي إقبال على ربط أقدامنا ببعضها بحبل نصله بأي شيء أثناء النوم، وذلك حتى نظل طول الليل في حالة شبه يقظة، فنضمن الاستيقاظ في موعدنا للصلاة أو المذاكرة أو الاختبار؛ كنت أفعل ذلك رغم أن عمري حينها كان لا يتعدى العاشرة أو الحادية عشرة! ولم يكن ذلك إلا نتاج الجدية والشعور بالمسؤولية التي حرصت والدتي الحبيبة على غرسها في نفوسنا، والتي أصبحت سمة في كل أمور حياتي بعد ذلك، جزاها الله عني خيرًا.

مرت السنون بحلوها ومرها، وتخرجت في الجامعة، ثم التحقت بالجيش كضابط في سلاح المهندسين، وكنت أغيب فترات طويلة، خاصة أثناء حرب

أكتوبر[١]، فكانت والدتي الحنون تنام وتصحو على أمل أن تلقاني وتطمئنّ عليّ، وفي بعض الليالي كان لا يغمض لها جفن... ويكاد فؤادها يطير من بين ضلوعها شوقًا لابن أحبته وأحبها من الأعماق؛ وعندما أعود في إجازة كانت تفرح فرحًا غامرًا لرؤيتي، وتحتضنني وتضمّني إلى صدرها بشوق وحنوٍّ بالغين، وتظل تدعو الله (جل جلاله) أن يحفظني بما يحفظ به عباده الصالحين، وأن ينصر بي الإسلام والمسلمين.

وتم صرف راتبي بعد عام من التحاقي بالجيش، فكنت مع نهاية كل شهر أضعه بين يديها، ولكنها كانت ترفض وتبكي متأثّرة، فكنت أصرّ عليها... فتطلب أن أبقي شيئًا لنفسي، فأقول: "قد أبقيت"، فتدعو لي والدتي الغالية بكل الحب دعوات حانية ما زال شذاها يعطّر أيامي، وما زالت بركتها ييسّر الله بها الأمور، ويذلل الصعاب، وتُملأ حياتي بإذن الله بالخير.

وفي الخامس والعشرين من شهر أكتوبر عام ألف وتسع مئة وخمسة وسبعين من الميلاد، الموافق العشرين من شهر شوال عام ألف وثلاث مئة وخمسة وتسعين من الهجرة، سافرت إلى السعودية للعمل في الجامعة بالرياض، وأصرت والدتي رغم مرضها على وداعي في المطار؛ وكانت عيوني الدامعة لا تبارحها وقلبي الحزين يعتصر ألمًا لفراقها؛ وفي المطار حاولت جاهدًا إخفاء دموعي وحزني، ولكني لم أستطع مغالبتهما، فأخذت والدتي الحبيبة تحتضنني بحنان بالغ، وتوصيني بتقوى الله ثم بنفسي ألا أهملها.

وما إن وضعت قدمي في الطائرة حتى تملّكني حزن شديد، فحاولت أن أنشغل بالله انشغالاً ملك فؤادي حينها، ولكن ما إن لمست قدماي أرض مدينة الرياض، حتى انفلت صبري من عقاله، وشعرت من اللحظة الأولى بشوق وحنين بالغين يشداننني إلى

---

(١) حرب أكتوبر ١٩٧٣م.

أمي، فذهبت إلى الفندق الذي نزلت فيه، وما إن وطئت قدماي أرض حجرتي حتى كتبت لها: "**والدتي الحبيبة**: أكتب لك بعد أن وصلت إلى الرياض بسلامة الله، ثم ببركة دعواتك الصالحة، والتي كثيرًا ما يفتح الله لي بها أبواب الخير من فيض رحمته وكرمه، وكم أشعر يا أمي أني مدين لك بهذا الحنان والعطف الذي لم أرَ بعيني مثله، وأحسب أن مثلك في حنانك وعاطفتك الرقيقة ليس له وجود الآن، أثابك الله ومتعك بالصحة والعافية، وجزاك كل الخير عما قدمته يداك، وإني إذ أقر بجميلك عليَّ وكيف أنك بفضل من الله قد أحسنتِ التوجيه والنصح، وتحمَّلتِ من الأهوال ومن المصاعب ما يعجز كثير من الرجال عن تحمله، لا أمتلك إلا أن أتوجه إلى الله سبحانه أن يجزيك كل الخير، وأن يبارك في عمرك ويرزقك الصحة والعافية.

كم شق عليّ أن أترك مصر وأبتعد عنك؛ فقد كان بودّي أن أرد إليك أي شيء، ولكني أقرّ بعجزي أن أوفيك قدرك، وأنا أعلم أن ثوابك عند الله عظيم؛ والله خير حافظًا، وهو أرحم الراحمين.

لقد أسلمت نفسي لله ودعوت الله بقلب آلمه الفراق أن يمتعك بالصحة ويمنّ عليك بشفاء قريب، فأسعد برؤيتك والوالد أعزه الله وسدد خطاه وحفظه من كل سوء. أمي... لا أنسى صورتك الحزينة في المطار... ولن أستطيع أن أصف لك شعوري عند وداعك، فقد كان قلبي يعتصر ألمًا، ولكني جاهدت نفسي كي أخفي مشاعري.

أمي الحبيبة... أرجو أن تتوجهي إلى الله (جل جلاله) بالدعاء أن يهديني إلى كل خير، وأن يبعد عني كل شر، وأن يوجه قلبي إليه وحده، وأن ينفع الله بي الإسلام والمسلمين... اللهم آمين؛ وسوف أتوجه بدوري إلى الله بقلب صادق أن يلبسك ثوب العافية، وأن يعينك على الحضور إلينا وأنت في كامل صحتك، وحينها ستحلّين في قلبي، وما ذلك على الله بعزيز".

وفي الحقيقة أنه لم يكن لي أي رغبة في هذا السفر، حتى لا أفارق والدتي الحبيبة وهي مريضة، ولكني قَبِلْتُ السفر على مضض بعد إلحاح منها ومن الوالد الحبيب؛ وقد أرسلت إليها رسالتي الثانية بعد فترة من الزمن أقول:

والدتي الحبيبة... "هذه رسالتي الثانية إليك من يوم أن ودعتك وسافرت إلى الرياض... الرسالة الأولى كانت بعد وصولي بساعات قليلة، وكانت تحمل إليك جانبًا مما يحمله قلبي لك من حب وبرّ أظنه قليلاً بالنسبة لأم حانية مثلك، كتبتها ويعلم الله وحده قدر ما كان في نفسي من ألم لسفري، ولكني ما سافرت إلا إرضاءً لك ولوالدي، فقد كنت أرى أن من واجبي أن أبقى بجانبك لأكون في خدمتك وخدمة والدي الحبيب بقدر ما يعينني الله، ولولا طاعتك ووالدي ورغبتي في إرضائكما ما أقدمت على هذا السفر؛ والحقيقة أنني أستشعر حنينًا يشدّني إليك وإلى الوالد، حنينًا لا يعدله شيء في هذه الحياة، واليوم وبعد هذه الفترة التي حرمت فيها من رؤيتك ومن رؤية الوالد أكتب إليك رسالتي الثانية لعل في كتابتي إليكما ما يخفف عني وعنك بإذن الله، وأملي ورجائي في الله أن تكونِي راضية عني، فإن شعوري برضا الله عني من خلال رضاك ورضا الوالد، هو أعظم ما أتمناه في هذه الحياة".

توقفت خطاباتي فترة نتيجة لانشغالي في العمل، ولما عدت أراسلهما مرة ثانية، **تلقيت خطابًا رقيقًا من الوالد الحبيب يقول لي فيه:** ابني عبد الحميد، "عادت خطاباتك للقدوم علينا؛ فأزال الله بها البأساء والضراء، وانتعشت والدتك نوعًا ما... بعد أن أحاط بها المرض من كل جانب، وتنفّسَت الصعداء عندما علِمَتْ أنك بخير، وأمنيتها الباقية لها في الدنيا هي أن تراك قبل أن تودع الحياة، إننا جميعًا نحيا وسط عاطفتك الجياشة وودّك المشرق الجميل، فالصغير والكبير قد نقل مركز القيادة إليك، هم يتبادلون خطاباتك، تكتب فتقول: إني مسافر من الرياض، فتطير القلوب

مع الطائرة ولا ترجع إلى الرياض حتى تقول: إن قدمك لمست ترابها وتنفست هواءها، ثم تقول: إنك مسافر للجنوب فتطير القلوب ولا ترجع حتى ترجع، فإذا عدت جَلَسَتْ على مقربة منك تكاد تلمس فراشك وتعبث بأوراقك، تأكل معك حين تأكل، وتمتنع حين تمتنع".

هكذا استطاعت والدتي الحبيبة بما حباها الله من قلب حنون أن تضع لبنات هذه المشاعر الرقيقة والعواطف الجياشة وتزرعها في قلوبنا جميعًا لتصيرها قلبًا واحدًا ينبض بالحنان والحب؛ وصدق رسول الله (ﷺ): "مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" (رواه البخاري ومسلم).

وعندما حضرْت إلى مصر في إجازتي السنوية الأولى في منتصف عام ١٩٧٦م، فوجئت أن والدتي الغالية في شدة مرضها، وقضيت الإجازة بجوارها أتألم لألمها وأئنّ لأنينها، وكانت تنادي عليّ بحنان منقطع النظير ترجوني أن أنام وأستريح، ولكن أنّى يغمض لي جفن وهي لا تكاد تنام طوال الليل بسبب ما كانت تشعر به من ألم ومعاناة؛ واتخذت قراري حينها بعدم العودة إلى العمل في المملكة العربية السعودية لأبقى بجانبها أرعاها؛ ولكن ذلك لم يعجبها، وغضبت مني قائلة:

"إنك لن تدفع عني شيئًا من قدر الله، فلتسافر على بركة الله، وأعدك بزيارة مع الوالد للعمرة إن شاء الله"، قالتها وهي لا تكاد تسير خطوات دون مساعدة! وأمام إصرارها اضطررت لطاعتها، فقد كان لها في نفسي مهابة واحترام، وكنت أعمل ألف حساب لما تأمرني به:

لا تسألوني عن حبيبةِ خاطري ... فَهْيَ التي نسجَ العفافُ ثيابَها

إن الفؤادَ يحبُّها ويهابُها ... لأن من عرف الحبيبة هابَها[1]

---

(١) شعر د. عبد الرحمن العشماوي.

لذلك اضطررت لحزم حقائبي كارهًا إرضاءً لها للمرة الثانية، وقلبي يكاد ينخلع حزنًا وألمًا لفراقها، فأنينها في سمعي ومعاناتها في قلبي، وكلما ابتعدت عنها انخرطتُ في بكاء مرير كطفل انتزع من حضن أمه، وكلما تخيّلت عدم رؤيتها ثانية يكاد عقلي يطير، فكيف يمكن أن تطيب لي الحياة أو تحلو من دون حنان أمي الحبيبة وحبها ودعواتها التي كانت تدخل الرضا على قلبي والسعادة على حياتي.

سافرت حزينًا منكسرًا، وما إن وصلت إلى مدينة الرياض حتى كتبت إليها قائلاً:

"آمل أمي أن تصلك رسالتي هذه فتمسح عن قلبك الضيق وتذهب عن نفسك الألم، كما آمل أن تكوني قد أصبحت أحسن حالاً عما كنت عليه بإذن الله، فأنا لا أتمنى من دنياي إلا أن ينعم الله (جل جلاله) عليك بالصحة والعافية، وأن يبارك في عمرك".

ظللت على اتصال مستمرّ بوالدتي لأطمئن عليها، وأخذت أكتب لها الرسالة تلو الرسالة أبث فيها فيض مشاعري وعواطفي؛ وبين الحين والحين كنت أهاتفها لأسمع صوتها الحبيب الحنون، فأشعر أن قلبي يكاد يطير شوقًا إليها.

ومرة أخرى كتبت أستأذنها العودة لأكون عند قدميها، فأجابني الوالد برسالة تحمل كل معاني الإيمان الصادق بالله والاطمئنان في جنبه سبحانه، فرغم مرض الوالدة الحبية الشديد فإن الثقة بالله تعالى جعلت النفوس منطوية على الرضا والصبر، والألسن لا تفتر عن الدعاء لله رب العالمين، فهو وحده سبحانه كاشف الضر؛ كتب الوالد يقول: "وصلني خطابك الذي يشير إلى عطفك على والدتك، وهي عاطفة نبيلة مشكورة، وأطمئنك أن الله قد هيّأ عمتك لوالدتك وقذف في قلبها الرحمة والحنان نحوها، لذا فلتعلم يا بنيّ أن حضورك لتكون بجانب والدتك لن يضيف شيئًا ولن ينقص شيئًا، فلتتجمّل بالرضا والصبر، ولتدعُ لها في كل وقت، ولعلنا نفاجئك بالقدوم لعمرة أو حج، وما ذلك على الله بعزيز".

اطمأننت نسبيًا لما علمت أن الله قد أكرم الوالدة بعمتي ترعاها وتعتني بها، بالإضافة إلى أخوات حبيبات كن يحطنها بحنان غامر؛ مما خفف عنها كثيرًا؛ إلا أنه بعد أيام وصلتني رسالة من الوالد يخبرني أن المرض قد بدأ يتزايد على والدتي فحزنت حزنًا شديدًا، وكتبت إليها قائلاً:

"أمي الغالية.... علمت من الوالد أن صحتك آخذة في الضعف ولا تدرين مدى ألمي لذلك، وقد دعوت الله لكما عند الكعبة المشرفة وفي مسجد رسول الله (ﷺ)، ويعلم الله أني ما دعوت لنفسي بقدر ما دعوت لكما... دعوته سبحانه أن يمن عليك بالعافية، ويديم عليك الصحة، ويبارك في عمرك وعمر الوالد، وأن يكتب لكما حجًا لبيته الحرام وزيارة لمسجد رسوله (ﷺ)".

وما هي إلا أيام حتى وصلتني رسالة أخرى مؤثرة من والدي ينعى والدتي الغالية، يقول فيها: "إن أمك قد فاضت روحها إلى بارئها وهي راضية عنكم جميعًا".

كم أضناني الخطب على رحيلها! وكم غلّف نفسي حزنٌ صَعُبَ عليّ تحمّله! كان فقدها فوق جهدي ورحيلها أكبر من طاقتي، فقد انطفأت شمس كانت تغمر حياتي بالدفء، وخبت سحائب ندى كانت تغدق على أيامي الحب، وبعد أن كان الأمل في رؤيتها نجمة مضيئة في حياتي اختفت بموتها هذه النجمة بين الغيوم، ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ رحمك الله يا أماه... كنت جبل صبر فتهاوى... وقمرًا مضيئًا في حياتي فتوارى... جمعني الله وإياك في مستقر رحمته.

جنات عدنك يا رحمن نطلبها ... فامنن بها ذا الجود يا منانُ

بك اعتصمنا وفي أعماقنا صبر ... والصبر في قيظ الأسى بستانُ[1]

---

(١) انظر شعر د. عبد الرحمن العشماوي.

أماني لم تتحقق: كانت والدتي الحبيبة راضية تمام الرضا بما قسم الله لها، وعاشت مثالاً للإيثار قانعة بما رزقها الله (جل جلاله)، إلا أن هناك أمنيتين ظلت حتى آخر نبض في عروقها وآخر نفس في صدرها تتمنى على الله أن يتحققا، ولكنها رحلت عن الدنيا دون أن يتحقق أي منهما؛ **أما الحلم الأول فهو** أن تحجّ بيت الله الحرام، وتزور مسجد الرسول المصطفى (ﷺ) وذاك كان حلمها الأكبر، وكم عبرت عن هذه الأمنية الغالية، ولكن أنّى لها أن تتحقق ووالدي كان غائبًا ... وحتى بعد أن عاد إليها لم تهنأ بتحقيق تلك الأمنية الغالية بسبب المرض الذي ألجأها إلى الفراش وأعجزها عن السفر، ومع ذلك ظلت حتى حال مرضها تمني نفسها بالشفاء لتهنأ بهذه الرحلة المباركة التي طالما اشتاقت نفسها إليها؛ وكم آلمني أن تمضي أمي الغالية إلى بارئها دون أن تتحقق أمنيتها تلك، ولكن الله (جل جلاله) عوّضها خيرًا حيث قمت بالحج عنها، فاللهم ارزقها الفردوس الأعلى بما قدمت من خير لدعوتها وما ضربت من أروع الأمثلة في الثبات والصبر والتضحية.

أما الأمنية الأخرى، فقد كانت أن أتزوج في حياتها، وكم ألحت عليّ أن أتم ذلك الأمر قبل موتها بصوت ما زال صداه يرنّ في أذني:

ما زال في سمعي رنين حديثها ... ومقالها في رحمة وحنانِ

ابني... إني قد غدوت عليلةً ... لم يبق لي جلدٌ على الأحزانِ

فأذق فؤادي فرحة بالبحث عن ... بنت الحلال ودعك من عصياني

كانت لها أمنيّة ريّانةً ... يا حسن آمال لها وأمانِ

غزلت خيوط السعد مخضلاً ولم ... يكنِ انتقاضُ الغزلِ في الحسبانِ

والآن لا أدري بأي جوانحٍ ... سأبيت بعدكِ أم بأي جنانِ

لقد أخبرتها بظروفي التي تمنعني من الزواج حينها، ولكن مهما أبديت لها من أسباب وَجَدَتْ لها حلاً؛ فإذا اعتذرت بعدم توافر المال أخبرتني أن والدي سيتكفل

بهذا الأمر... وإذا أخبرتها أني لم أجد بنت الحلال بعد... أخبرتني أنها تعرف ليس واحدة ولكن اثنتين وثلاثًا.... وهكذا... ولما توفاها الله قبل أن أحقق أملها انتابني ألم وندم جعلاني أعرض عن الزواج فترة؛ ولكن لما بلغت الثلاثين من عمري - أي بعد وفاتها بحوالي عامين - منّ الله (جل جلاله) عليّ بالزواج من زوجة صالحة لم ترَ أمي الغالية، ولكن أحبتها من سماع سيرتها العطرة التي تفوح مسكًا وأريجًا، وتمنّت أن لو كانت قد سعدت برؤيتها.

والحقيقة أني ما رأيت زوجة تحب والدَيْ زوجها مثل زوجتي (بارك الله فيها)، وكان ذلك مما خفف من حزني وألمي؛ وكم كنت أتمنى لو مد الله في عمر والدتي لترى الزوجة التي طالما ألحت عليَّ لأتزوجها، ولكنها إرادة الله الذي لا رادّ لمشيئته سبحانه، ويبقى الأمل أن نلقاها في أكرم جوارٍ في مستقر رحمة الله؛ لنسعد بلقياها في جنان لا موت فيها ولا فناء، ولكن خلود ونعيم بإذن الله.

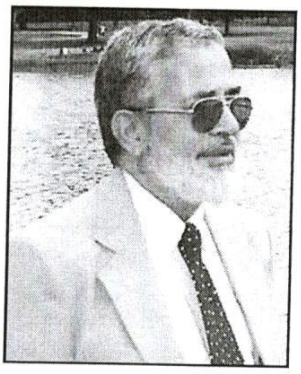

وها أنا أسطر هذا الكتاب وقد تخطيت الرابعة والستين من عمري، فقد ولدت في ١٣٦٦/٩/٤هـ، إلا أني كنت أتمنى أن لو كان والدايَ الحبيبان على قيد الحياة لأنعم بحبهما ودعائهما الحاني لي، ولأقبل كل يوم قدميهما، عسى الله أن يرحمني ويدخلني الجنة برضاهما عني.

وكان والدي يحب زوجتي وينزلها منزلة كبيرة ويقدرها أكبر تقدير، ويقول: "ليس في هذه الأسرة من هو أقرب خلقًا لوالدتك من زوجتك وشقيقتك الكبرى"، وظل والدي الحبيب (رحمه الله) يدعو لزوجتي حتى آخر وقت، فقد كان يحبها كثيرًا ... وقد كتب لي بعد زيارته لنا آخر مرة في مكة المكرمة قبل وفاته يقول:

"إن لزوجتك الصدارة في التقدير والإعزاز بين أبنائي، ولذلك فإني أحب أن تكون دائمًا معافاة في دينها وبدنها وفي دنياها وآخرتها، وقد دعوت لها دعاءً خاصًا بعد الدعاء العام عقب أداء طواف الوداع، فسلامي لها".

وهكذا كانت بركة دعوات والديَّ الحبيبين (رحمهما الله) تملأ حياتي في كل وقت بالخير؛ وأحسب أن كل تيسير لأموري وكل تسهيل لسيري في طريق الحياة الوعر هو بفضل دعاء والديَّ ورضاهما عنّي، فوالدتي لم يفتر قلبها عن الدعاء لي في ليل أو نهار حتى لقِيَت الله وهي على ذلك، كذا والدي كان يدعو الله لي بكل خير في حضوري وغيبتي، فاللهم انفعني بدعائهما في الدنيا ويوم ألقاك، وارحمهما، وأنر قبرهما، وألِنْ مضجعهما، واجمعنا بهما في مستقر رحمتك، ولا تحرمهما أجر كل عمل صالح عملناه في هذه الدنيا وقبلته منا يا حي يا قيوم يا أرحم الراحمين... إنك سميع مجيب.

كنا صغارًا حين فارقنا أبي ... فمضت تقدّم روحها وشبابها

نشرت لنا ظل الأمومة وارفًا ... وإلى المشاعر طيرت أسرابها

أمـي الـتي مـا أبـصرت عـين المـدى ... إلا جـلال حيائهـا وحجابهـا

لمـا تقـول بُنَـيّ أشـعر أنهـا ... تـبني حـصون سـعادتي وقبابهـا

رحلـت عـن الـدنيا رحيـل كريمـةٍ ... رفعـت مواقفهـا العظـام جنابهـا[1]

(١) شعر د. عبد الرحمن العشماوي.

الفصل الخامس

"وداعًا أمي"

- مرضها
- وفاتها
- أمي في عيون هؤلاء
- حياتها... كنز العبر
- خاتمة

مرضها

عاشت والدتي الحبيبة محنًا تشيب لهولها النواصي؛ محنًا تقبلتها برضًا واطمئنان، فأصبحت منحًا من الله (جل جلاله)، عاشتها وهي ترنو إلى اليوم الذي تسعد فيه بنيل والدي الحبيب لحريته وعودته إليها، ولما استجاب الله دعاءها ورده إلينا منصورًا، لم تستشعر طعم السعادة طويلاً بعودته إليها؛ إذ ما لبثت أن خارت قواها وتبددت صحتها بعد أن أنهكتها المحن، وأضنتها الحوادث، وتكاثرت عليها الابتلاءات، ومزّقتها الهموم، واستهلكتها الأحزان؛ فلقد تحملت من المتاعب ما لا تتحمله الجبال ولا يقدر عليه كثير من الرجال حتى تربي جيلاً قادرًا على تحمل المسؤولية ومواجهة أعباء الحياة، وواجهت وحدها حياة عامرة بالجهاد... أدت فيها دورها كزوجة مخلصة عاشت تسعى سعيًا حثيثًا في أرجاء مصر: نجوعها، وصحرائها، وقراها؛ لتؤازر زوجها وتبث الأمل في قلبه، وتبعث الرضا في نفسه، وظلت على ذلك حتى رُفِعَت الغمة وانجلت الشدة بعد جهاد شاق وتضحيات جسام تئن منها الرواسي، وتقشعر منها الأبدان، وعاد والدي الحبيب من رحلته الطويلة ليجدها أزكى ما تكون زوجة وأفضل ما تكون شريكة حياة، كل خصلة كريمة تركها بين جنبها نمت، وكل جرح بالصبر داوته.

لقد كانت حياة والدتي الحبيبة جولات متلاحقة من المحن والابتلاءات والمعاناة، وقد شاءت إرادة المولى (جل جلاله) أن تكون جولتها الأخيرة مع المرض الذي ابتليت به بعد فترة وجيزة من تحرير والدي الحبيب من زنازين الطغاة، فقد بدأ المرض يتسللّ إلى جسدها الواهن، فحاولت والدتي الحبيبة أن تقاومه وتصارع ويلاته، فالمقاومة كانت ديدنها في سالف السنوات، ولكن الجسد الذي تحمّل وقع المطارق عليه طوال سنين المحنة، كان قد وهنت قواه وتناهشته من كل جانب أمراض أثقلت

كاهله وأضعفت قواه؛ فسقط الجسد المتهالك بعد أن ذبل عوده وذوت نضارته، وأخذت حبيبتي تنتقل من علة إلى علة، ومن معاناة إلى معاناة، حتى أحاط بها المرض من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم وحاصرها حصارًا جعل كل من يحمل لها في قلبه حبًا وولاءً، ومودةً ووفاءً يتضرع إلى الله أن يخفف عنها الآلام والمعاناة.

وقد أنعم الله عليها في محنة المرض بصحبة خيّرة، فهناك والدي الحنون الذي لم يَألُ جهدًا في تلبية ما تحتاج إليه، وشقيقتاي الحبيبتان إحسان وإقبال اللتان لم يفارقاها لحظة واحدة، كما كان هناك أخواتٌ كثر كن دائمات الزيارة لها يحطنها بحنان غامر وعواطف جارفة وحب صادق، بالإضافة إلى محبيها الذين لم يتوقفوا عن السؤال عنها؛ مما كان له أثر عظيم في التخفيف عنها.

لقد صبرت والدتي الحبيبة على المرض الذي أضناها صبرًا جميلاً اختيارًا وإيثارًا لما عند الله (جل جلاله)، وكانت نفسها مطمئنة إلى جنب الله، منطوية على الرضا، وكان قلبها الكبير ينبض بالحب لكل من حوله، وظل لسانها الطاهر مقيمًا على ذكر الله وعلى الدعاء أن يرفع الله عنها البلايا والمحن، ويفك الشدائد والكرب، وأن يرحم ضعفها ويشفي مرضها ويكشف ضرها؛ وقبل وفاتها بأيام قليلة دخلت في غيبوبة، وكانت كلما أفاقت منها نادت على كل منا باسمه تكلمه بحنان وحب وعطف وتدعو له، والحضور يرقبون ذلك بقلوب واجفة وعيون دامعة، وقد كتب لي الوالد الحبيب رسالة جاء فيها:

"كم نادت عليكم فردًا فردًا، وكأنكم معها تحدثونها وتحدثكم، ونحن ننصت في صمت وخشوع، ولا تسل عن الوفود والأسر التي كانت تزورها في أيامها الأخيرة يجلسون حولها كأنها أمهم أو أستاذتهم".

كانت أمي كلما فاقت من غيبوبتها نادت على شقيقتي إقبال تأمرها بأن تضع الطعام أمام والدي الحبيب، ثم تطلب منه أن يأكل، فيلبي رغبتها إرضاءً لها، ثم ما تلبث أن تدخل بعدها في غيبوبة أخرى.

لله درك يا أماه... تحملين هم زوجك الحبيب، وتحرصين على راحته حتى وأنت في سكرات الموت ليس بينك وبين لقاء ربك إلا أن تفيض روحك الطاهرة إلى بارئها؟ أي نبل هذا.. وأي حنان.. وأي وفاء كنت تحملينه بين جوانحك؟!!

ظلت والدتي الحبيبة على ذلك حتى فاضت روحها إلى مولاها، واستقرت بعد طول تعب وعظيم معاناة في أكرم جوار، فكان الموت راحة لتلك النفس الذكية التي أتعبتها الحياة بكل آلامها ومآسيها، فتوقف القلب الرحيم، وسكنت العروق النابضة بالحياة، وانطفأ وهج العقل.

مضت والدتي الحبيبة الصابرة في صمت، بعد أن عاشت حياتها في صمت... مضت بعد أن عاشت نموذجًا مشرقًا لزوجة مباركة رفعت رأس زوجها ورؤوس الإخوان جميعًا عاليًا بصبرها وثباتها وشموخها وعلوّ همتها ... حياة ضربت فيها أروع الأمثلة في الرضا والتفاني وإنكار الذات...

مضت بعد أن تركت بصماتها الجميلة في نفوس كل من حولها، وبعد أن تركت ميراثًا من الذكريات المؤثرة والمواقف النبيلة مع كل من تعايشت معه... وسيظل الذين بَلَوْا معدنها النقي الأصيل يذكرون مواقفها ومآثرها ويدعون لها بكل خير...

مضت بعد أن ساهمت في غرس بذور الخير التي لن تموت بإذن الله، بل ستمدّ من بعدها بالثمر الزاكي والعطاء المبارك... مضت أمي الحبيبة ولسان حالها يردد:

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ (المؤمنون: ٢٩).

وفاتها

مضت الوالدة الحبيبة الغالية بعد جهاد على البلاء وصبر على الضراء، وبعد أن عاشت حياة ضربت فيها أروع الأمثلة في التفاني والثبات، والموت حقّ لا جدال فيه وقدر لا فرار منه، فلا يتفرّد بالبقاء إلا الحيّ الذي لا يموت، وكل ما هو غير ذلك إلى فناء، فالكل ذائق من كأس الموت الدائرة على الجميع بلا استثناء بما في ذلك رسل الله (صلوات الله وسلامه عليهم) والملائكة... بل حتى ملك الموت نفسه الذي تكفل بقبض الأرواح، وصدق الله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص: ٨٨).

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٥).

والناس ينقسمون حيال الموت إلى ثلاثة أقسام: قسم يعيشون في الدنيا دون أن يشعر بهم أحد، ويموتون دون أن يشعر بهم أحد أيضًا، فينقطع ذكرهم وتطوى صفحتهم بموتهم، فقد جاؤوا إلى الدنيا وعاشوا لأنفسهم ثم غادروا الدنيا، وُضرِبَ بأستار النسيان عليهم، فهؤلاء عاشوا ولم يوجدوا وولدوا ولم يذكروا وماتوا ولم يفتقدوا.

وقسم يموتون وتبقى سيرتهم ماثلة في الأذهان، ولكن للعبرة بما اقترفت أيديهم واستكبرت في الأرض بغير الحق، وهؤلاء هم الظالمون والجبارون والمتكبرون، فأولئك كلما حلت ذكراهم بالأذهان انهالت عليهم اللعنات ولحقهم الخزي والعار.

وفريق ثالث لم يعيشوا لأنفسهم يومًا، بل عاشوا لغيرهم وحَمَلُوا على كواهلهم هموم الغير، فرُفِعَ ذكرهم بعد وفاتهم، وبقيت سيرتهم العطرة تملأ الدنيا بعبقها وأريجها، فهؤلاء لا تفنى أعمارهم بالموت ولا يُطوى ذكرهم برحيلهم عن الحياة، ولا

تختفي معالم حياتهم من أذهان محبيهم، ولا يزحف النسيان على جلائل مواقفهم، بل يظل الذاكرون يذكرون مآثرهم وأفعالهم الكريمة التي قدموها لوجه ربهم، لا يبتغون بها جزاءً ولا شكورًا، ويظلّ الواحد منهم يعيش في ضمير المخلصين، ويحيا في قلوب الأوفياء، ويترسم خطاه المحبون.

يـا رحلـة لم تقـف يومًـا مراكبهـا ... ولم يقـف دونهـا في الأرض إنسانُ

مـا كـل مـن رحلـوا غـابوا فكـم رحلـت ... أجسامُ قومٍ وهـم في القلـب سُكَّـانُ

بعـض العِبَـادِ لهـم ذكـرى معطـرةٌ ... فكـــل أخبـــاره وردٌ وريحـــانُ

وبعـــضهـم كنبـــاتاتٍ مـــشوكةٍ ... لـذكره في قلـوبِ النـاسِ نكـرانُ[١]

يقول سيد قطب (رحمه الله): "عندما نعيش لذواتنا فحسب تبدو لنا الحياة قصيرة ضئيلة، تبدأ من حيث بدأنا نحن وتنتهي بانتهاء عمرنا المحدود، أما عندما نعيش لغيرنا، عندما نعيش لفكرة، فإن الحياة تبدو طويلة عميقة، تبدأ من حيث بدأت الإنسانية، وتمتد بعد مفارقتنا وجه هذه الأرض"[٢].

ويقول د. مصطفى السباعي[٣] (رحمه الله): إن لله عبادًا أسرجوا مراكب الجد بصدق العزمات، وامتطوا جياد الأمل، واتجهوا إلى الله (عز وجل)، وتزودوا إليه بصالح العمل، مع إخلاص النية، وتوسلوا إليه بصفاء القلب وصدق الطوية، لم يعبؤوا بالعقبات ولم يلتفتوا إلى المغريات، قد صانوا وجوههم عن الابتذال، وطهروا أقدامهم من الأوحال، واستعانوا بالله على مشقة الطريق وعلى بعد المدى، فذلل لهم صعابه، وملم لهم رحابه، وفتح لهم بابه، فلما دخلوه استضافوه، فقربهم ورفع دونهم حجابه،

---

(١) د. عبد الرحمن العشماوي.

(٢) أفراح الروح.

(٣) مفكر إسلامي.

فلما استطابوا المقام بعد طول السُّرَى قالوا: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ (الزمر: ٧٤).

لقد فاضت روح الوالدة الصابرة إلى الرفيق الأعلى في أجواء اليقين والرضا في السابع والعشرين من شهر ديسمبر عام ألف وتسع مئة وستة وسبعين من الميلاد، الموافق السابع من شهر المحرم عام ألف وثلاث مئة وسبعة وتسعين من الهجرة، عن عمر يناهز الستين عامًا... فاضت روحها وذهبت إلى ربها راضية مرضية مطمئنة لما عنده (جل جلاله) بعد أن أدت الأمانة ووفت بالعهد: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ (الفجر: ٢٧ - ٣٠).

وتوافد على مدينة بسيون من أنحاء كثيرة في البلاد أعداد كبيرة من أبناء الدعوة الإسلامية ممن أكبروا في هذه المرأة الصالحة صبرها وإيمانها وثباتها على الحق، وحمل جثمان الفقيدة الراحلة أكارم الناس من الفضلاء إلى مدافن القضابة، حيث يرقد ابنها خالد (رحمه الله)، وأدت الوفود الغفيرة عليها صلاة الجنازة في مشهد خاشع حزين ارتفع فيه الدعاء بإخلاص ويقين أن يتغمدها الله برحمته ويغفر لها ذنبها، وأن يحشرها مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

سار موكب الجنازة من منزلها في بسيون إلى المقابر في القضابة، تحفّه الملائكة وجموع المشيعين من حولها في صمت وخشوع ودموع، حتى كانت لحظة الوداع الأخيرة، حيث غابت الفقيدة الغالية الصابرة عن الأنظار، ولكنها استقرّت حية في سويداء القلوب التي عرفت قدرها ومكانتها، وبقيت لنا الذكرى التي لا تموت:

لله درك أيها القبرُ ... كم نام فيك الجودُ والطهرُ

إني إخالك بالألى طربًا ... وبمن ضممت اليوم تفتخرُ

يجزيكِ رب الناس جنتَهُ ... وفوق الأرائك تحتها سُرُرُ

فيها تعاين وجه خالقها ... أما الثياب فسندس خضرُ

كتب لي الوالد الكريم (رحمه الله) ينعى إليّ رفيقة دربه وصديقة عمره وحبيبة قلبه: أمي الحبيبة التي منحته عصارة حياتها وزهرة شبابها... وهبته قلبًا حانيًا محبًا تسكنه مخافة الله، ونفسًا وفية متجردة تعالت على حطام الدنيا، وسمت فوق زخارفها البراقة، نعى إليَّ والدتي الحبيبة في خطاب مؤثّر حزين يقطر وفاءً وحبًا لهذه الزوجة الوفية، خطاب كانت كلماته نموذجًا فريدًا للصبر الجميل، صبر المؤمن الواثق المطمئنّ إلى ما عند الله، فكانت كلماته بردًا وسلامًا على نفسي: "ابني عبد الحميد، "فلعلك تذكر وأنتم تزورونني في السجن - وقد كنت لا أعلم بعد بخبر وفاة ابني خالد - ولا أحد يجرؤ على مكاشفتي - وإذا بك تقول بروح المؤمن الصافي: "إن أخي خالدًا قابل ربه"، وتجدني يا بني عاجزًا كل العجز عن القيام بهذا الدور الذي قمتَ به، ولكني أقول: عظّم الله أجركم، فقد فاضت روح الوالدة أمس وهي عنكم راضية ولربها راضية، علا وجهها النور والبشر وتيسّر كل شيء حولها وجمع الله خير الناس وأكرم العباد فحملوها إلى مقابر القضابة - حيث يرقد ابنها خالد - ويخيّل إليّ أنها كانت محمولة بالملائكة، بل كان المشيعون جميعًا تحوطهم الملائكة، فكنت لا تسمع إلا أنفاسًا تذكر وقلوبًا تدعو وأفكارًا تسبح، حتى إذا وصل الجميع إلى ساحة المقبرة وقفوا يُصلّون عليها ويلتمسون الخير في ركابها، فهنيئًا لمن كانت له أمًا، وهنيئًا لكل من عرفها.

أرجو أن تكون أهلاً لما ابتلينا به، صحيح أن فقد الوالدة خسارة كبيرة، وصحيح أن فقدها أضعاف أضعاف فقد الأمهات؛ فقد كانت على مثال فريد من النبل والوفاء، ولكن الله تعالى قال لسيد الخلق (ﷺ): ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (الزمر: ٣٠).

حاشا لله أن يتأبى عليه أحد؛ فكلنا عبيد ويكفي أن قبلنا مسلمين، آمل أن تكون أسوة طيبة في تقبّل هذا الأمر برضًا، عسى الله أن يرضى عنا جميعًا".

نبكي على نجمٍ أنار ضياؤه دهرًا وأسرع للمغيب أفولا

صعبٌ علينا أن نرى بدرًا هوى ونرى التراب على سناه مهيلا[١]

إن كلمات الرثاء لتعجز عن الوفاء بحق أمي... وإن اليقين بقضاء الله وقدره هو الذي أعان أحبابها على مواجهة الأمر، أحبابها الذين فطر فراقها قلوبهم، وكان عزاؤهم أنها مضت إلى جوار ربٍّ كريم بعد أن عاشت نجمة ساطعة في سماء الدنيا متألقة في ميادين الدعوة ثابتة في ساحات الجهاد.

لقد تركت والدتي لوعة في القلب، وألمًا في الجوانح، ومكانًا في الريادة، ولسوف يذكر لها أحبابها كريمَ شمائلها ونبيلَ أخلاقها وذاكيَ صفاتها، وحسبهم أنها قد ماتت كما يموت الصديقون والشهداء، وذهبت بإذن الله إلى عملها الطيب وثوابها الجزيل، وشيعت بالثناء والدعاء، وتركت أثرًا طيبًا وذكرًا حسنًا وأبناء بررة يذرفون الدمع حزنًا لفراق مكتوب، ويبتهلون إلى الله (عَزَّوَجَلَّ) أناء الليل وأطراف النهار أن يتغمدها الله برحمته، ويسكنها فسيح جنانه.

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم وعاش قوم وَهُمْ في الناس أمواتُ

طبت حية وميتة يا أماه، وجزاك الله عنا خير ما يجزي به أمًا متفانية مجاهدة، ورحمك رحمة واسعة، وأحسن جزاءك، وعوض الإسلام والمسلمين عنك خيرًا، وجعل مواقفك وأخلاقك وصبرك رصيد خيرٍ وإلهامَ عون للزوجات والأمهات، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا: "إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، وإنا لفراقك يا أماه لمحزونون وإنا لله وإنا إليه راجعون".

(١) يوسف القرضاوي.

أمي في عيون هؤلاء

لقد تركت الوالدة الصابرة الحنون في نفس كل من تعامل معها، أو سعد بمعرفتها، أو اقترب منها، بصمة جميلة وأثرًا طيبًا، وتقديرًا لا حدود له، فكل من عايشها عن قرب لم يجد منها إلا النبل، ولم يعرف عنها إلا الإخلاص لهذه الدعوة المباركة؛ ولقد شهد لها الجميع بثباتٍ ووفاءٍ لوالدي الصابر الذي عاش يحمل رسالة الدعوة إلى الله ويتحمل تكاليفها ويجاهد من أجل أن يفيء المجتمع إلى ظلال الإسلام، في عصر ساد فيه الظلم والطغيان، فابْتُلِيَ وامتحن، ولكنه ثبت وصمد، ووقفت زوجته المجاهدة خلفه تقوّي ظهره وتدفعه للأمام وتمده بالثبات على الطريق دون تبديل أو تفريط، وتعينه على العمل للدعوة بعطاء وإخلاص متجرد، فكانت المعين على المحنة والسند الروحي من كَدّ الدنيا وتقلباتها؛ كل هذا شهد به الرجال والنساء الذين لمسوا فيها روحًا رقيقة كأوراق الزهر، ونفسًا صافية كقطرة المزن... وقلبًا حنونًا كان يحمل من الحب ما وسعهم جميعًا، لذلك كانت موضع تقدير الإخوان واحترامهم رجالاً ونساءً، وكانت لهم رمزًا للأمومة والصبر والتضحية، وهذا بعضٌ مما قيل عنها:

☜ "إن الأعلام الفاسد يركّز الأضواء على الرموز النسائية العلمانية، في محاولة لنشر المفاهيم الغربية؛ بهدف إفساد نسائنا ومجتمعاتنا الإسلامية، فما أحوجنا اليوم في خضم هذه الظروف إلى إعلام شريف يسلّط الضوء على النماذج الطيبة أمثال زوجة الداعية الحاج أحمد البس التي نهلت من نبع الإسلام الأصيل، فهي بحق قدوة صالحة تحتاج إليها نساؤنا وبناتنا من واقعنا المعاصر ونموذجًا مشرفًا ترنو إليه الأنظار وتشرئبّ له الأعناق، فقد عاشت وردةٌ جميلة تصوغ من التضحية قلادة من نور، وتنسج من خيوط الألم والمعاناة بردة من الصبر الجميل؛ فنسأل الله أن يجزيها خير الجزاء".

وفاء نجم، على أحد المواقع الإلكترونية

☜ **حدثني الأستاذ إبراهيم شرف** (رحمه الله) عن الوالد الكريم وكيف كانت والدتي الحبيبة عونًا له في كل شيء، وكيف كان هو يحترم رأيها ويقدر كلامها ويأخذ به بكل وُدّ واحترام، فقال: "لم تكن والدتك (رحمها الله) أمًا لكم فقط، بل كانت أمًا للإخوان جميعًا، فقد كانت تحمل من مشاعر الحنان والأمومة والود ما يسعنا، كنا نشعر بذلك ونلمسه في تعاملها معنا وفي كل ما يصدر عنها.

ويستطرد الأستاذ إبراهيم: "كان والدك وقت زواجي مريضًا جدًا في طنطا؛ لذا لم يستطع حضور حفل زفافي في الصعيد، فاكتفى بإرسال برقية تهنئة بالزواج، فقالت له والدتك: "وهل هان عليك إبراهيم حتى ترسل له برقية تهنئة فقط؟! ألا تعلم أنه بحكم علاقتك به وحبك له ينبغي عليك أن تكون أول الحاضرين؟".

يقول الأستاذ إبراهيم شرف (رحمه الله): "ما إن سمع الوالد الكريم منها ذلك حتى تحامل على نفسه، ونفض عن نفسه فراش المرض وارتدى ملابسه، وسافر إلى حيث حفلة الزفاف، وما إن رأيناه جميعًا حتى دهشنا! فجميعنا يعلم بمرضه ولا يتوقع أحد مجيئه، ولكن لا تدري كم فرحنا بقدومه حفلة الزواج وكم سعدنا به، وعلمنا فيما بعد أن حضوره إلى الصعيد لم يكن إلا استجابة لطلب الوالدة الكريمة التي كانت تعتبرني واحدًا من أولادها، وكنت كذلك أعتبرها أمًا لي، رحمها الله رحمة واسعة، وأسكنها فسيح جناته.

☜ عندما علم عبد الفتاح باشا حسن (رحمه الله) - الوزير السابق في حكومة الوفد وعم الوالد - بمرض والدتي الأخير وحالتها الصحية المتردية، حزن حزنًا شديدًا، يقول الوالد: "لقد صمم عمي عبد الفتاح على الحضور بنفسه للاطمئنان عليها".

وجاء عبد الفتاح باشا بمكانته التي يعلمها الجميع إلى مستشفى المبرة بطنطا خصوصًا لهذا الأمر، وقف الرجل على باب حجرة والدتي لفرط أدبه واحترامه لها، وتمنى لها الشفاء العاجل، وسأل الله أن يجعل مرضها ومعاناتها في ميزان حسناتها، ثم قال لها: "لقد رفعت رؤوسنا جميعًا وكنت مصدر عزة وكرامة لكل العائلة بمواقفك الكريمة والعظيمة، فجزاك الله عنا خير الجزاء وأوفره".

☜ **وفي رسالة من الوالد الكريم للوالدة الحبيبة قال:** "إني أكتب إليك حينما يشتد بي الخطب، ويصعب عليّ الأمر لأنفّس عن نفسي وأريح قلبي؛ أحييك على بعد المكان لوقوفك موقف المؤمنات الصابرات المجاهدات، وأدعو لك بالصحة والعافية والعفو من الله تعالى".

وفي رسالة من الوالد الكريم لابنته الكبرى إحسان قال: "أبلغي والدتك صادق شكري وعميق تقديري؛ فإن كل بادرة خير تصدر منكم هي من غرس يديها وجميل صنعها وكريم أصلها وطبعها، جزاها الله عني وعنكم أفضل الجزاء".

وفي رسالة لابنه محمد الأمين قال: "أيها الابن البار، لقد أعدت لنا بذكرياتك الجميلة الواضحة جزءًا من شبابنا البعيد، تلصق بنا هذا المجد الوضيء... وتذكرنا بأمك الطاهرة... هذا الملاك الذي شاركنا عبادة الله الرحمن الرحيم، وأعاننا على الصمود في وجه الأحداث والعقبات، وأظهرنا برونق المجاهدين، فجزاها الله خيرًا على ما قدمت من جهد عظيم وعمل مجيد.

☜ **أما ابنتها الكبرى إحسان، فتقول:** "لأني أكبر الأبناء - سنًا لا مقامًا - فقد قدر الله لي ألا أفارق والدتي، فحظيت بأمومتها منذ ولدت وحتى لَقِيَتْ ربها، ومن ثم فقد عاصرت كل الهموم التي واجهتها، وقد قدر الله لي أن أرى وأنا صغيرة بعض المواقف التي لم أستوعبها لصغر سنّي، ولكن أدركت فيما بعد كيف كانت الأمور تسير بينهما في إطار من التفاهم، وكيف كانت

حياتهما الزوجية نموذجًا للحياة الزوجية القائمة على شرع الله، وكيف كانت أسرتنا مثلا للأسرة المسلمة التي يشعر كل طرف فيها بحبه واحترامه وتقديره للآخر.

أذكر عندما كنت في السابعة من عمري أن أبي أعطى ما معه من نقود للوالدة قائلاً: "عليك تدبير أمور البيت بهذا المال حتى يتم صرف الراتب الجديد أول الشهر"، وبعد رجوع والدي من العمل عاد يطلب منها ما أعطاها في الصباح فلم تحتجّ على ذلك، بل أعادت إليه المال وهي باسمة راضية.

وفي موقف آخر كانت والدتي تغسل لوالدي ملابسه، فطلب الجديد منها لإعطائها لشخص ما دون أن يذكر اسمه سترًا له، فلم يدفعها الفضول لتسأل والدي: من هذا الشخص؟! ولكنها طلبت منه أن ينتظر حتى تجف الملابس، فقال: "سوف آخذها على حالها"، فلم تحتج لأنه طلب الجديد من الملابس أو لأنه يريد أن يأخذ الملابس وهي ما زالت مبتلة؛ بل قدمتها في بشاشة كاملة ما دام ذلك في طاعة الله (عَزَّوَجَلَّ).

كانت أمي تمتلك نفسًا عاطرة بالبذل والوفاء، وكانت تشجع والدي على الصدقة؛ فقد كانت هي نفسها شديدة العطف على الفقراء رغم ظروفنا التي غالبًا ما كان يعتريها الضيق. وأذكر يوم طرقت امرأة فقيرة بابنا في أحد أيام الشتاء الباردة، فأطعمتها أمي بما جادت به نفسها السخية؛ ولما تلمست المرأة الفقيرة الرحمة في قلب أمي طمعت في المبيت؛ ورأت أمي خوفنا منها، فأخذتها إلى غرفة على السطح جَهّزتها لها ودعتها لقضاء الليلة فيها، وفي الصباح أطعمتها وأحسنت إليها، فمضت المرأة بعد أن دعت لها كثيرًا. وبسبب عمل أمي الحبيبة الطيب هذا وغيره كثير كان الله (عَزَّوَجَلَّ) يبارك لنا في القليل فيصبح بفضله كثيرًا.

لقد تكاثرت عليها المحن والمصائب بعد اعتقال أبي، فلم تتجه أمي إلا لله (ﷻ) لطلب العون؛ فقد كان قلبها عامرًا بنور الإيمان، ولا تستعين إلا بالله، ولا تيأس من رحمته أبدًا؛ وكان من فضل الله الحليم الكريم علينا أن والدتي كانت حسنة التصرف بفضل ما وهبها الله من الفهم والوعي وما أنعم عليها به من الحكمة والحنكة، فله الشكر والحمد على ما منّ به علينا وعليها. فقد استطاعت أمي بحكمتها التي وهبها الله إياها وإيمانها أن تربيني وإخوتي على المبادئ والمثل العليا وعلى مراقبة الله، فنشأنا على حسن عبادة الله (ﷻ) وطاعته، كما أني لن أنسى ما حييت فضلها عليّ وعلى أبنائي، فقد كانت (رحمها الله) تحبّ أبنائي حبًا يفوق الوصف وكانت دائمة الدعاء لهم، كما قامت بمساعدتي في تربيتهم وفي جعلهم يتفهّمون الوضع الذي نعيش فيه، وقد ساعد على ذلك أنني بعد زواجي أقمت معها في الشقة لفترة أنجبت فيها أكبر أبنائي "محمدًا"، ثم إيمان؛ وبعد ذلك انتقلت إلى شقة في الدور العلوي في العمارة نفسها، وبذلك نعمت بصحبتها، وكان لديّ فرصة لأتعلم منها الكثير؛ فتعلمت الصبر والاحتمال والرضا بما قسم الله، كما تعلمت احترام الزوج مهما كانت ظروفه، وغير هذا الكثير مما حرصت على أن أغرسه في أولادي وبناتي.

وكانت والدتي تحب كل أقارب والدي... تحبهم وتكرمهم غاية الإكرام حبًا للوالد الحبيب وإكرامًا له، ولأنهم فعلاً كانوا يستحقون هذا الحب والإكرام، وكانت تستريح بصفة خاصة لعمتي الحبيبة، وكذلك جدتي لوالدي، وكان هذا الشعور متبادلاً، فقد كانت جدتي هذه تحبها حبًا خالصًا لله، وكذلك عمتي كانت تحب أمي حبًا لا يمكن أن يتخيّله أحد، وفي الواقع كانت والدتي قريبة من قلب من حولها.

وكانت أمي تمتلك عزة نفس ليس لها نظير، بل كانت أغنى الناس نفسًا... استغنت عن الناس فأغناها الله من فضله، وقد غرست فينا هذه العزّة، فقد كنّا نعيش في حال لا يعلمها إلا الله بعد غياب والدي الذي لم يترك لنا إلا أمًا قنوعًا

عفيفة عاشت تغرس فينا الشعور بالقناعة والرضا بما قسم الله لنا، وعلمتنا أن نرضى بظروفنا على أية حال، فإذا ارتدينا القديم رضينا وإذا لبسنا الجديد سعدنا، وإذا أكلنا خبزًا قنعنا؛ وإذا رزقنا لحم طير حمدناه سبحانه، وصدق رسول الله (ﷺ): "ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس" (رواه أحمد).

وكانت دائمة الزيارة لوالدي مهما كانت الظروف، حتى عندما رحل بعيدًا إلى الواحات الخارجة لم تتوقف عن زيارته رغم مرضها ورغم طول السفر، فقد كانت تبيت أحيانًا بالقطار بصحبة أخي خالد (رحمه الله) أو أخي محمد الأمين، وبعد كل هذا العناء والمشقة كانت لا تحظى إلا بزيارة مدتها قصيرة، ولكنها كانت تتقبّل هذا الأمر برضا نفس وسعة صدر، محتسبة كل هذا عند أرحم الراحمين.

ولما خرج الوالد من السجن لم تعش أمي معه إلا ثلاثة أعوام، قضت أكثرها مريضة، ولكنها صبرت حتى لقيت ربها راضية مرضية، وقد لحق بها الوالد بعد خمس عشرة سنة، أسأل الله العلي القدير أن يسكنهما فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

☜ **وقالت ابنتها إقبال:** "لا أدري لماذا أشعر بخوف واضطراب وأنا أحاول الحديث عن هذه الإنسانة العظيمة القريبة جدًا إلى قلبي، والتي تعلمت منها الكثير، وإن كنت قد عجزت أن أكون مثلها؛ وللحق لقد شعرت بسعادة كبيرة لهذا التكريم الذي حباها الله به الآن، وهي وإن كانت قد ماتت فإن الذكرى الطيبة تعيش أبدًا.

لقد كانت والدتي على قدر كبير من الصبر والكفاح والعطاء وقوة الإيمان؛ وكم تحملت قسوة الحياة ومرارتها أثناء غياب والدي عنا، ولن أنسى ما حييت رجال المباحث الذين كانوا يأتون ليلاً بحثًا عن الوالد فيحطمون كل ما يقع تحت أيديهم، ويلقون في قلبي وقلب إخوتي الرعب والفزع؛ ولن أنسى الكشك الذي كان مقامًا

أمام البيت وبه مخبر يَعدّ علينا أنفاسنا، ويراقب كل من يدخل أو يخرج من البيت، ومن أطرف ما يمكن تسجيله أن أحد الجيران جاء إلى بيتنا "بشوال" ذرة يحمله على حماره لكي تطحنها والدتي وتعد لنا منها خبزًا، فتم القبض على الرجل والحمار وساقوهما معًا إلى قسم الشرطة، متهمين إياه بأنه كان يحمل قنابل إلى دارنا.

كذلك لن أنسى يوم حضر الأقارب لوالدتي، محاولين الضغط عليها لتترك الوالد وشأنه وتتركنا لأهل الوالد، بدعوى أنهم لا يعرفون مصيره ومتى يخرج، ولكني رأيت كيف واجهتهم والدتي الحبيبة، وكيف أعلنت لهم بإصرار أنها مهما لاقت من عناء ومشقة، فلن تتخلى عن والدي ولن تتركه أو تتركنا، بل ستبقى بجانبنا أبدًا؛ فلما يئسوا من إقناعها، تخلّوا عنها وتركوها تواجه حياتها التي رضيت بها مختارة، فتوكلت أمي على الله وحده ولم تمدّ يدها لبشر، بل واجهت هذه المحنة بكل قسوتها بلا عون أو مساعدة من أحد بعد أن تخلى عنها أقرب الناس، وأخذت تبيع كل فترة جزءًا من أرضها لتنفق علينا.

وأذكر أنها كانت تحملنا صغارًا لزيارة الوالد في كل السجون، ولا أستطيع أن أصف المشقة التي كانت تواجهها في كل رحلة من هذه الرحلات، وما كانت تلاقيه من خوف، ورغم ذلك لم تكن تحكي لوالدي شيئًا عن عناء رحلتها؛ ولم تكن تنقل له عن أحوالنا إلا كل صورة طيبة رغم ما كنّا نعانيه من مرارة الحياة، وعندما لقي شقيقي الأصغر خالد ربه صبرت واحتسبت ورضيت بقضاء الله وقدره، وظلت شهورًا تخفي خبر وفاته عن والدي، حتى أخبره شقيقي عبد الحميد، وعندما قابَلَتْه والدتي بعد ذلك، أخذت تواسيه وتخفف أحزانه.

وأجمل ما يمكن أن أسطره أن أمي أثناء غياب والدنا عنها طوال هذه السنين كانت دائمًا راضية صابرة... تدير شؤون البيت بتوفيق من الله العلي القدير، وكانت تحكي لنا ونحن أطفال عن الوالد وعن حنانه وبشاشته، فكنا نشعر من

كلامها أنه كان ملاكًا وكنا نشتاق للقياه، وعندما خرج وجدناه فعلاً نعم الأب الرحيم الحنون.

أما قصة زواجي وموقف أمي منها فهي قصة تحمل في طياتها كل معاني الرضا والصبر على قضاء الله وقدره... فقد اختار لي الوالد (رحمه الله) أحد الإخوة الذين شاركوا الوالد محنة السجن، وهو الأخ سعيد منسي (رحمه الله) ليكون زوجًا لي، ولقد اعترضتُ على ذلك الاختيار؛ لأني لم أكن أريد لأولادي أن يمروا بذات التجربة القاسية.... تجربة الحرمان من الوالد التي مررت بها، ولم أكن أريد أن أربيهم بعيدًا عنه، ولكني وجدت نفسي أمام أُمّ صابرة عاقلة أشعرتني في حديثها بكل اطمئنان لاختيار الله (سبحانه وتعالى)، وحثتني على الصبر والرضا، فاقتنعت بكلامها ووافقت في النهاية.

تم عقد الزواج وهو في السجن، وكنت أذهب لزيارة زوجي كما تذهب أمي إلى والدي، ولكني كنت أعود حزينة أسائل نفسي: لماذا هذا الأمر؟! ولكن ما إن كانت أمي تحادثني بحديثها العذب الطيب الذي يحمل كل معاني الإيمان والتسليم والرضا بقضاء الله حتى كان حديثها يطفئ كل ما في قلبي من حزن وألم.

مرت السنون وخرج زوجي قبل والدي بعامين، وكانت فرحة أمي به لا توصف، وتزوجنا، وكان نعم الزوج الصالح الأمين الذي غمرني بحبه، محاولاً تعويض سنوات الغياب في السجن؛ وكان حنونًا عطوفًا... يقضي يوم العيد مع أولاد شقيقتي إحسان، فيعطيهم "العيدية" في صباح العيد ويوزع عليهم الهدايا؛ جبرًا لخاطرهم بسبب ظروف مرض والدهم.

وقد اختار الله زوجي الحبيب سعيد منسي بعد حوالي عشر سنوات من زواجنا بعد معاناته من التعذيب في السجون، رحمه الله رحمة واسعة، وجعل مثواه الفردوس الأعلى.

أما والدي فعندما خرج من السجن فرحت والدتي بعودته إلينا فرحًا شديدًا، وعاملته ألطف وأكرم معاملة يمكن أن تتعامل بها زوجة مع زوجها، وظلت على ذلك حتى أثقلتها الأمراض، لكنها صبرت صبرًا جميلاً حتى توفاها الله (عَزَّوَجَلَّ) وهي راضية عنا جميعًا، رحمها الله وألحقنا بها في الفردوس الأعلى.

☜ **وعندما سئلت الأخت زوجة الأخ حمزة صبري** في موقع على الإنترنت عن مثلها وقدوتها قالت:

"إنها زوجة الحاج **أحمد البسّ**، فقد كانت قريبة من قلبي، وهي قدوتي في الصبر والتحمل، فقد غاب عنها زوجها طوال أيام عبد الناصر، فصبرت واحتسبت، وربت أولادها على خير وجه".

☜ **وتقول الأخت زينب رسمي - زوجة ابنها محمد الأمين -:**

"إنني أشعر برضا الله عني لأنني شرفت بلقاء الوالدة الكريمة عدة مرات، ويعلم الله كم أحببت هذه الأم الحنون التي مهما أثنيت عليها فلن أوفيها حقها، والله سبحانه هو القادر على أن يجزيها خيرًا.

لقد رأيت بعيني كيف كانت تحرص على مساعدة الناس بكل ما تملك، ولقد ساعدتني أنا شخصيًا عندما كنت أعد لزواجي، حيث أوصت ابنتها الأخت "إحسان" بمساعدتي في حياكة ثوب زفافي وإعداده؛ فقد كانت تعاملني كابنتها تمامًا.

وعندما مَرضَتْ سخّر الله لها من أحبابها وأخواتها من يرعاها ويحنو عليها ويخفف عنها، ولن أنسى شقيقة الوالد أحمد البس بصفة خاصة التي كانت ترعاها في مرضها في محبة وحنان لم أرَ مثلهما ما حييت، فسبحان الذي سخّر لها هذه القلوب الحنونة المحبة.

☜ **وتكتب الأخت الفاضلة مريم السيد هنداوي** على صفحات مجلة المجتمع الإسلامية الكويتية تحت عنوان: "نساء مجاهدات في العصر الحديث"

زوجة أحمد البس وفن إدارة الأزمات – صبر عند البلاء ووفاء في الضراء:

"لقد ظهر معدن الزوجة الصالحة وقت الأزمات، ففي الفترة التي اعتقل فيها زوجها ومكث بالسجن عامًا ونصف العام من خمسة فبراير ١٩٤٩م حتى ستة يونيو ١٩٥٠م، كانت صابرة محتسبة، وقامت على تربية أطفالها فأحسنت نشأتهم، وكانت طوال فترة اعتقاله نعم الزوجة العفيفة التي رغم ضيق ذات اليد لم تطلب من أحد المساعدة، وبعد أن خرج زوجها وجدها صابرة راضية بقضاء الله وقدره ووجد الأولاد في أحسن حال، لكنه لم يمكث كثيرًا فقد اعتقل ثانية يوم الأربعاء الثالث عشر من يناير ١٩٥٤م مع مجموعة كبيرة من الإخوان، ثم أفرج عنه في السادس والعشرين من مارس ١٩٥٤م، ثم اختفى عن البيت لعشرة أشهر، ثم سجن لثمانية عشر عامًا؛ فاستطاعت رعاية أولادها في هذه الفترة".

☜ **وعلى أحد المواقع الإلكترونية**، وتعليقًا على ما كتبته الأخت الفاضلة **مريم السيد هنداوي**، كتب أحد الإخوة يقول: "بعد أن قرأت عن هذه المرأة الصالحة الصابرة زوجة الداعية الحاج أحمد البس، أجد أننا في حاجة ماسة لجمع مثل هذه المذكرات القيمة من واقع حياتنا المعاصرة كتراث لتكون زادًا لأخواتنا الفضليات في زمن ادْلَهَمّت به الخطوب، وأصبح أهل الباطل يتربّصون بالكوادر الإخوانية لزَجّها في السجون، وذلك حتى تقرأ الأخوات عن هذا الوفاء النادر والصبر الجميل، فاعرضوا مزيدًا من تلك القصص علينا لتنير لنا الطريق ولتتأسى زوجاتنا وأخواتنا بهؤلاء النساء الصالحات الفاضلات، فهنّ المثال الحي في التحلي بالفضائل؛ رحم الله أختنا الفاضلة زوجة الحاج أحمد البس، ورحم الله شيخنا الفاضل الذي تعلمنا منه الكثير، وجمعنا وإياهم في الفردوس الأعلى، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا".

☜ **ويقول ابنها محمد الأمين:** إن فكرة الكتابة عن والدتي هي فكرة طيبة، فمثلها تستحق أن يخصص لها كتاب تتعلم منه الأجيال، وقد أذن الله أن يتحقق هذا الأمر عن طريق أخي الحبيب الأستاذ الدكتور عبد الحميد؛ والحقيقة أن مشاعري نحو أمي الغالية أكبر من كلماتي، فأمي كانت نموذجًا فذًا في صبرها وثباتها، في عطائها ووفائها، في عزّة نفسها وشموخها، نموذجًا يستحق أن يُدرس؛ لتتعلم منه الفتيات سمات الأم المتفانية والزوجة الصالحة.

لقد كانت أمي ونحن أطفال تنشر علينا جناحيها لننعم بدفئها، وتغرس فينا الفضائل، وتغدق علينا الحنان، ووالله ما أكلتْ أمي حتى نشبع، ولا نامت حتى ننام، ولم يكن يهدأ لها بال إذا ألَمَّ بأحدنا مكروه حتى تراه بعافية؛ وكم انكفأت على ماكينة الخياطة تعد لنا الجديد من الثياب، يفرح قلبها لفرحنا دون أن تبالي بانحناء ظهرها أو عناء بصرها؛ ولا أذكر أن عيني رأت أو أذني سمعت منها إلا كل ما هو طيب وكريم، فقد كانت (رحمها الله) تراقب الله في كل أحوالها.

وعندما عرضوا عليها ترك شقتنا والإقامة في "القضابة" - بلد الوالد - رفضت قائلة: "لقد تركهم أبوهم في هذه الشقة، وسيعود إليهم بإذن الله في المكان ذاته".
وعندما قُطِعَ راتب والدي الذي كان مديرًا لمدرسة، رفضوا صرف معاش له، زاعمين أنه لم يؤدِّ خدمات جليلة للدولة (ولو كان مطربًا أو ممثلاً لزعموا أنه يستحق معاشًا استثنائيًا)، ونتيجة لهذا الوضع اضطرت أمي لبيع كل ما تملك من أرضٍ زراعية، وكذلك نصيبها في بيت أبيها قبل أن تتصرف في أملاك والدي؛ ومع ذلك فكم من المرّات نفدت النقود من يدها، ومنا من يحتاج إلى دواء أو غذاء أو كساء، فكانت تتوضأ في الشتاء القارص بماء في برودة الثلج، وتقف في خشوع بين يدي أرحم الراحمين تشكو إليه ضعفها وقلة حيلتها، وتسأله أن يرزقنا من حيث لا ندري ولا نحتسب.

وبالنسبة لزيارة الوالد، فقد كانت كفارس أقسم ألا يترك سيفه أو يخلع درعه أو يتزحزح عن صهوة جواده، تنطلق من سجن إلى سجن ومن بلد إلى بلد تحمل معها الطعام والكساء والدواء، وتحمل بين جوانحها ما هو أغلى من ذلك، تحمل مشاعر الزوجة الوفية التي تمسح عن قلب زوجها الأحزان وتملأ صدره بشحنات من الفرح والسرور بعد أن تلقي تحت قدميها مشقة السفر ومضايقات العسكر، وصرامة الإجراءات، وملامح الحزن والأسى، وتدخل إلى أبي بوجهٍ تكسوه ابتسامة مشرقة ويعلوه بريق الإيمان يكاد يهتف: "إن فرج الله قريب ونصر الله آت". رحم الله أمي؛ فقد كانت لأبي حسنة الدنيا ولنا خير الأمهات.

☜ **ويقول ابنها حسن الإمام:** لقد واجهت والدتي محنًا شديدة ومصاعب جمة، مثلها مثل والدي، مع فارق واحد أنها لم يكن معها مثله صحبة تواسيها، ومع ذلك فقد كانت تستشعر دائمًا معية الله الذي أيّدها بنصره، وزادها عزمًا وقوة يومًا بعد يوم.

وكانت والدتي تتّسم بالجود والكرم، ولا أذكر أنها ردّت سائلاً يومًا، حتى لو كانت تحتاج إلى ما يطلبه منها، وهي صفات بثتها فينا، فتعلمنا منها أن ما في أيدينا ليس لنا. ولم أرها يومًا تسيء إلى أحد بالقول أو بالفعل أو تقابل سيئة بمثلها، بل كانت تتعامل مع من حولها بالحسنى، وتوجه الجميع بالحكمة؛ ومن دلائل عفوها وكرمها أنه كان لنا جيران ميسورو الحال، وكانوا شديدي الإيذاء لنا؛ وفي يوم طرقوا بابنا يطلبون منا دواء القلب الذي كانت تستخدمه والدتي لابنتهم المريضة، فما ردّتهم أمي، بل على العكس، حرصت على شراء زجاجتين للدواء: واحدة لاستخدامها الشخصي وأخرى لبنت الجيران، هكذا عهدناها؛ تعفو عمن ظلمها، وتصفح عَمّن أساء إليها.

وكانت والدتي تكرم ضيافة كل من دخل بيتنا، وكنتُ أعجب للبركة التي كان الله (جل جلاله) يحلّها في الطعام، فقد كان يكفي الجميع ويفيض؛ ومن دلائل

كرمها أنها ما وجدت أسرة لديها عروس مقبلة على الزواج إلا ساعدتهم بقدر ما تطيق، كأن تساهم مثلاً في تجهيز الملابس أو غير ذلك من الأمور التي قد تحتاج إليها العروس.

هذه هي أمي الحبيبة، وهذه هي بعض سمات شخصيتها التي استحقت بها حبّ الناس واحترامهم؛ فقد كانت حبيبة قريبة لكل من عرفها أو تعامل معها، وصدق رسول الله (ﷺ):

"وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله" (رواه الشيخان).

☜ **ويقول الأخ علي لبن:** عذّب الحاج والأخ الكريم أحمد البس (رحمه الله) تعذيبًا وحشيًا باستخدام الكرابيج والكلاب المدربة والأسياخ المحماة، حتى أصبح غير قادر على الأكل أو الشرب أو استخدام دورة المياه، ولم يكن يعيش إلا على الماء فقط ينقّط له من بين شفتيه المتورمتين؛ واستمر توقف دعم الإخوان له طوال فترة اعتقاله، بالإضافة إلى قطع راتبه عنه، وكانت أم الأولاد نموذجًا لا يقل في صموده عن نموذج الحاج أحمد (رحمه الله)، حيث أتمّت تعليم أولادها في كل المراحل التعليمية دون أن تستعين بأحد، وقد قامت هذه الأم الفاضلة بتربية أولادها على خلق التعفف والإباء، وهذا ما لمسته فيهم، وكان خلق الإباء من أهم صفات الحاج أحمد أيضًا، وكيف لا يكون هذا خلقها والله تعالى يقول: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ (النور: ٢٦).

وقد حدث في هذه الفترة أن تقدّم الأخ الحاج **أبو اليزيد الملاح** للزواج بإحدى ابنتي الحاج أحمد، وكان أبو اليزيد بذلك العمل أفضلنا؛ حيث لم يؤثر العافية مع "جهاز أمن الدولة"، وتقدم بشهامة لمصاهرة الحاج أحمد، وما كاد يفعل ذلك حتى قامت قيامة "أمن الدولة"، واستشاطوا غيظًا، فحاربوا الرجل في رزقه وبددوا تجارته، ثم قاموا باعتقاله، وَمَكَثَ معنا في المعتقل بضع سنين، وأفرجوا عنا قبله، زيادة في

كيدهم للحاج أحمد (رحمه الله)، وكانت زوجة الحاج أحمد هي المتكفّلة بتربية أحفادها أولاد الحاج أبو اليزيد ورعايتهم مدة اعتقاله، وذلك بتثبيت الله لها وعونه.

هذا فضلاً عن أن ابنة الحاج أحمد الثانية قد تزوجت من الأخ **سعيد منسي** بعد الإفراج عنه من سجنه الذي كان فيه مع الحاج أحمد، وقد توفّي الأخ سعيد (رحمه الله) بعد عدة سنوات متأثرًا بالتعذيب.

وقد لاحظت أن هذه الأسرة يسود بين أفرادها ترابط وتراحم لم أشهد له مثيلاً، فعبد الحميد لا يفرق في تعامله بين أولاده وأولاد إخوته وأخته، وبالمثل يفعل شقيقاه، ولله الفضل في ذلك أولاً ثم لزوجة الحاج أحمد التي زرعت فيهم خلق الترابط والتراحم.

☜ **يقول الأستاذ المستشار عبد الله العقيل** في مقاله بالمجتمع تحت عنوان: "من أعلام الحركة الإسلامية المعاصرة"، الداعية الصابر أحمد البس:

"وقد وفقه الله لزوجة صالحة ومربية فاضلة كانت السّند القويّ الذي يشدّ أزره ويؤيد منهج الإخوان المسلمين، وكانت خدمتها لأبناء الدعوة لا تقلّ عن رعايتها لأولادها الذين وفّقها الله لتنشئتهم تنشئة صالحة على مبادئ الإخوان المسلمين، فكانوا قرة عين للوالدين في البر والوفاء والصبر والثبات.

وكتب يقول على لسان الوالد: "شاء الله أن أدخل السجن بسبب انتمائي لجماعة الإخوان المسلمين بعد عشر سنوات من زواجي، وخرجت بعد قضاء هذه المدة الطويلة بعيدًا عنها وعن أولادنا، فوجدت زوجتي أزكى ما تكون زوجة، والأولاد أحسن ما يكونون خلقًا وعلمًا وأدبًا، وقد أراد الله أن تكون محنتي مصحوبة بالعزّة والكرامة؛ فقد كانت هذه الزوجة تجوع وتسهر، وتتألم وتمرض، وتمشي وتسافر، وتحزن وتكدح وحدها وسط هذه المحنة الطويلة العريضة العميقة، بعيدًا عن أسماع الناس وأبصارهم".

الوالد والمستشار عبد الله العقيل في الثمانينيات

حياتها.... كنز العبر

كانت رحلة حياة أمي (رحمها الله) بما ذخرت به من ابتلاءات ومحن كنزًا ونبعًا فياضًا بالدروس والعبر التي أتوقف أمامها، داعيًا كل زوجة وأم، بل كل إنسان، إلى تأملها، لعلها تكون له زادًا في مسيرة حياته، وعونًا له - بعد الله - على اجتياز الصعاب...

نشأة مباركة:

- على الآباء أن يأخذوا بمنهج الإسلام في تربية الأبناء، وأن يسيروا على هدي القرآن حتى يُنْشِئُوا جيلاً قادرًا على رفع راية التوحيد.
- ينبغي أن تُربَّى البنات على طهارة النفس ونقاء القلب وينشّأن على معاني البر والفضيلة؛ حتى يكنّ سترًا لأبنائهن من النار؛ يقول رسول الله (ﷺ):

"من ابتلي من هذه البنات بشيءٍ فأحسن إليهن كنّ له سترًا من النار" (متفق عليه).

- اعتناق مبدأ الوسطية في أمور التربية أمر لازم، دون تدليل زائد يَنشأ عنه ميوعة وانحلال، أو قسوة مفرطة تؤدي إلى تحطيم نفسية الأبناء.
- جسور الصداقة والحب التي تبنيها الأم بينها وبين بناتها تسمح بعلاقة قريبة أساسها التفاهم والحوار، والعطف والود، والرقة واللين، والقرب والإيناس.
- كثير من الآباء يعطي الأولوية في الاهتمام للأبناء ويُضَيّع حق البنات، رغم أن البنات هن نصف المجتمع وأمهات المستقبل وصانعات الأجيال؛ لذا ينبغي إعطاء تربيتهن اهتمامًا خاصًا.
- إن أعظم ما تتزيّن به المرأة هو حسن الخلق، فهو يضفي عليها جمالاً وبهاءً؛ وقد سئل رسول الله (ﷺ): "ما خير ما أعطي العبد؟ قال: خلق حسن"[١].

---

(١) رواه ابن ماجه.

- والحياء هو زينة البنت وأساس الفضيلة وشعبة من شعب الإيمان؛ لذا ينبغي تربية البنات على هذا الخلق الكريم. وصدق رسول الله (ﷺ): "الحياء لا يأتي إلا بخير" (رواه البخاري ومسلم).
- إن التربية الإيمانية المبكرة تساهم في رسم معالم الشخصية، فينشأ الابن معتمدًا على الله، مستعينًا به، متوكلاً عليه، مطمئنًا إلى جنابه (جل جلاله).

زواج في الله:

- ينبغي اختيار الزوج على أساس الدين والخلق وتقوى الله، حتى لو كان فقيرًا فالله هو الرزّاق الغني؛ وصدق رسول الله (ﷺ):

"إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض" (رواه الطبراني).

إن الحياة الزوجية تعني حياة المشاركة وليست حياة التباعد، وتعني حياة الانفتاح على هموم الزوج وحاجاته، وليست حياة الانغلاق على الذات، وتعني وجود الزوجين في قارب واحد في مواجهة بحر الحياة الهائج، لا تخلّي كل منهما عن الآخر.

- إن حب الزوجين لا جدوى منه ما لم يمتزج بحب الله (جل جلاله)، وما لم يثمر المودة والرحمة، وما لم يصاحبه إيثار وتضحية، وصدق الله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١).
- الزوجة الصالحة تسعى لإرضاء زوجها وطاعته، وتحرص على مشاعره، وتدرك احتياجاته ومتطلباته، وتقدر عمله، ولا تكلّ أو تملّ من خدمته وخدمة ضيوفه، بل تفرح بمقدمهم، وتكرمهم بنفس راضية.
- إن الحياة الزوجية لا تقوم على أساس متين ما لم يلتقِ الزوجان على معنًى، ويتفقا على غاية، وما لم يزكِّ كل طرف نفسه ويعمق صلته بالله (عز وجل)، وما لم يظهرا انقيادًا واستسلامًا لله رب العالمين.

- كثير من البيوت يتسع الشقاق فيها وتنهار بسبب سوء العشرة، أما حسن العشرة فهو ترياق الحياة الزوجية والمرفأ الآمن الذي يجد كل من الزوجين في ظله السكن النفسي والسعادة الزوجية.

- على كل زوجة، تقف خلف زوجها في السراء والضراء، أن تستحضر أجرها عند مولاها (تبارك وتعالى)، فذلك يجعلها تجد لذة في الصبر، ويهون عليها عَنت الحياة ومشقة تربية الأبناء.

الوفاء إمرأة:

لقد سطرت نساء الإخوان بأحرف من نور نموذجًا خالدًا للوفاء، فرغم تتابع الابتلاءات والمحن لم تتغير قلوب أكثرهن نحو أزواجهن، بل ظللن يَحْتَرِقْنَ مثل الشمعة من أجل مساندة الأزواج والوقوف خلفهم وتقوية عزائمهم، واستنهاض هممهم، ومن أجل تربية الأبناء وإصلاح حالهم وتصحيح مسارهم حتى ربين جيلاً يحمل الأمانة، ويُرْجِعُ المجد، ويحقق الغاية.

قد تفرض الظروف على المرء أن يقوم بأدوار أكبر منه في هذه الحياة، أدوار تمليها الظروف وتفرضها الشدائد، ولا يجد عليها عونًا إلا من الله سبحانه.

لقد أبت نساء الإخوان استبدال الحياة الرغيدة الناعمة بحياة الشظف والابتلاء، وآثرن انتظار أزواجهن في ظروف غاية في القسوة والمرارة؛ إيثارًا لما عند الله (ﷻ) من الأجر والثواب، وعشن يسطرن بوفائهن ملحمة الحياة الكريمة الفاضلة.

إذ جابت زوجات الإخوان الوفيات أرض مصر في صبر ورضا وهمة ودأب، مؤازرة لأزواجهن، والتماسًا لرضا الله (جل جلاله)، غير آبهات بما قد يصيبهنّ من مشقة أو عنت، محتسبات خطواتهن جهادًا في سبيل الله.

قد يعيش المرء حياته في صمت وهدوء لا يعرفه أكثر الناس، رغم ما هو عليه من خير وتقوى وصلاح، وقد يكون الإنسان معلومًا للصغير والكبير وهو لا يساوي عند الله جناح بعوضة، ونساء الإخوان الصابرات كُنَّ من الأتقياء الأخفياء الذين إذا حضروا لم يُعرفوا وإذا غابوا لم يُفتقدوا، فقد عشن حياتهن في صمت؛ يبذلن غاية الجهد دون أن يدري بِهِنَّ أحد، فَكُنَّ يَكْدَحْنَ وَيَمْرَضْنَ، ويتألَّمن ويحزنّ وحدهنّ، بعيدًا عن أسماع الناس وأبصارهم، وحسبهن أن أعمالهن محفوظة عند الذي لا تضيع عنده الأجور.

عاشت زوجات الإخوان الوفيات يبعثن الأمل ويزرعن الرجاء دون أن يعرفن ضعفًا ولا تفريطًا، ولا ذلةً ولا استسلامًا، وارتضين طريق الدعوة بكل رضًا وتسليم لله (جل جلاله)؛ إيثارًا لما عنده سبحانه من رفيع الأجر وعظيم الجزاء.

الصبر مفتاح الرضا:

- إن طرق الدعوات محفوفة بالمكاره مليئة بالأشواك، فعلى الدعاة أن يصبروا على الكرب الذي يصيبهم، والبلاء الذي يعمهم، محتسبين أجرهم عند الله (جل جلاله).
- لقد ضربت نساء الإخوان أروع الأمثلة في الصبر، وكن طرازًا فريدًا من الزوجات المؤمنات، ونموذجًا فذًا من الأمهات الصابرات.
- المحن من مقادير الله (سبحانه وتعالى) الذي لا يُقدر للمؤمن إلا الخير، لذلك فقد اقتلعت نساء الإخوان جذور اليأس من قلوبهن، وزرعن بدلاً منها بذور الأمل والصبر واليقين والرجاء في الله (سبحانه وتعالى) الذي أكرمهنّ بمعيته، وتداركهن برحمته، وأحياهن بفضله وكرمه شامخات كريمات.

- إن الصيام يعين على الصبر، ويربي الصمود، ويقوّي الإرادة، ويزكّي الروح، ويسكب في النفس السكينة، ويعينها على تحمل شظف العيش، ويجعلها تدرك مشاعر المحرومين والمعذبين فتندفع إلى البذل والإيثار.

- المؤمنة الصابرة تكون نموذجًا طيبًا في الرضا ومثلاً أعلى في الثبات، وهي لا تحزن على مفقود ولا تفرح بموجود، بل هي صاحبة نفس مطمئنة إلى قدر الله، ترضى بما قسم الله لها.

- إن الشدائد تفتح في القلب مسارب ما كان يعلمها المبتلى إلا تحت مطارق الشدائد، فيستيقظ القلب من الانغماس في ملهيات الدنيا، ويؤوب إلى الله خاضعًا متذللاً رافعًا راية العبودية، وهي أشرف منازل الدنيا.

- يبتلي الله تعالى عباده الأخيار على قدر ما آتاهم من إيمان وصبر، ويكون الابتلاء أشد ما يكون في الأنبياء، ثم يليهم في الابتلاء الأمثل فالأمثل.

- هناك دائمًا من خلال المحن والابتلاءات مِنَنٌ تتجلى فيها الرحمات، ونعم يطيب بها العيش، ولكن لا يستشعر هذا إلا النفس الصابرة الراضية بعطاء الله التي يملؤها الشعور بالقناعة ويعمرها الرضا عن الله (ﷻ).

التوكل حصن المؤمن:

- التوكل على الله هو تفويض الأمر تفويضًا كاملاً لله (ﷻ) بعد الأخذ بالأسباب، فيكون ذلك سببًا لجلب الخيرات لنا ودفع المكروهات عنا من غير حول لنا ولا قوة.

وهو أيضًا شعبة عظيمة من شعب الإيمان، ومقام رفيع من مقامات الربانيين، وهو دليل على صحة الإسلام، كما قال تعالى:

- إذا صدق توكل العبد المؤمن على الله، فإن الرزق يأتيه في أحلك الظروف من غير حول منه ولا قوة؛ مصداقًا لقول رسول الله (ﷺ):

"لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانا"[١].

☜ إن التوكل على الله هو الركن الركين الذي نستند إليه، والحصن الحصين الذي نلوذ به في مواجهة تقلبات الأيام، والشعلة التي نستضيء بنورها في دروب الحياة، والمؤمن يجد في التوكل على الله ملاذًا من أذى الخلق؛ لأنه يعلم أن الله حسبه وكافيه وناصره.

البعض منا لا يملك الكثير، ولكن بتوكله على الحي الذي لا يموت يفتح الله له أبواب الخير من غير حول منه ولا قوة: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: ٢ - ٣).

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٨٤).

☜ الأولى بنا جميعًا أن نتذكر مقولة أمنا هاجر "إذًا، لا يضيعنا الله"؛ حتى نعيش الذكرى ونحيي السنة ونحسن التوكل على الله، فنحن جميعًا إلا من رحم الله نحمل هَمَّ الحاضر ونخاف من المستقبل، ونعتمد على الأسباب، وننسى خالق الأسباب، وحريٌّ بنا أن نتذكر أن التوكل على الله جزء من الإيمان وصدق الله العظيم: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦).

العزة في مواجهة البغي:

لم ترَ نساء الإخوان في سجن الأزواج يومًا ذلاً ولا صغارًا كما أراده الحاقدون، بل شرفًا وسموًا وتكريمًا، وكان مصدر فخر واعتزاز لهن كونهن زوجات لهؤلاء الدعاة الذين جاهدوا لإعلاء راية لا إله إلا الله.

---

(١) رواه الترمذي.

فقد قدمت نساء الإخوان تراثًا ضخمًا من المواقف التي تذهل الأسماع وتدهش القلوب بالوقوف في وجه الهجمة الشرسة التي تعرض لها الأزواج وتعرضن لها وهن مرفوعات الرأس... لا يقبلن ضيمًا ولا يرضين ذلاً.

رغم أن الإخوان كانوا يسلسلون بالحديد، ويكسرون الحجارة في الجبال، وتنهال عليهم صنوف التعذيب، فإن كل أخ كان يعيش في سجنه عزيزًا كريمًا مرفوع الهامة معتزًا بربه وإسلامه.

إن المؤمن الصادق الذي يبذل نفسه في سبيل الله يستهين بأهل الظلم والبغي، ويعتزّ بانتسابه لدعوة الإسلام، ويلوذ بجناب الله الذي يحييه عزيزًا كريمًا مرفوع الهامة.

رغم تعرض بعض نساء الإخوان لسياط العسكر الهادرة فإن نفوسهن لم تضعف، بل صبرن واحتسبن وشمخن بإيمانهن؛ وإني أسأل الله (جل جلاله) أن يرحم كل من أُوذِيَ في هذه المحنة من نساء الإخوان ورجالهم رحمة واسعة، ويتقبلهم في الصالحين من عباده.

من شاء أن يعيش عزيزًا فليلتزم بشرع الله ويخضع لأوامر الله رب العالمين، وسنة رسول الله (ﷺ)؛ فهذا هو الذي يضمن لنا العودة إلى عزتنا التي افتقدناها بالبعد عن الله، ولم يكن لنا من نصيب في الحياة الدنيا إلا الذل والهوان.

إن الإسلام يؤكد كرامة المؤمن وحرمته، مبينًا أن انتهاك سلامة المؤمن وكرامته أشد عند الله من انتهاك محرماته، كما قال رسول الله (ﷺ) وهو يطوف بالكعبة:

"ما أطيبك وأطيب ريحك! وما أعظمك وأعظم حرمتك! ولحرمة العبد المؤمن عند الله أشد حرمة منك: دمه، وماله، وعرضه"[١].

---

(١) رواه مسلم.

الزهد قمة الغنى:

- على المؤمنة أن تتحرر من رق المادة، وتتطهر من لذة الشهوات، وتترك التكالب على الدنيا، ولا تركن إليها في شدةٍ أو رخاء، فالدنيا متاعها زائل، ومهما عظم فهو بالنسبة لمتاع الدار الآخرة قليل، وصدق الله العظيم:

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (الكهف: ٤٦). وعن أنس (ﷺ): قال: قال رسول الله يؤتى بأنعم الناس في الدنيا من الكفار، فيقال: اغمسوه في النار غمسة، ثم يقال له: هل رأيت نعيمًا قط؟ فيقال: لا، ويؤتى بأشد الناس ضرًا في الدنيا، فيقال: اغمسوه في الجنة غمسة، ثم يقال له: هل رأيت ضرًا قط؟ فيقول: لا".

- إن الزهد في زينة الدنيا وزخرفها يرفع من قدر الإنسان ويطوي نفسه على كل معاني الخير في هذه الدنيا، أما في الآخرة فمغفرة ورضوان من الله، وسموّ وارتفاع في الدرجات بإذن الله.

- القناعة صفة كريمة، فما قل وكفى خير مما كثر وألهى، والإنسان ليس له إلا ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو تصدّق فأبقى، وما سوى ذلك زادٌ يَتْعَبُ الإنسانُ في جمعه ويحاسب على منعه بين يدي الله (ﷻ). يقول ابن آدم: مالي، وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت؟

وقال الحسن البصري:

"من رضي بما قُسِمَ له وسعه وبارك الله فيه، ومن لم يرضَ لم يسعه ولم يُبارك فيه".

- ليكن لنا أسوة في رسول الله (ﷺ) الذي كان يتقلّب في حياة الخشونة والتقشف؛ لتتأسى به الأجيال المسلمة، وتكون دائمًا في حال استعداد لكل ما ينزل بساحتها من نوازل.

إن السعادة الحقيقية لا تكمن في جمع المال وتشييد الدور والقصور، ولكن تكمن في العيش في جنة الطاعة والحياة في رغد القناعة.

☜ بعض الناس لا هَمَّ لهم إلا ملء المعدة بالطعام، وقضاء الوقت في لَغْوِ الكلام، فهؤلاء الذين تركوا لهواهم الزّمام فقست قلوبهم وعلاها الران ليس لهم حظ في الآخرة.

الصلاة... قارب النجاة:

الصلاة هي عماد الدين؛ من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين، فلنلزم أولادنا بها، ولنكن لهم قدوة في تأديتها والحرص عليها، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٧). وقال رسول الله (ﷺ): "لتنقضنّ عُرَى الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تشبّث الناس بالتي تليها، فأولهن نقضًا الحكم وآخرهن الصلاة"[١].

☜ إن الفلاح في الدنيا والفوز في الآخرة، مرهونان بالاستقامة على دين الله، والإنسان يظل هائمًا في التِّيهِ والضياع متخبطًا في متاهات الحياة، متنكبًا الطريق المستقيم ما لم يعمر قلبه الإيمان ويَسْتَعِنْ بالصلاة، ويلتجئ إلى الدعاء، ويحيا في رحاب الحق وفي مَعِيَّةِ الصالحين.

☜ من عرف الله في الرخاء عرفه في الشدة، وأنار له الطريق، وذَلَّلَ له العقبات، وقهر أمامه الصعاب، فالمؤمن لا يستمدّ قوته إلا من ربه الذي يؤمن به ويتوكل عليه.

☜ يجب متابعة الأبناء في الصلاة وغرس حبها في قلوبهم؛ لتنبت فلاحًا وصلاحًا في الدنيا، وفوزًا ونجاةً في الآخرة بإذن الله. عن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال:

---

(١) رواه أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه.

سألت رسول الله (ﷺ): أي الأعمال أفضل؟ قال: "الصلاة على وقتها. قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين. قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله"[١].

☜ قيام الليل شعاع من نور السماء يبدّد الله (ﷻ) به ظلمات القلب، وينير دروب النفس، ويصبر به العبد على المحن، ويثبته عند الشدائد.

إن الدنيا هي جسر للآخرة، وكل ساعة تمضي من حياتنا لن تعود، فلنشترِ الآخرة بالدنيا، ولننبعث إلى الطاعة، ونهرع إلى الصلاة متى سمعنا النداء، فالمبادرة بالوقوف بين يدي الله (جل جلاله) خير من أعراض الدنيا وزينتها.

التضحيات تحيي الدعوات:

إن الدعوات لا تُنْصر إلا باسترخاص التضحيات من أجلها، ونساء الإخوان ضربن المثل الأعلى في التضحية بالغالي والنفيس في سبيل مبادئ وقيم فاضلة عشن من أجلها متأدبات بأدب العبودية مع الله (جل جلاله).

الدعوات حال الأمن يختلط فيها الخبيث بالطيب، أما حين تصاب بمحن فإن التمحيص هنا يحدث، محنة الإخوان ميّزت الزوجات الفضليات اللاتي ضحين ووفيّن عن اللاتي آثرن العافية وكن غير قادرات على الوفاء أو بذل التضحية.

بعض الناس رغم ضيق ذات اليد ورغم حاجتهم يضحون بما عندهم لمن يحتاج في سماحة نديّة ونفس راضية ابتغاء مرضاة الله وابتغاء الأجر والمثوبة منه سبحانه.

لقد مورست ضد نساء الإخوان خطة الحصار والتجويع في إطار سياسة لئيمة وهجمة حاقدة، ولكنهن ضحين أعظم التضحيات، وتسلحن بأمضى سلاح على هذا الحصار، ألا وهو: الصبر الجميل، والعزيمة القويّة، والإيمان الصادق.

---

(١) متفق عليه.

تحملت نساء الإخوان ألوانًا من الظلم والغطرسة عند زيارة الأزواج في المعتقلات، وضحين براحتهن من أجل أن يقوّين سواعد الأزواج، ويشددن عزائمهم، ويرفعن عنهم الهم، ويخففن الحزن، ويهوّنَّ ألم الفراق وبُعْد الأحباب.

بعض النساء يضيعن أوقاتهن بين الغفلة والخمول والدّعة، وديننا ليس بحاجة إلى هؤلاء، ولكنه بحاجة للمؤمنات اللاتي لهن رسالة يعشن لها، ويضحين من أجلها، وَيَبِعْنَ أنفسهن لله.

لقد ضحى الإخوان بالمال والنفس والنفيس في سبيل دعوة الله، وكانت دماؤهم الزكية التي سفكها الطغاة عربون النصر في الدنيا، ورواءً لشجرة الإسلام الخالدة.

إن التصدق على الفقراء بالمال والطعام مع شدة الحاجة إليه، يستثير عاطفة التراحم والشفقة في نفوس الأطفال، ويعودهم على الصدقة منذ الطفولة المبكرة؛ فسنوات الطفولة هي الفترة الحيوية لتكوين الضمير الخلقي والوازع الديني، ومعرفة الحلال والحرام.

ثراء الشخصية في تحمل المسؤولية:

بعض الناس لا تظهر طاقاتهم الكامنة إلا عند المحن، فالمحنة منحة إلهية يستخرج بها الله الطاقات المكنونة والخيرات المذخورة في نفس الإنسان.

إن زرع الثقة سر من أسرار التربية التي تساهم في بناء الشخصية السوية، وتساعد الأبناء على تحمّل المسؤولية ومواجهة أعباء الحياة.

أطفالنا تربة خصبة إن أحسنّا استغلالها زرعنا قيمًا عظيمة وخصالاً كريمة، وبذورًا نقية تصير أشجارًا سامقة وغرسًا تربويًا يانعًا ثمرته الصلاح والتقوى ونبيل السجايا.

إن غرس حب المشاركة في أعمال البيت في نفوس الأبناء ذكورًا وإناثًا يساهم في تربية جيل قادر على تحمل أعباء الحياة وتدبر أموره عندما يستقلّ نفسه.

على كل أُمٍّ أن تحث أبناءها على أخذ الحياة بجدية، والسعي لتحقيق ما يؤهّلهم لحياة عزيزة راشدة؛ حتى لا تضيع أعمارهم في النظر بعين الحقد لمن حقّقُوا النجاح والفوز.

إهمال الأمّ أمور التربية في الصغر ينشئ الطفل على الفوضى والتهاون والإهمال، أما لو أحسنت الأم تربية طفلها، فإنه ينشأ على الانضباط في أمور حياته، ويصبح إنسانًا مسؤولاً يؤدي حقوقه ويقوم بواجباته بكل أمانة وعزم.

فَهْمُ الأم مقدرات الأولاد يساعد في وضع كل واحد منهم في المكان الصحيح وعلى تنمية كل خصلة كريمة في كل واحد منهم بتوفيق من الله (جل جلاله).

الحرص على تنمية روح الاستقلالية والاعتماد على النفس في الأبناء يشجعهم علّى اكتساب الخبرات والتعامل مع مواقف الحياة دون تردد أو خوف.

بعض الأزواج يستنكف من مساعدة زوجته ظنًا منه أن ذلك قد ينقص من هيبته أو يقلل من رجولته، وحسبي أن أقول لهؤلاء: أين أنتم من رسول الله (ﷺ) الذي كان أعظم الرجال قدرًا وأشرفهم مقامًا وأرفعهم مكانة، ومع ذلك كان يعلف الناضح، ويعقل البعير، ويقُمّ البيت، ويحلب الشاة، ويخصف النعل، ويرقع الثوب؛ فالرجولة الحقّة هي أن يعين الرجل أهله.

بالإيمان... المحنة منحة:

كان أكثر ما يعكر صفو حياة أبناء الإخوان في الأعياد هو عدم وجود العائل بينهم ليشعرهم بحنانه، لذا لم يكن يغيب عن ملامحهم الأسى ولا عن قلوبهم مرارة الحرمان من الأب الحاني الذي كانت ألسنتهم تتوق للنداء عليه مثل غيرهم من الأطفال.

- القناعة بعطاء الله (جل جلاله) تحول حياة الإنسان من الضيق إلى السعة، ومن السخط إلى الرضا، فينبغي تربية أبنائنا على الرضا وعدم مد أعينهم إلى ما في أيدي الناس، مهما كانت قيمته، وتذكيرهم دائمًا بوعد الله للصابرين.

يجب على الأم حث أبنائها على شكر المنعم، وتعليمهم أن الله (عز وجل) يدّخر المزيد من فضله لأهل الشكر يوم القيامة، وعليها أن تمنيهم بالمنزلة العالية التي أعدها الله للشاكرين من عباده، فقد كان رسول الله (ﷺ) يعلل قيامه الليل ويقول: "أفلا أكون عبدًا شكورًا".

كانت محنة الإخوان فرصة للتمييز بين الذين أشاحوا الوجوه وأداروا الظهور؛ إما خوفًا من بطش الطاغية أو انشغالاً بالحياة... وهؤلاء الذين كانت صدورهم ممتلئة برحيق الحب... وقلوبهم مضيئة بومضات الوفاء، وأياديهم الطاهرة تحنو وتربت حتى زالت الغمة وانجلت الشدة... وصدق الله العظيم:

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (النساء: ٩).

لقد ظل الإخوان يعانون الابتلاءات جل عمرهم؛ بسبب تغييب الطغاة للأزواج في السجون والمعتقلات، ولكن أين هؤلاء الطغاة الآن؟! لقد أفضوا إلى ربهم بلا حرس ولا عتاد ولا جيش... يتمنّون على الله أن يشملهم برحمته، فما أتعس هؤلاء الذين غلبتهم أنفسهم وزيّن لهم الشيطان أعمالهم!

غرست نساء الإخوان العزّة والرضا والإيمان بالله والاكتفاء بمعيته في نفوس الأبناء، حتى أصبحت تلك القيم الإيجابية سمات لا تفارقهم، وهكذا تحولت محنة الإخوان بفضل من الله (جل جلاله) إلى منحة وهبهم الرحمن بسببها الخير الكثير.

ولا بد للقيد أن ينكسر:

عاش الإخوان سنوات المحنة العجاف وفي أنفسهم يقين أن القيد لابد أن ينكسر، وأن الإصباح سينفلق عن نور يظهر وينتشر، وقد ثبت صدق ظنهم بالله (جل جلاله) الذي أذن للحق أن يظهر وللباطل أن تخمد أنفاسه.

تبقى الحياة الزوجية التي قامت على أساس المودة والرحمة - مهما طال العمر - حية ونابضة بكل معاني الخير والمحبة، فبعد أن تحقق وعد الله بنصر المؤمنين، وأذن الله (جل جلاله) للإخوان أن يعودوا إلى ديارهم مرفوعي الرؤوس، بعد أن أزيحت السدود، وكُسرَت القيود، وانكشفت الغمة، واندحرت سطوة الظلم، بدأ الإخوان مع أهليهم من جديد مشوار الحياة في ظل طاعة الله بعد أن خرجوا من المحنة أنقياء أتقياء أعزاء.

لقد تَوَهَّم الظالمون أن القضاء على دعوة الإسلام يتحقق بالقضاء على الإخوان، ولكن ما إن خرج الإخوان المثقلون بالأمراض والجراح من السجون حتى بدؤوا في نشر دعوتهم في ربوع الدنيا مؤيدين بنصر الله ثم بزوجات فضليات تحلين بعزائم من حديد وهمم تناطح الجبال في علوّها، ووفاء نادر كتب في التاريخ بأحرف من نور: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: ٢٣).

إن طريق جماعة الإخوان المسلمين لم يكن يومًا مفروشًا بالورود والرياحين، بل كان دائمًا مضرجًا بالدماء، وهذه هي سنة الله في حَمَلَة الهداية الربانية:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة: ٢١٤).

ينبغي أن نستعين بالله على مواصلة الطريق عندما تشتدّ الخطوب، فمهما انتفش الباطل ومهما طال الطريق فيقيننا أن حزب الله هم الغالبون، وصدق الله العظيم:

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: ٥، ٦).

الحكمة أثمن عطاء:

- كثيرٌ من الناس يحصرون الرزق في المال أو تَملُّك العقارات أو اقتناء السيارات، والصحيح أن أرزاق الله (عَزَّوَجَلَّ) لا تعد ولا تحصى، فكل ما يفيء الله به على الإنسان كالحكمة، والحصافة، والذكاء، والزوج الصالح، والولد الصالح، والقدرة على مواجهة المواقف، والعافية، والصبر على المكاره، هي أرزاق، ما كان للإنسان أن يتحصل عليها لولا أن منّ الله عليه بها، وكلها خير من المال الذي ينفد والمتاع الذي يبلى.

الأم الحكيمة العاقلة توازن بحكمتها بين الأمور، وتختار الأمر الذي يستحق أن توليه اهتمامها، فتعالجه برشاد وحزم ورويّة بعد أن تستعين بالله، فمن نعم الله على العبد أن يرزقه التوفيق والسداد، ويعينه على مواجهة المواقف.

على المرأة الصالحة أن تحافظ على مال زوجها وتتعفّف في الأخذ منه، فتأخذ بقدر وفي حدود الضرورة، وعليها أن تُحَكِّمَ عقلها عند الإنفاق فتنفق بحكمة وتعقّل، وليس بإسراف أو بذخ أو سفه، وصدق الله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ (النساء: ٣٤).

على الزوج أن يحترم عقلية زوجته ويشاورها في الأمر، خاصة إذا كان يتلمّس فيها الحكمة ورجاحة العقل؛ وها هو رسول الله (ﷺ) وهو المثل الأعلى للأمة الإسلامية والأسوة الحسنة... يشاور زوجاته (رضوان الله عليهن)، وقد أخذ في هدنة الحديبية بمشورة زوجه أم سلمة (رضي الله عنها) في حدث يتعلق بمستقبل المسلمين، والله وحده أعلم بما كان يمكن أن تؤول إليه الأمور لولا أن أخذ رسول الله (ﷺ) بمشورتها (رضي الله عنها)، وهذا درس يبيّن لنا حكمة المرأة وذكاءها وقدرتها على صنع القرارات.

الحكمة لا ترتبط بجنس أو سن، فقد تُؤْتَى امرأة الحكمة، وقد تُنْزع من رجل، ورُبّ شابّ نلحظ فيه حكمة الشيوخ، ورب شيخ سفيه أهوج، والأمر مرجعه إلى الله (جل جلاله) الذي يهب الحكمة لمن يشاء: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة: ٢٦٩).

حنان حازم.... وحزم حنون:

إن الرحمة بالأولاد شعور نبيل، له في تنشئتهم أفضل النتائج، أما القلب القاسي المتجرد من الرحمة فهو يُسَبِّبُ انحراف الأولاد وتخبطهم في الحياة.

الأبناء أمانة أودعها الله (جل جلاله) في عنق الأم، وهو محاسبها عليها؛ فيجب عليها ألا تُقَصِّرَ في هذه الأمانة، وألاّ تتهاون في حق أبنائها، وأن تحملهم على الأدب الرفيع، وتغرس فيهم الخلال الحميدة.

الأم هي المحضن الذي تتخرج فيه الأجيال، فإن أحسنت التربية والتوجيه وجعلت أمر تربية الأبناء من أولياتها خرّجت جيلاً صالحًا، وإن أهملت دورها كأم في تربية أبنائها كانت سببًا في دفعهم إلى الزلل والانحراف.

كانت مخططات الطغاة تستهدف دفع أبناء الإخوان إلى التشرّد والانحراف بعد سجن الآباء، ولكن نساء الإخوان رَبَّيْنَ أبناءهن في إطار من الستر والرضا بعد أن استَعَنَّ بالله واستمطرن رحماته، وقرعن أبواب السماء يدعونه (سبحانه وتعالى) أن يحفظ لهن الأبناء، ويهدي نفوسهم، ويكشف عنهم السوء، وكانت كل واحدة منهن لأبنائها الأم بحنانها وعطفها، والأب بحزمه وقيادته للأسرة والملجأ والملاذ بعد الله.

إن عاطفة الأم هي أجمل وأعظم هدية يمكن أن تقدمها الأم لأبنائها، ولن يجد هؤلاء الأبناء حنانها وعطفها وأمومتها عند أحد غيرها، فالله (سبحانه وتعالى) هو من أودع قلبها مشاعر الرحمة والرأفة والحب.

على الأم أن تحفظ أبناءها بعيدين عن أقران السوء، وأن تكون لهم المربية الحازمة التي تتسم بالحزم مع الرأفة؛ لتكون قادرة على توجيه المركب وفق ما يرضي الله.

لقد كانت نساء الإخوان أهلاً للمسؤوليات التي ألقيت على عواتقهنّ، وبَذَلْنَ الجهد حتى يكفلن لأسرهن الاستقرار ولأبنائهن وبناتهن النشأة السوية والتربية السليمة.

يجب على الأم تحري العدل في التعامل مع أبنائها؛ فتحبّهم دون تمييز، وترعاهم دون تفريق، وتبذر بذور المحبة بينهم لتؤلف بين قلوبهم.

البر سر السعادة:

جعل الله بر الوالدين من أعظم القربات إليه، وجعله سببًا لتفريج الكروب ونيل رضاه (جل وعلا)، وهو طريق ممهدٌ إلى الجنة، وصدق رسول الله (ﷺ):

"رغم أنفه رغم أنفه رغم أنفه، قيل: من يا رسول الله؟ قال: من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كلاهما ثم لم يدخل الجنة"[١]. وقال تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأحقاف: ١٥).

كانت فاطمة الزهراء (رضي الله عنها) - بنت خير خلق الله - إذا دخل عليها أبوها رسول الله (ﷺ) قامت إليه مستقبلة وقبلت يده"[٢]. وكان إذا أمرها أطاعته ولم تخالفه، حتى وإن كان على غير ما تشتهي[٣].

---

(١) رواه مسلم والترمذي.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك.

(٣) انظر الصالحي: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد.

على الآباء أن يكونوا واصلين للأجداد، باذلين لهم كل معروف؛ ليكونوا الأسوة الطيبة والمثل الأعلى للأبناء؛ قال (ﷺ): "افعل ما شئت كما تدين تدان". وقال "بروا آباءكم تبركم أبناؤكم" (رواه الحاكم في المستدرك).

يجني الآباء ثمرة عاجلة بحسن تربية الأبناء، وهي البر والإحسان، والعطف والحنان، ودعوات صالحات من أعماق قلوب أبناء بررة، أما الثمرة الآجلة فهي الفوز بجنات النعيم.

إن بر الوالدين لا ينتهي بوفاتها، بل يستمر ما دام النَّفَسُ يتردد في صدور الأبناء، وذلك بالدعاء لهما وبر أصدقائهما والتصدق بصدقات جارية يهبون ثوابها لهما.

لقد أحل الرسول الوالدين مقامًا جليلاً كريمًا عندما جعل برهما يقع بين أعظم عملين في الإسلام: الصلاة على وقتها والجهاد في سبيل الله، فالصلاة عماد الدين والجهاد ذروة سنام الإسلام؛ سأل صحابي النبي (ﷺ): "أي الأعمال أحب إلى الله تعالى؟ قال: "الصلاة على وقتها". قلت: ثم أي؟ قال: "بر الوالدين. قلت: ثم أي؟ قال: "الجهاد في سبيل الله"[1].

زوجك.... جنتك:

الزوجة المحبة الصالحة توقر زوجها وتُجِلُّهُ وتحترمه في كل الأوقات والظروف التي تمر بها الأسرة، فتحفظ للأسرة كيانها واستقرارها وعزها وكرامتها.

يقال: إن وراء كل داعية ناجح خديجة؛ فكل من تؤازر زوجها وتقف خلفه تمشي على خطى خديجة (رضي الله عنها) التي جاءها رسول الله (ﷺ) من غار حراء خائفًا يرتعد، فهتفت به: أبشر يا بن العم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، والله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر"، فاطمأن فؤاده (ﷺ).

---

(١) متفق عليه.

إن الاختيار الصحيح للزوج على أساس الدين والخلق من أهم ما تتحقق به السعادة البالغة والسكينة الكاملة للزوجين، والتنشئة الصالحة، والتربية الفاضلة للأبناء، والاستقرار المنشود للأسرة.

الزوج مع ما يملك من قوة وقوامة وسلطة، في داخله طفل، يحتاج إلى مشاعر الحنان والرعاية التي تعطيه نوعًا من الدعم أمام مصاعب الحياة.

ما أجمل أن تكتب الزوجة لزوجها كلمات رقيقة من القلب تدخل السرور على نفسه، تعبيرًا عن أجمل وأرق علاقة حباهما الله بها، فذلك مما يسعد قلب الزوج.

لكي يتحقق الوفاق الروحي بين الزوجين ينبغي أن تسود بينهما علاقة تثمر المودة والرحمة، علاقة تنبثق من التقوى، وترتكز على الاعتصام بحبل الله المتين.

إن تودد الزوجة إلى زوجها بالكلام الذي يدخل على قلبه السرور، والإمساك عن الكلام الذي يشيع جو الكآبة والنكد هو من حصافة الزوجة الرشيدة وتقواها.

من أجمل صور الحياة تلك الصورة الناصعة للحياة الزوجية القائمة على المودة والرحمة والحب في الله، ذلك الحب الصادق الطاهر الذي يجمع بين الزوجين، فما أجزل ثوابه عند الله!

عن أبي سعيد (رضي الله عنه) **عن النبي** (ﷺ): "إن الرجل إذا نظر إلى امرأته ونظرت إليه نظر الله إليهما نظرة رحمة، فإذا أخذ بكفها تساقطت ذنوبهما من خلال أصابعهما" (أخرجه الرافعي في التدوين).

ما أكرمهن إلا كريم:

على الرجل أن يسعى سعيًا حثيثًا جادًا بحثًا عن الزوجة الصالحة الفاضلة، فالزوجة الصالحة تتحمّل تبعات الطريق بكل آلامه، وهي نموذج للزوجة الصادقة في وفائها، ومثل عظيم للأم المثالية في حنانها، وصدق رسول الله (ﷺ):

"من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه، فليتق الله في الشطر الآخر"[١].

الوفاء صفة من أجمل الصفات التي يمكن أن يتحلى بها المرء، وقد حَثَّ عليها رسول الله (ﷺ)، وأعطى من نفسه القدوة في ذلك؛ فقد روت عائشة (رضي الله عنها) أن صديقة خديجة (رضي الله عنها) "الحولاء القرشية" دخلت على النبي (ﷺ)، فهش لها، وأحسن استقبالها ووفادتها"، وذلك حبًا وإكرامًا ووفاءً لخديجة (رضي الله عنها)، وبعد أن خرجت قال: "إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان".

إن طاعة الزوجة لزوجها أمر واجب، ولكنه لا يتعارض مع كونها تنصح وتوجّه وتشير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؛ فالنساء شقائق الرجال، وصدق الله العظيم:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ (التوبة: ٧١).

بعض الرجال يتناسى حاجة الزوجة إلى العاطفة لرعايتها بيته وأولاده؛ فالحنان يجعلها أكثر تفانيًا في خدمته؛ قال (ﷺ): "ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم" (رواه الحاكم).

كان رسول الله (ﷺ) إذا خلا في بيته بسّامًا ضحاكًا، وكان أكرم الناس عشرة وألينهم طبعًا، وكان (ﷺ) يقول: "إن من أكمل المؤمنين إيمانًا ألطفهم بأهله"[٢].

إن أعظم وأطهر قصة حب هي قصة حب النبي (ﷺ) لعائشة (رضي الله عنها)، وكان الصحابة يتحرّوْنَ يومها ليهادوا النبي (ﷺ)؛ وقد سأل عمرو بن العاص النبي (ﷺ):

---

(١) رواه الحاكم وصححه.

(٢) رواه الترمذي وحسنه.

من أحب الناس إليك؟ قال: "عائشة"؛ مما يدل على أن النبي (ﷺ) لم يَستَحِ أن يعبر عن حبه لعائشة (رضي الله عنها) أمام الصحابة (رضوان الله عليهم).

الأم مدرسة:

إن تربية أبناء صالحين تبدأ باختيار زوجة ذات خلقٍ ودين... زوجة تتقي الله (جل جلاله)، وتبذل الجهد من أجل إعداد جيل مسلم صالح يحمل راية الإسلام، ويرفع لواء الحق.

النية الصادقة هي معيار قبول الأعمال وأساس التوفيق في الحياة، فعلى الآباء أن يصدقوا النية في تربية أبنائهم، وليكن شعارهم: "أستعين بالله وأتوكل عليه".

على الأم أن تكون مثلاً أعلى لأبنائها في التحلي بالصفح ومقابلة شرور الناس بالإحسان، بل عليها أن تمثّل القدوة الحسنة لأبنائها في كل أمر من الأمور؛ لأن التربية بالقدوة هي من أعظم وسائل التربية، فهي تحقق قمة العطاء التربوي بجهد يسير.

إن تشجيع الأم لأولادها وزرع الثقة في نفوسهم له دور كبير بعد توفيق الله (جل جلاله) في تنشئة جيل قادر على تحمل المسؤولية...

كثير من انحرافات الشباب ترجع رواسبها إلى سوء التربية في سنوات العمر الأولى؛ لذلك اهتم الإسلام بهذه الفترة، وتعهدها بضروب من تشريعات التربية والتقويم؛ حتى ينتقل الطفل إلى المراحل التالية وهو أصلب عودًا وأمتن بناءً.

ربّت زوجات الإخوان أبناءهن في ظروف مريرة، ولئن كان لم يُعلم ما قدمن من ثبات وصبر وتضحية، فإن أعمالهن محفوظة عند الله، وهن مأجورات عليها بإذن الله، وصدق الله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ (الأنبياء: ٩٤).

إن لتحمل مسؤولية تربية الأبناء وبث العقيدة الناصعة في قلوبهم ثمرة في الدنيا، وهي إعداد جيل يدين بالبر لوالديه، وثمرة في الآخرة، وهي خلود الوالدين في الجنة

بإذن الله، وصدق رسول الله (ﷺ) القائل: "كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته؛ فالإمام راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها، والعبد راعٍ على مال سيده وهو مسؤول عن رعيته، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته"(١).

على الأم أن تزرع كل معاني الحب والحنان في نفوس أولادها، والتي تنعكس عليها فيما بعد حنوًا وعطفًا، وحبًا وحنانًا، كما أن عليها أن تكون الصدر الحنون الذي يسمع لشكواهم ويخفف بلواهم ويوصيهم بالثبات في مواجهة الابتلاءات.

تبقى الأم هي الأم في حنانها مهما كبر الأبناء، كذلك يبقى الابن هو الابن في تعلُّقِه وارتباطه بأمه مهما كبر، فهي تظل تتربع على قلبه بحنانها؛ وتبقى العلاقة الأسرية المليئة بالتراحم هي الحافظ بعد الله في توطيد أواصر التآلف بين الآباء والأبناء، فتكون الأسرة كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

تولدت في أبناء الإخوان رجولة مبكرة من رحم المعاناة، فكان كل منهم يكشف عن سواعد الرجال لِيُرِيَ أمه من نفسه ما يريح البال ويَسُرُّ الخاطر.

إن الموت، ذلك الواعظ الصامت، يأتي بغتة، لا يعرف فرقًا بين شيخ وشاب أو صحيح وعليل، فَلْنَتَّعِظْ جميعًا به، ولنبادر بالعمل الصالح قبل أن تَتَسَرَّبَ أيام عمرنا.

الصبر على موت الولد ليس له جزاء إلا الجنة، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: يقول الله "ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسب إلا الجنة"، وفي الحديث القدسي الصحيح أن الله تعالى يقول: "إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فيقولون: نَعَمْ. فيقولُ:

(١) رواه البخاري.

قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فيقولونَ: نَعَمْ. فيقولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فيقولونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ. فيقول اللَّهُ تَعَالَى: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ) (رواه الترمذي)، يتفاوت الناس عند نزول المصائب، فمنهم الهَشّ الذي يذوب ويحمله التيار معه، ومنهم الصلب الذي يثبت عند نزول الشدائد وكثرة المحن.

على الدعاة أن يقفوا بحزم لمن يأتي بأفعال الجاهلية؛ عن ابن مسعود (جل جلاله) قال: قال رسول الله (ﷺ): "ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية"[١].

إن دعوة الأبناء إلى سبيل ربهم أمر واجب في المنشط والمكره، وهذا يعقوب (عليه السلام) يدعو بنيه في سكرات الموت إلى الله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٣).

المرض... صبر فجنة [إن شاء الله]:

إذا أراد الله بعبد خيرًا ابتلاه حتى يلقى الله (جل جلاله) وليس عليه خطيئة، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): "ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة"[٢]. وعن أبي سعيد وأبي هريرة (رضي الله عنهما) عن النبي (ﷺ): ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب[٣]، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها خطاياه"[٤].

من فضل الله على العبد أن يسخّر له في مرضه صحبة خَيِّرَةً يسألون عنه ويعودونه ويدعون له ويحيطونه بالحب الصادق والحنان ويلبون احتياجاته.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) الوصب: المرض.

(٤) متفق عليه.

إن الصبر على المرض ليس له جزاء إلا الجنة، كما قال رسول الله (ﷺ) للمرأة التي طلبت إليه أن يدعو لها بالشفاء من مرضها: "إن شئت صبرت ولك الجنة"[١].

ترعى الأم أبناءها، وتقوم على حوائجهم، وتسهر على راحتهم، حتى تتبدد صحتها، وتذوي نضارتها، ويذبل عُودها، ولا أحد يمكن أن يجازيها على صبرها وثباتها وجلدها وتفانيها إلا الله (جل جلاله)، وفي الحديث عندما سُئلَ رسول الله (ﷺ): "من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال (ﷺ): أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك"[٢].

من يعش في دائرة الدنيا يتعرض لسهام المحن، قال رسول الله (ﷺ): "اعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك"، وليس للإنسان حين يواجه المحن إلا خياران خيار الرضا بأقدار الله فيُرضِي ربه ويعلي أجره، أو خيار الجزع والسخط، فيغضب ربه ويحبط أجره؛ لذا يوجهنا الرسول (ﷺ) إلى ما يصلح أمورنا، فيقول (ﷺ):

"وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل: قَدَّرَ الله وما شاء فعل؛ فإن "لو" تفتح عمل الشيطان" (رواه مسلم).

في الموت... راحة المؤمن:

يموت الناس كل يوم، فالموت حق لا جدال فيه، ولا يتفرد بالبقاء إلا الحي الذي لا يموت؛ وصدق الله العظيم: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٥).

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

تُغَيّب الأجساد من الأنظار، ولكنها تستقرّ حية في سويداء القلوب، وتبقى معها الذكرى العطرة التي لا تموت لتتعلم الأمهات والزوجات وكل من تواجه مثل هذه الابتلاءات والمحن، الصبر والثبات والوفاء.

إن من علامات القبول عند الله حسن الخاتمة، وعلاماتها تدل على رضا الله على العبد، كما تكون عزاءً لأهله وسببًا من أسباب صبرهم على فراقه.

إن الصبر والرضا بقضاء الله وقدره من أعظم ما يتحلّى به المؤمن، ويبقى أجره عند الله بلا حدود: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ١٥٥- ١٥٧).

إن موت هؤلاء الذين عاشوا لغيرهم وحملوا على كواهلهم هموم الغير يحزن القلب ويُدمع العين، ولكن تظل سيرة هؤلاء العطرة تملأ الدنيا بعبقها وأريجها.

يقول الله: "وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون". فهذه بشرى لمن يصبر على مصيبة الموت: فالله وملائكته يصلون عليه، وهذا مقام جليل يصل إليه العبد بصبره.

إن المؤمن بعد موته يستريح من عناء الدنيا، وصدق رسول الله (ﷺ) الذي مرت به جنازة، فقال: "مستريح ومستراح منه"، قالوا: يا رسول الله، ما المستريح وما المستراح منه؟ قال: "العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب" (رواه البخاري).

خاتمة

وبعد، فهذه هي صفحات مشرقة من حياة الوالدة الحنون دولت سليم أبو رامون التي عاشت رفيقة درب الوالد المجاهد أحمد البس لستة وثلاثين عامًا، كانت تمثل له فيها الأمان والنصرة والمؤازرة، فأنعم بها من زوجة كانت جنة زوجها في دنياه؛ عاونته على تحمل مشاقّ الحياة وتقلبات الأيام ومفاجآت الليالي، ووَقَفَتْ معه وقفات إيمانية سُجِّلَتْ بأحرف من نور في سجلات التاريخ الخالدة، وتعاهدت معه من أول يوم على الإخلاص للدعوة، فما أجمل الحياة حين يحياها المرء لله فيتنسمُ عبيرًا إلهيًا رائحته تفوح منه وإن كتمها، وتظهر عليه دلائلها وإن أخفاها.

كانت نفسها تتلألأ بأنوار الإيمان، وعروقها تنبض بحب الرحمن... وبفضل صبرها وثباتها تحوّلت المحن التي عاشت تكابدها إلى منح تحمل الغيث والرحمة، فمن البعد عن الزوج الحبيب إلى القرب من الله المجيب، ومن الحرمان من حنان الزوج إلى الأنس بمعيّة الرحمن، ومن تنكّر الأهل وتولّيهم إلى التمتع بالأخوة في الله الصادقة الوفيّة، ومن التضحية بالفناء إلى الفوز بالبقاء، ومن قطع الأرزاق إلى وصل الرزّاق، ومن خسارة دنيا فانية إلى الفوز بإذن الله بجنة قطوفها دانية.

سارت الوالدة الصابرة في درب الدعوة بخطى حثيثة ثابتة لتلحق بركب خديجة وعائشة وسمية ونسيبة (رضوان الله عليهن) وهي تحمل راية التوحيد والإباء والعزة، وعبرت دربها بصبرٍ ويقين رغم أنه كان محفوفًا بأشواك أدمت قدميها، ولكنها كانت تمتلك إصرارًا على الهدف واستمساكًا بالغاية، وصبرًا على آلام المسير، وأخذت تجدّ في سيرها وهي واهنة القوى مقطوعة الأنفاس حتى أدركت نهاية الدرب بعد ربع قرنٍ من الزمان لتسلم رفيق الدرب راية مخضّبة بدم زكيّ تفوح منه رائحة أحلى من رائحة المسك، وأزكى من عبير الأزهار ولسان حالها يقول:

أخي خذ ولا تلتفت للوراءْ   فَدَرْبِيَ قد خضبته الدماءْ

ولا تلتفت ها هنا أو هناكَ ولا تتطلع لغير السماءْ

ولقد خرجت الوالدة الحبيبة الصابرة من أتون المحن والابتلاءات وهي أقوى صلابة وأكثر توهجًا وأشد نقاءً كالذهب الأصيل بعد صهره، وكان لسان حالها يقول:

سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشماء[1]

وبعد أن وفت لزوجها وأبنائها ودعوتها، مضت الوالدة الغالية إلى أكرم جوار، وأسلمت الروح لباريها، ووقع أجرها على الله، وأصبحت قدوة في الفداء والتضحية، وأسوة في الفضيلة والطهر، ومثلاً في العطاء والوفاء.

رحلت عن دنيانا بعد حياة عاشتها ونفسها تهفو لنسائم الجنان وأسمى أمانيها الفوز برضا الرحمن، كما تَبَيّن من سيرتها التي تناولنا منها شذرات، وقطفنا منها ثمرات تجسد مواقفها المشرقة... لتكون عبرة للنساء اللاتي نسين دورهنّ في الحياة، ومصباح هداية للحائرات منهن... فما كان من الممكن أن تمرّ أحداث حياتها دون أن نستقي منها العبر، ونستخلص العظات، ونتزود لشحذ الهمم؛ فاللهم إني أسألك باسمك الذي إذا سُئلت به أعطيت، وإذا دعيت به أجبت أن تجزيها بصبرها نعيمًا لا ينفد في أعلى عليين: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٩٦).

اللهم إن نبيك (ﷺ) قال: "من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كنّ له سترًا من النار" (رواه البخاري)، فاللهم اجعل ابنتيها الحبيبتين "إحسان وإقبال"، اللتين ربتهما على الفضيلة والعفاف، سترًا لها وحجزًا من النار، بفضلك ورحمتك يا الله يا أرحم الراحمين.

---

(١) الشابي.

اللهم إن الصوم يشع نوره في الميزان، فيبهر الملائكة ويعجزون عن تقديره، فيناديهم الحق (جل وعلا): "الصوم لي وأنا أجزي به"، فاللهم ضاعف لها أجر صومها أضعافًا مضاعفة، وأكرمها بفضلك في الفردوس الأعلى يا أكرم الأكرمين.

اللهم إن نبيك (ﷺ) قال: "إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وأحصنت فرجها، وأطاعت زوجها فلتدخل من أي أبواب الجنة شاءت"[1]. فاللهم إنها فعلت وأنت سبحانك أعلم بذلك... فخيّرها اللهم بين أبواب الجنة تدخل من أيها تشاء.

اللهم إنك قلت وقولك الحق:

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد: ١٨).

فاللهم إنك تعلم أنها كانت ترحم عبادك وتسارع إلى الجود، فاللهم ضاعف لها الأجر، وَجُدْ عليها بعفوك، واشملها برحمتك، وأظلها بظل صدقتها يوم لا ظل إلا ظلك.

اللهم إنك قلت وقولك الحق:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٧١).

اللهم إنها كانت تفعل وأنت سبحانك أعلم بذلك، فاللهم ارحمها يا أرحم الراجمين.

اللهم وأنعم عليها في الجنة ببيت الحمد بصبرها على موت ريحانة فؤادها "خالد"، وأنعم عليها بالخلود مع أمها خديجة (رضوان الله عليها)، التي اقتفت أثرها وسارت على هديها، فآزرت عبدك الصابر أحمد البس الذي حمل دعوة نبيك إلى الناس وثبتته...

---

(١) رواه أحمد.

اللهم إنك قلت وقولك الحق:

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٥).

فاللهم إنها قد أوذيت في سبيلك وأنت أعلم بذلك، فارزقها اللهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابًا من عندك يا من عنده حسن الثواب.

اللهم بفضلك وكرمك أنعم عليها بما سبق، وأكثر مما سبق مما أنت أهل له سبحانك، واحشرنا معها، وألحقنا بفضلك وجودك بها وبصالح المؤمنين في مستقر رحمتك في الفردوس الأعلى يا أرحم الراحمين:

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ (الرعد: ٢٣، ٢٤).

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
إهداء	٥
مقدمة الناشر	٧
تقديم: بقلم فضيلة الأستاذ محمد مهدي عاكف	١١
تقديم: بقلم المستشار عبد الله العقيل	١٥
مقدمة المؤلف	١٩
الفصل الأول: بداية الرحلة	٢١
- بداية الرحلة	٢٣
الفصل الثاني: ملامح فريدة	٣١
- وفاؤها	٣٣
- صبرها وثباتها	٣٧
- توكلها على الله	٤٣
- كرامتها وعزة نفسها	٥٠
- زهدها	٥٧
- عشقها للصلاة	٦١
- تضحياتها الجسام	٦٤
الفصل الثالث: أمي.. حنان ومسؤولية	٧٣
- غرسها لشعور المسؤولية في نفوسنا	٧٥

- أعيادنا في ظلها ٧٩
- وعاد أبي ٨٣
- حكمتها ورجاحة عقلها ٩٢
- حنانها وحزمها ٩٨

الفصل الرابع: أمي.. زهرة أسرتها ١٠٣

- برها بوالديها ١٠٥
- حبها لزوجها وإجلالها له ١٠٩
- تقدير زوجها وثناؤه عليها ١١٥
- علاقتها بأبنائها ١٢٢
- علاقتها بأشقائي ١٣١
- علاقتها بالابن الأصغر محمد خالد (رحمه الله) ١٣٦
- علاقتها بي ١٤٦

الفصل الخامس: وداعًا أمي ١٦١

- مرضها ١٦٣
- وفاتها ١٦٦
- أمي في عيون هؤلاء ١٧١
- حياتها كنز العبر ١٨٦

خاتمة ٢١١

المحتويات ٢١٥

هذه هي أمي

قطوف من حياة الوالدة دولت أبورامون
زوجة الداعية الصابر أحمد البس

- صفحات مشرقة من حياة امرأة مسلمة، ضربت أروع المثل في التضحية والعطاء والبذل والوفاء والصبر والإخلاص والتفاؤل، وكثير من القيم والمعاني الجميلة التي تفتقر اليها كثيرات من نساء اليوم.
- سيرة تدعو إلى الفخر بالانتماء إلى أكرم عقيدة يتعلم المرء في رحابها أبجديات تقبل المحن والابتلاءات واستدرار الأجر منها، وتحويلها إلى منح ربانية وعطايا سخية ترفع الدرجات، وتثقل ميزان الحسنات.
- وصف دقيق للحياة في بيت إخواني جدرانه التقوى، وسقفه الصبر، ودعامته حسن الظن بالله.. يضم أبًا مطاردًا، وأمًا حكيمة، وأبناء بررة، ويعكس صورة معظم البيوت الإخوانية في حقب الاضطهاد الأمني والتنكيل والتعذيب.
- درس عظيم في الأمومة المسؤولة، والتربية القويمة، والوفاء الزوجي، تحتاج بناتنا وأمهاتنا إلى تأمله واستيعابه ليَفُزْنَ بخيري الدنيا والآخرة، ويصدقن في انتمائهن إلى الإسلام.
- رسالة بر وامتنان لأم قوّت عودها المحنة، وبقي ظهرها مستقيمًا تحت وطأتها، ووضعت أبناءها تحت جناحي الحب والمسؤولية، رغم غياب الأب وقسوة الظروف؛ فتجاوزت الابتلاء، وخرجت منه أقوى يقينًا، وأعمق إيمانًا، وأكثر وعيًا وحكمة.
- قصة كفاح شاق وممتع في الوقت نفسه؛ لأنه كفاح في سبيل المبدأ، دفاعًا عن العقيدة، ووفاءً بحقوق الزوجية وواجبات الأمومة، وحماية لبيت غُيِّب عائله، فانبرت رفيقة عمره تحل محله، وتؤدي دوره، وتجعل من هذا الغياب القسري قمة الحضور.
- إنها سياحة إنسانية عميقة الدلالات، عذبة الألفاظ، سلسة المعاني، تنطق بالوفاء لأم استثنائية، وتسجل سيرتها بأحرف من البر والحب؛ لتصبح عرائس "دبت فيها الروح" على حد قول الشهيد سيد قطب (رحمه الله)... روح تسري في كل من يقرأ هذا الكتاب، فتجدد إيمانه، وتذكره بأن قيمة المرء في عطائه وآثاره التي تشهد له بعد موته، وتجعل سيرته دعوة، ومسيرته قدوة.

الناشر

مركز الإعلام العربي

يطلب من مركز الإعلام العربي:
٢٠٠ ش الهرم - الجيزة - مصر - ص.ب: ٩٣ الهرم - الجيزة - مصر
ت: ٣٧٨١١١٩٣ - ٠٠٢٠٢/٣٧٨١١١٩٤ - ف: ٠٠٢٠٢/٣٧٨١١١٩٥ التوزيع: ٠٠٢٠٢/٣٧٤٤٥٤٥٥ - ٠٠٢/٠١٠٠٠٢٧٠٢٥
البريد الالكتروني: mediacenter55@hotmail.com
الموقع على شبكة الانترنت: www.amc-eg.com